

كتابي

أنا كارنينا

القصة الحقيقية لـ «تولستوي»

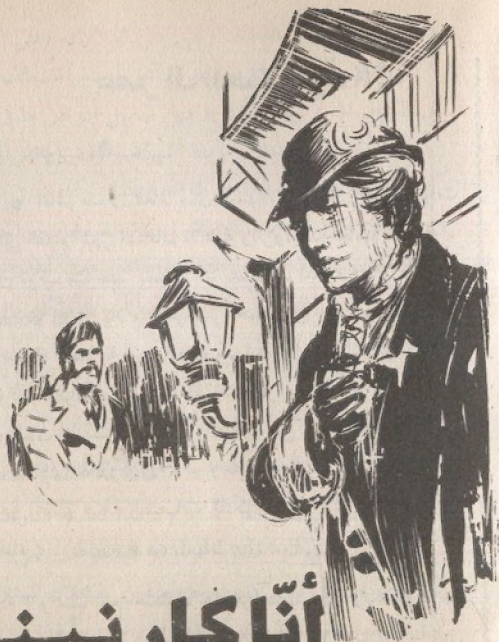
Looloo

www.dvd4arab.com

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى: ٢٠٠٤م - ٢٠٠٤م

ترجمة: حلمي مراد



أنا كارنينا

القصة الخالدة لـ «تولستوي»

عصر ال «مينى بوك» !

عزيزى القارئ ..

● انتشرت فى العالم ، فى السنوات الأخيرة ، الطبقات التى تقدم أشهر الأعمال الأدبية والروايات العالمية الطويلة ، فى ثوب متوسط الطول قد يصح أن نسميه « ميني بوك » Mini Book يلائم عصر السرعة ، وضيق الوقت ومشغوليات الحياة العصرية التى زحف فيها « غول » التليفزيون فالتهم وقت القراء ، ولم يترك لهم منه للقراءة إلا أقل القليل ! .. ولذلك أطلقت دور النشر العالمية على هذه الطبقات إنها « لاقارئ العصري » ، أو (بالتعبير الإنجليزى الذى تواتر على أغلفة هذه الطبقات المتكاثرة التى تبلغ الآلاف كل

عام) : For the Modern Reader

ونمشياً مع هذا الاتجاه الزاحف - ودون عدول عن مواصلة نشر الترجمة «الأمينة الكاملة» للأعمال الأدبية بين الحين والآخر ، كما عودتك « مطبوعات كتابي » - رأيت أن أقدم لك فى هذا العدد نموذجاً عملياً « عينة » من هذا الاتجاه الجديد ، آملاً أن توافيني برأيك فيه بمجرد «الانتهاء»

من قراءة هذا العدد . وغنى عن البيان أن النص الكامل لرواية « أنا كارنينا » يستغرق نحو أربعة أضعاف هذا الكتاب الذى بين يديك ، فهل تفضل أن تقرأها فى أربعة أجزاء ، تصدر خلال أربعة أشهر متوالية ، أم تقرأها دفعة واحدة فى هذا الكتاب الواحد الذى راعيت فى ترجمته التوفيق بين الترجمة الكاملة لبعض الصفحات والمواقف التحليلية الهامة ، وبين التلخيص لصفحات أخرى يكثر فيها الوصف التفصيلي - الممل أحياناً - للأماكن والمناظر والأشخاص والأزياء ... إلخ ؟

هذا ما أرجو أن توافيني برأيك الصريح فيه ، دون إبطاء .

١٣ فيلماً عالمياً ، عن هذه الرواية !

● وقد حرصت على أن أزود هذه الطبعة بما استطعت الحصول عليه من صور فوتوغرافية لمواقف من الرواية أجاد تمثيلها أعظم ممثلي السينما العالميين ، خلال الستين عاماً الماضية ، فقد لا تعلم أن هذه الرواية قد أحرزت قصب السبق فى عدد الأفلام السينمائية التى صورتها - فى مختلف بلاد العالم - منذ اختراع السينما حتى اليوم ، حتى لقد بلغ عدد هذه الأفلام ١٣ فيلماً ، هى على الترتيب :

فيلم أنتجته ألمانيا ، عام ١٩١٠ ، ثم آخر أنتجته الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩١٥ ، وثالث أنتجته إيطاليا ، عام ١٩١٧ .. ثم ألمانيا مرة أخرى (١٩١٩) .. فالبحر (١٩٢٠) .. فأمریکا مرة ثانية (١٩٢٧) ، فثالثة عام (١٩٣٥) ، وقد مثلت الفيلم الأخير النجمة السويدية جريتتا جاربو في دور «أنا» ، و«فريدريك مارش» في دور «فرونسكى» ، و«بازيل رايبون» في دور «أليكسى»

ثم أنتجت بريطانيا фильماً ثامناً في عام ١٩٤٨ ، مثلت فيه دور «أنا كارنينا» النجمة الراحلة «فيان لى» (بطلة «ذهب مع الريح» و«جسر واترلو») . وفى عام ١٩٥٢ أنتجت الهند фильماً تاسعاً عن هذه الرواية ، ثم تلاها الاتحاد السوفيتى بفيلم عاشر فى عام ١٩٥٣ (مثلت بطولته النجمة «ألا تاراسوفا») . ثم الأرجنتين عام ١٩٥٦ . وفى عام ١٩٦١ أخرجت مصر قصة أنا كارنينا فى فيلم بعنوان «نهر الحب» ، مثلته «فاتن حمامة» و«عمر الشريف» . وأخيراً أنتج الاتحاد السوفيتى الفيلم الثالث عشر ، بالألوان ، عن هذه الرواية الخالدة ، عام ١٩٦٧ .

أنا الحقيقية ، التى أوحى بفكرة هذه الرواية !

● وقد استغرقت كتابة «أنا كارنينا» من مؤلفها تولستوى نحو خمس سنوات ، فقد بدأها فى ربيع عام ١٨٧٣ ، وأتمها ونشرت فى أكتوبر عام ١٨٧٧ . وأما كتاب حديث ممتع ، تروى فيه زوجة تولستوى بعض ذكرياتها عن هذه الرواية وظروف تأليفها ، والملابس التى أوحى ببعض مواقفها ، أجترئ لك منه هذه الفقرة عن سر تسمية بطلة القصة باسم «أنا» ، والحادث الذى أوحى لتولستوى بفكرة نهايتها :

«كان لنا جار ، فى نحو الخمسين ، يدعى «إ. ن. بيبكوف» ، لم يكن على قدر كبير من الثراء أو التعليم . وكانت زوجته قد توفيت ، فاستدعى قريبة لها غير متزوجة ، فى نحو الخامسة والثلاثين ، لتدير شئون منزله وتشرف على تربية ابنه .. ولم يلبث أن اتخذها خليله له . وذات يوم أحضر بيبكوف فتاة ألمانية حسنة لتكون معلمة لابنه وابنة أخته ، فلم يلبث أن أحبها ، وعرض عليها الزواج .. فلما اقترب موعد الزواج ، خرجت خليلته - وكان اسمها «أناستيانوفنا» - من المنزل بدعوى زيارة أمها فى بلدة (تولا) ، حاملة معها حزمة صغيرة بها بعض

ثايبا ، فوجهت إلى محطة سكة حديد (ياسنكى) القريبة ،
وهناك ألقت بنفسها تحت عجلات قطار بضاعة ، أثناء
مروره . وقد أتبع لايو - (تولستوى) - أن يراها عقب
الحادث ، رأسها المهشم ، وجسدها المبتور العارى ، فى
مشرحة ثكنات (ياسنكى) .. فهزه الحادث هزة عنيفة ،
إذ كان يعرف « أنا ستينانوفنا » من قبل ، بقامتها الطويلة ،
وجسدها الممتلئ ، ووجهها الأسمر ذى الملامح الروسية ،
وعينها الغبراوين .. ورغم أنها لم تكن بارعة الجمال ، فقد
كانت على قدر كبير من الجاذبية .. » .

والآن ، يا عزيزى القارئ ، أتركك لتستمتع بصحبة
أبطال هذه الرواية ، وعلى رأسهم البطلة ذات الشخصية
الخالدة : « أنا كارنينا » !

حلمى مراد

الفصل الأول

- ١ -

● العائلات السعيدة كلها تشابه أسباب سعادتها .. أما العائلات
التعيسة فإن لتعاسة كل منها سبباً خاصاً يختلف عن أسباب تعاسة
غيرها !

وقد كان كل شئ مضطرباً فى أسرة « أوبلونسكى » :
فالزوجة اكتشفت أن زوجها على صلة آثمة بفتاة فرنسية كانت
تعمل مربية لدى الأسرة ، وقد صارحته الزوجة بهذا النبأ وأندرتة
بأنها لن تستطيع الاستمرار فى العيش معه تحت سقف واحد ! ..
وهكذا تخرج الموقف بينهما ، واستمر كذلك ثلاثة أيام ، أدرك
خلالها كل من فى المنزل من أفراد الأسرة ، والخدم ، استحالة
استمرار الحال على ذلك المنوال : كانت الزوجة معتصمة فى
مخدعها لا تبرحه .. بينما الزوج لم يعد يأوى إلى المخدع منذ بدأت
الأزمة .. وانتهر الأطفال هذه القرصة فأخذوا يعيشون فى البيت
فساداً ! .. وضافت بهم المربية الإنجليزية الحالية ، وتشاجرت مع
أميته شئون الدار غير مرة ، فكتبت إلى صديقة لها تسألها أن
تبحث لها عن عمل آخر ! .. ولم يطق الطاهى صبراً فترك عمله فى
البيت فجأة ظهر اليوم السابق ، بلا إنذار ! .. والخدمة التى تعمل

مساعدة له أنذرت هي الأخرى باعتزامها ترك الخلعة ، وكذلك فعل الحوذى !

وفي اليوم الثالث بعد وقوع النزاع ، استيقظ الزوج (الأمير « ستيفان أركاديفتش أوبلونسكى » ، أو « ستيفا » كما يدعونه في الأوساط الرفيعة) في الساعة الثامنة صباحاً ، كما ألف أن يستيقظ كل يوم ، ولكنه لم يكن نائماً في مخدعه ، بل كان ممدداً فوق كنية من الجلد في حجرة مكتبه ... ولم يحاول النهوض ، أول الأمر ، بل انقلب بحسمه البدين على جنبه الآخر ، ثم دفن وجهه تحت الوسادة ، متأهباً لاستئناف النوم .. على أنه لم يلبث أن نهض فجأة ، واستوى جالساً ، ثم راح يحاول أن يتذكر الحلم الذى رآه في نومه ! ولعل عينا « ستيفان » وابتم جذلاً ، وهو يفكر في الحلم الذى رآه .. ثم دلى قدميه من فوق الكنية إلى الأرض ، وأخذ يبحث بهما عن خفيه اللذين أهده إياهما زوجته يوم عيد ميلاده الأخير ، وقد صنعتهما له بنفسها من الجلد ذى اللون الذهبى . ثم مد يده وهو جالس - كما اعتاد أن يفعل طيلة الأعوام التسعة الماضية كلما استيقظ - ليتناول رداء الغرفة « الروب دى شامبر » ، لكنه سرعان ما تذكر أنه قضى ليلته في غرفة مكتبه لا في مخدع زوجته - حيث يعلق ذلك الرداء في متناول يده - ففقد حاجبيه مغمغماً : « إنها لن تصفع عني .. إن الذنب كله ذنبى أنا ! » . كان قد عاد من المسرح في تلك الليلة بآدى الانسراح والسعادة ،

يحمل في يده ثمرة « كثرى » ضخمة لزوجته ، لكنه لم يجدها حيث ألف أن يجدها في حجرة التدخين ، ولم يجدها أيضاً في غرفة المكتب .. وأخيراً وجدها في مخدعها ، وفي يدها الخطاب التعس الذى أوضح لها كل شيء ! .. وكانت جالسة بلا حراك تنظر إليه نظرة رعب وبأس وحنى ، ثم تنقل بصرها إلى الخطاب الذى فضح لها خيائنه ! .. وأخيراً وجدت صوتها لتسأله ، وهى تشير إلى الرسالة : « ما معنى هذا ؟ أجب ! » .

وبدلاً من أن يؤلمه الاتهام فينكر ، أو يدافع عن نفسه ، ارتسمت على وجهه ابتسامته المألوفة المرحية .. الحمقاء في مقام مثل هذا !

كان ستيفان في الرابعة والثلاثين من عمره ، يكبر زوجته بحوالى عام ، وقد أنجبت له خلال الأعوام التسعة لزوجتهما سبعة أولاد ، توفى منهم اثنان . وقد كان صادقاً في صلته بنفسه ، عاجزاً عن خداع هذه النفس وإيهامها بأنه أسف على مسلكه .. بل إنه حتى في هذه اللحظة لم يستطع أن يحس أسفاً أو نداماً على أنه « لا يحب » زوجته ! .. ومضى ستيفان يغمغم ، محدثاً نفسه : « أوه ، هذا فظيع .. فظيع ! .. ما العمل ؟ . لقد كانت الأمور تسير في البيت حتى الآن على خير ما يرام : كانت هى قانعة وسعيدة بأولادها ، ولم أندخل أنا في شيء من أمور البيت والأطفال . صحيح أنه لم يكن يليق أن تكون زوجتى بمثابة

« المربية » في بيتنا ، كما لم يكن يليق أن يغازل المسرء مربيته ، ولكن .. يا لها من مربية فاتنة ! » .

ونهض « ستيفان أوبلونسكى » على أثر ذلك ، وارتدى رداء رمادياً لاغرفة ، تتخلله خيوط من الحرير الأزرق ، وعقد الحزام جيداً .. ثم جذب نفساً عميقاً من الهواء إلى صدره العريض العارى ، ومشي إلى النافذة بخطوته الواثقة المألوفة ، ورفع السجف المسدلة فوقها بواسطة الحبل المثبت في إطارها ، ثم دق الجرس .. فجاءه خادمه الوفى القديم « ماتنى » يحمل بذلته وحذاءه ، وبرقية له . ومن ورائه حلاق يحمل كل الأدوات اللازمة لمهمته ..

وسأل ستيفان خادمه ، وهو يتناول البرقية ويجلس إلى المرأة : « هل هناك أوراق أرسلت من المكتب ؟ » ، فأجاب « ماتنى » وهو يرمق سيده بنظرة عطف وتساؤل : « إنها فوق المنضدة » . وما كاد ستيفان يقرأ البرقية حتى هتف قائلاً : « ماتنى ... سوف تكون أختى (أنا) هنا غداً ! » .. فقال ماتنى : « شكر الله ! » . وكأنما أراد بهذا الجواب أن يفهم سيده أنه مثله يدرك مغزى هذه الزيارة ، وما تمهد له من سعى في سبيل الصلح مع زوجته ! .. ثم سأل ماتنى سيده بعد قليل : « هل تحضر وحدها ، أم مع زوجها ؟ » .. ولم يستطع ستيفان أن يجيب ، فقد كان الحلاق يمر بموساه على شفته العليا ، فاكتفى بأن رفع سبابته ، إشارة إلى أنها قادمة بمفردها !

- ٢ -

● كان « ستيفان أوبلونسكى » رجلاً مسالماً ، على صلة طيبة بجميع معارفه ، يناديهم بأسمائهم الأولى مجردة ، في غير كلفة ، سواء في ذلك أبناء الستين ، وأبناء العشرين ... المشلولون ، والوزراء ، والقساوسة ، والتجار ، وكبار الضباط ... وكان صديقاً حميماً لكل من شرب معه كأساً من الشمبانيا - وكان يشرب كأس شمبانيا مع أى إنسان ! - وحين كانت الظروف تسوق إليه في مكتبه ، وأمام مرؤوسيه ، واحداً من أصحابه سيء السمعة - كما اعتاد أن يصف بعضهم مازحاً - كان يعرف كيف يتفادى حرج الموقف بلباقته المعهودة .

ولم يكن « كونستانتين ليفين » رجلاً سيئ السمعة ، ولكن أوبلونسكى شعر بإحساسه المرهف أن ليفين هذا يتصور أنه يؤثر عدم إظهار صلته الوثقى به أمام مرؤوسيه ، ومن ثم لم يكذ « ليفين » يدخل عليه في مكتبه ، في ذلك النهار ، حتى سارع إلى أخذه إلى غرفته الخاصة ، حتى قبل أن يتبادلا التحية ! .. وكان ليفين في مثل عمر أوبلونسكى ، ولم تكن صلتها الودية قائمة على الشمبانيا وحدها ، فهناك أيضاً زمالتها القديمة في مستهل شبابهما . وقد شغل كل منهما بالآخر برغم اختلاف شخصيتهما وميولهما ، كما هو شأن الزملاء القدامى دائماً . ومع هذا كان كل منهما في قرارة نفسه يحتقر مهنة صاحبه ، وإن أطراها أمام الناس ، ولعل هذا

شأن كل زميلين يختاران مهنتين مختلفتين ، إذ يظن كل منهما أن طريق الحياة الذى اختطه لنفسه هو وحده الطريق الأقوم والأجدر بأن يسلكه الرجل الطموح !

ولم يكده ستيفان بخلو إلى صديقه ، حتى ابتدره قائلاً : « إنه ليسرنى أن أراك !.. كيف أنت ؟.. ومتى جئت ؟ » .. فاقترض ليفين الإجابة عن هذه الأسئلة ، ثم أردف قائلاً : « لمريد أن أحدثك فى أمر ! » .. فقال ستيفان : « حسناً ، فلنتناول الغداء معاً ثم نثرر كما نشاء ! » .. فأوماً ليفين موافقاً وقال له جاداً : « لا بأس ، على أن عندى سؤالاً عاجلاً أحب أن أعرف جوابه الآن ! » .. فتكلف ستيفان هيئة الجاد وقال : « إذن ، هات ما عندك أيها العزيز .. » ، وصمت ليفين هنيهة ، مغالباً حياة الفطرى ، ثم قال لصديقه :

— كيف حال آل « شرباتسكى » ؟

ولم يكن ستيفان يجهل أن ليفين يحب « كيتى » — شقيقة زوجته « دوللى » — فأجابه وقد ارتسمت على فمه ابتسامة خفيفة ، ولملت عيناه مرحاً : « هذا سؤال يحتاج للإجابة عنه إلى وقت أطول .. » ، فقال ليفين وقد كست حمرة الخجل وجهه حتى أطراف أذنيه : « حسناً ، فلنؤجل الحديث فى هذا الشأن إلى فرصة أخرى ! » .. وعند هذا أدركه ستيفان مشفقاً وقال له : « كنت أحب أن أدعوك إلى بيتى ، لولا أن زوجتى (دوللى) ليست على

ما يرام .. ولكن ، اسمع : إذا أردت أن تراهم فى المؤكد أنهم سيكونون فى حديقة الحيوان بين الساعة الرابعة والخامسة ، ففى هذا الوقت تمارس (كيتى) رياضة الانزلاق .. وسوف أمر عليك هناك كى نذهب بعد ذلك فنتعشى فى أى مكان تختار .. » . وأوماً ليفين برأسه موافقاً ، ثم نهض لينصرف ..

وكانت أسرنا « ليفين » و « شرباتسكى » من الأسر النبيلة القديمة فى موسكو ، وقد ارتبطت الأسرتان من قديم برباط الصداقة والود ، ثم زاد فى توطد هذه الصلة أن جمعت الزمالة فى المدرسة بين ليفين والأمير شرباتسكى (شقيق كلا من « كيتى » و « دوللى » ، زوجة « ستيفان ») ، وكثر تردد الأول على منزل الثانى ، وصار صديقاً حميماً لأفراد أسرته جميعاً ، ولا سيما النساء منهم ! .. كانت أمه قد ماتت منذ زمن بعيد ، تاركة إياه وأخته التى تكبره بأعوام .. ومن ثم كان بيت « شرباتسكى » أول مكان رأى فيه الحياة المتزلية لأسرة عريقة نبيلة مثقفة شريفة — الأمر الذى حرم هو منه بوفاة أبويه ! — فألف أن يرى فتيات الأسرة الثلاث : دوللى ، وناتاليا ، وكيتى ، ويسمعهن يتكلمن الفرنسية أنا ، والإنجليزية آنا .. أو يعزفن على البيانو .. وكثيراً ما شغلت هذه الأنغام سمع ليفين وقلبه وعقله ، حين كانت تصل إليه فى غرفة الأمير (شقيق الفتيات الثلاث) ، وهو يستذكر معه دروسهما .. وصار يلمح أساتذة الأدب الفرنسى ، والموسيقى ،

والرسم ، والرقص ، يترددون على منزل الأسرة واحداً بعد الآخر . وفي ساعة معينة من كل يوم كانت الفتيات الثلاث يخرجن مع مرييتهن الآنسة لينون ، فتعصى بهم العربة إلى شارع (تفرسكى) ، وقد ارتدت دوللي معطفاً طويلاً ، وارتدت ناتاليا معطفاً متوسط الطول ، أما كيتى فكان معطفها قصيراً بحيث تبين تحته ساقاها الجميلتان . المغلفتان بجوربيهما الآخرين الضيقين ..! وفي شارع تفرسكى كن يترجلن ليسرن على أقدامهن ، في حراسة خادم خاص يضع في قبعته شارة مذهبة ..! هذا كله وغيره مما كان يحدث في عالمهن الغامض ، كان ليفين يراه فيعجب به ، ويجب فيه غموضه ذاته !

وأحب ليفين « دوللي » كبرى الفتيات الثلاث ، لكنها ما لبثت أن تزوجت من زميله وصديقه الآخر « ستيفان أوبلونسكى » ، فلم يعبأ ليفين بالأمر كثيراً ، وبدأ يحب شقيقته ناتاليا ..! لقد أحس أنه لا يستطيع إلا أن يحب واحدة من أولئك الأخوات ، وإن عجز عن تحديد تلك الواحدة بالذات !

لكن ناتاليا لم تكده تظهر في المجتمعات — بعد أن شبت عن الطوق — حتى زوجت من الدبلوماسى « لفوف » !

وكانت الثالثة « كيتى » ما تزال طفلة حين غادر « ليفين » الجامعة .. ثم التحق شقيقها — صديقه « تشرباتسكى » — بالأسطول ، وغرق في البلطيق ، فقترت صلة ليفين بالأسرة ..

ولكنه حين جاء لزيارة ستيفان أوبلونسكى في موسكو عند بداية الشتاء ، بعد غيبته نحو عام في الريف ، رأى آل تشرباتسكى ، وأدرك — منذ وقعت عينه على كيتى — أى الأخوات الثلاث خليف به أن يتدله في حبها !

ولم يكن ثمة ما هو أبسط وأيسر على من كان مثله — عراقة حسب ، وثرأ ، وشباباً — من أن يتقدم طالباً يد الأميرة الصغيرة للزواج . وكان المرجح أنه لو فعل لقوبل بالترحاب ، باعتبار أنه « صنفقة » رابحة ! .. ولكن ليفين كان عاشقاً ، ومن ثم بدت له كيتى من الكمال والروعة بحيث تفوق وتسمو على كل مخلوقة أرضية ! .. في الوقت الذى بدا هو — في عيني نفسه — على درجة من الضعة وتفاهة الشأن لم يكن يعقل معها أن يراه الناس ، أو تراه هى ، جذيراً بها !

وقضى صاحبنا في موسكو شهرين ، في حال من النشوة والحبور تجل عن الوصف ، كان خلالها يرى كيتى في أكثر الأيام ، سواء في بيت الأسرة ، أو في المجتمعات التى كان يحضر على غشائها لأنها هى أيضاً تغشاها .. لكنه في النهاية قرر فجأة أن يهجر موسكو ويعود إلى الريف ، اقتناعاً منه بأن كيتى لا يمكن أن تحبه ، وأنه في أعين أسرته لا يعد شيئاً مذكوراً ، ولا يليق زوجاً للأميرة رائحة مثلها ، ولا سيما أنه ليست له مهنة من المهن المحترمة المعترف بها ، ولا هو يشغل مركزاً مرموقاً في المجتمع ! ..

لانه ليس أكثر من رينى يشتغل بتربية الماشية ، وبناء المخازن وشون الغلال ، ويقضى وقته فى ألعاب الرماية .. أو بعبارة أخرى هو رجل ليست له كفاءة خاصة ، ولم يثبت أن له موهبة خارقة .. فى أى شئ ! .. إن كيتى الغامضة الساحرة لا يمكن أن تحب رجلاً قبيح الخلقة مثله ، تافه الشخصية ، عادياً ، كما يعد هو نفسه .. هذا إلى أن مسلكه نحوها فى الماضى - مسلک الرجل الناجح ، نحو الطفلة التى لم تشب عن الطوق بعد - بدا له بمثابة عقبة أخرى تعترض حبهما . إن مثله يمكن أن تعجب الفتاة به كصديق ، ويكون موضع ود خالص ، أما أن يكون هدفاً لحب عارم مثل حبه هو لـ « كيتى » ، فذلك أمر بعيد المنال ، ولا يمكن أن يحظى به غير قتي وسيم ، ممتاز ! .. صحيح أنه سمع عن نساء كثيرات أحبن رجلاً تافهين قبيح الخلقة ، لكنه لم يصدق ذلك . فهو لا يصدق إلا ما توحى به إليه نفسه !

لكنه بعد أن قضى شهرين فى الريف بمفرده ، أيقن أن حبه لكيتى ليس من قبيل المغامرات العارضة التى جربها فى شبابه الباكر ، وأنه لا يستطيع أن ينعم بلحظة واحدة من الراحة وسكينة النفس ، بعيداً عنها ! .. بل لا يستطيع أن يمضى فى مواجهة الحياة دون أن يستريح إلى يقين من قبولها - أو رفضها - تحقيق تلك الأمنية العزيزة ! .. وأحس أن بأسه ينبع من تصوراته وخيالاته وحدها ، وأنه لا يملك دليلاً ما على أنها سوف ترده خائباً ، وهو

الآن قد جاء إلى موسكو بعزم ثابت على أن يتقدم طالباً يد الفتاة ، وأن يتزوجها بغير إبطاء ، إذا قبلته !

- ٣ -

● كاد قلب « ليفين » يقفز فى صدره انفعالا وهو يهبط من الزحافة التى أوصلته أمام باب حدائق الحيوان عند الأصيل . ومضى فى الطريق إلى الآكام الثلجية وساحة الانزلاق ، حيث كان موقناً من أنه سيجد كيتى هناك ، كما أنبأه ستيفان !

وكان اليوم مشرقاً جليلاً ، والحديقة مزدهرة بزوارها من ذوى الأزياء الأنيقة ، وذوات القبعات الزاهية ، فضى ليفين فى الممر المتعرج يحدث نفسه : « ينبغي أن أحتفظ بالهدوء ! إن هذا الانفعال الذى أحسه ليس ثمة ما يدعو إليه ! .. إنه دليل على الغباء ! » .. لكنه كلما زجر قلبه المتلاحق الخفقات ، ازدادت خفقات قلبه شدة ، ولهث أنفاسه ! .. ولما أشرف على غايته وانبسط أمام بصره ساحة الانزلاق ، سرعان ما لحت عينه كيتى بين عشرات الفتيات والرجال . رآها بقلبه قبل أن يراها بعينه ! أدرك أنها هناك - حيث رآها - من فرط الذعر الذى تملك قلبه فجأة !

وكانت كيتى واقفة تتحدث إلى سيدة فى الطرف الآخر من الحلقة ، ولم يكن فى ثيابها أو مظهرها ما يلفت النظر .. لكن بصر ليفين اهتدى إليها بسهولة ، كما يميز الزهرة وسط الحشائش

الخضراء . فاتجه نحوها وهو يتجنب النظر إليها ، كما يتجنب النظر إلى الشمس ، وإن كان يراها كما يرى الإنسان الشمس ، دون أن ينظر إليها !

وفجأة أحس أن الشمس تقترب منه ! .. كانت كيبي قد انفلتت من الجدار الذي استندت إليه ثم انزلت بسرعة في اتجاهه .. وإذ ترنحت في اندفاعها لحظة رفعت بصرها ، فوقعت عينها عليه ، وعرفته ، فابتسمت .. وحين استردت توازنها ، أومأت له برأسها ! .. يا لله ! إنها أجمل مما كان يتصورها بخياله وهي بعيدة عنه ! .. يا للتعبير الناعم الصافي الذي يلوح في عينيها . بل يا لا يتسامتها ، التي طالما نقلته إلى عالم بحري رائع ، يخص فيه بنفسه وقد غدا .. ناعماً .. رقيقاً .. مثلاً كان في بعض أيام طفولته ! وابتدرته وهي تثبت قدميها في الأرض ، وقد بلغت مكانه ، مادة إليه يدها مصافحة : « هل جئت منذ زمن ؟ » . وسقط متدليها من كهدها ، فأنحنى يلتقطه لها . وأردفت قائلة : « أشكرك ! » ، فأجابها مبتسماً : « أنا ؟ كلا ! لم أخضر منذ زمن . أمس فقط ، أعني اليوم وصلت . وكنت أعترم أن أذهب لأراك ! »

ثم استطرده بعد أن أطرق هنيئة : « لم أكن أعلم أنك تجيدين الانزلاق إلى هذا الحد ! » .. فألقت إليه نظرة فاحصة ، كأنما تريد أن تقف على سر اضطرابه ثم قالت : « إطرارك جدير

بالاعتبار ، فهم يقولون هنا : إنك أبرع الجميع في الانزلاق ! .. فاصطيفت وجنتاه بحمرة الحياء وقال : « كنت في وقت ما أمارس هذه الرياضة متحمساً . أردت أن أبلغ الكمال ! » .. فقالت : « إنك تفعل كل شيء متحمساً ، هذا ما أعتقده .. بودى أن أراك تنزل . هيا ، تعال ننزل معاً ! » .

وقال ليفين لنفسه وهو يحدق فيها : « ننزل معاً ! أهذا ممكن ؟ » .. لكنه سرعان ما قال لها مغتبطاً : « حسناً ! لحظة ثم يكون ما تريد ! » . ومضى إلى رجل الساحة - المختص بإعداد روادها للانزلاق - وهو يحدث نفسه قائلاً : « هذه هي الحياة ، هذه هي السعادة ! .. معاً ؟ ننزل معاً ! .. هل أخاطبها في الأمر الآن ؟ .. آه .. هذا سر حزني وإحجائي ! .. إنني لسعيد الآن ، سعيد بالأمل . ولكن ماذا بعد ؟ على أية حال يجب ألا أحجم بعد الآن ، نعم يجب ، ولكن .. بحقاً لهذا الضعف الذي أشعر به ! » .

ونفض ليفين ، فانزل في رشاقة وسهولة حتى بلغ مكانها ، فتناوله يدها واستأنفا الانزلاق على الجليد مسرعين .. وكلا ازدادت سرعة اندفاعهما ، ازداد ضغط قبضتها على يده ! .. وبعد أن تبادلوا حديثاً عابراً ، سأله عن حياته في الريف ، ثم أردفت : « لا بد أن الحياة هناك مملة في الشتاء ، أليس كذلك ؟ » .. فقال لها : « إن مشاغلي هناك كثيرة . ولهذا لا أشعر بممل » .

فسألته : « هل تعزم أن تبقى هنا طويلاً ؟ » .

فسكت هنيهة ثم نغم : « الحق أنى لست أدري ! » .

وبدت الدهشة في عينيها ، وسألت : « كيف ؟ » .

فاشتد تلغم لسانه ، وقال : « لست أدري الآن . الأمر

يتوقف عليك ! » .. وقبل أن یرن صدى عبارته الأخيرة في

سمعه ، أدرك أنه تعجل أكثر مما ينبغي ، فانتابه الذعر ! .. وسواء

أكانت الفتاة قد سمعت كلماته أو لم ترد أن تسمعها ، فإنها لم تلبث

قليلا حتى انفصلت عنه وانزلت بعيداً ، متجهة نحو مريبتها

« ملموازيل لينون » التي كانت واقفة حول الحلقة تفرج على

جموع اللاعبيين ، فأسرت في أذنها بوضع كلمات ثم اتجهت نحو

الجناح الذى يتزع فيه رواد الساحة معدات الانزلاق .. بينما كانت

عينا ليفين تقبعانها في انزعاج ، وهو يؤنب نفسه مردداً صلاة حارة

في أعماقه : « يا إلهي ، ماذا فعلت ؟ .. آه .. يا إلهي الرحيم ..

ساعدنى ، أرشدنى ! » .

وأحس بحاجة إلى أن يقوم بمجهود جثافي عنيف يشغل

أفكاره ويحيد فيه تعويضاً نفسياً عن قلقه ، فراح يقوم بوضع

حركات معقدة خطيرة أثناء انزلاقه ، الأمر الذى لفت إليه

أنظار الجماهير ، ومن بينهم « كيتى » .. وكانت قد عادت بعد

أن نزعت عن قدميها حذاء الانزلاق ، ومعها مريبتها .. وابتسمت

له في مودة هادئة ، كما لو كان أحباها المفضل ، وحدثت نفسها

قائلة : « كم هو رائع ظريف ! .. ترى هل أخطأت في حقه ؟ ..

أنا أعلم أنه ليس الشخص الذى أحبه ، لكنى مع ذلك أحس

السعادة في صحبته ، ثم أنه مرح جداً .. ولكن ، لم قال لى تلك

العبارات ؟ وما الذى كان يعنيه ؟ » .

ثم اتجهت إلى حيث كانت أمها تجلس في الساحة ، وهمت

كلتاها بالانصراف ، فسارع ليفين إلى مغادرة الحلقة ، وخلع

نعلى الانزلاق متعجلاً ، ثم لحق بهما عند مدخل الحديقة ، فحبته

الأميرة شرباتسكى الأم قائلة : « يسرى أن أراك . إننا عادة

لا نبرح البيت في أيام الخميس .. » ، فقال ليفين : « الخميس ؟

إذن .. هل سيدنى تعنى ؟ .. تعنى اليوم ؟ » .

فقالت الأميرة الأم : « نعم ، ويسرنا أن نراك ! » .

وخيل إلى كيتى أن في لهجة أمها شيئاً من الجفاء ، فأدارت

وجهها نحو ليفين مبتسمة وقالت له ، محاولة أن تزيل أثر قنور

أمها : « إلى اللقاء ، هذا المساء .. وفى تلك اللحظة أقبل نحوها

« ستيفان أوبلونسكى » ، فوقف يتجاذب الحديث مع « هاته »

برهة ، ويحجب على أسئلته عن صحة زوجته دوللى .. ثم ودعهما ،

وتناول ذراع ليفين وانطلق به إلى خارج الساحة وهو يقول :

« إذن ، هيا بنا إلى مطعم إنجلترا ! » .

وفى المطعم ، انتظر ستيفان حتى أفرغ ليفين كأسه ، ثم قال

له : « هناك شئ » ينبغي أن أقوله لك .. هل تعرف فرونسكى ؟ » :

فغرد ليفين ما بين حاجبيه ، وسأل صديقه ومضيفه قائلاً : « من

يكون فرونسكى هذا ؟ .. فقال ستيفان : « هو أحد أبناء الكونت كيريل إيفانوفتش فرونسكى .. إنه من ألمع شبان بطرسبرج ، وعلى قدر كبير من الثراء والوسامة ، كما أن له صلات وطيدة بكثير من العظماء ، وهو إلى ذلك رضى الخلق ، واسع الثقافة ، بارع الذكاء ، ظريف كل الظرف .. ويشغل فى الجيش منصب ضابط أركان حرب ، والجميع يتوقعون له مستقبلاً مرموقاً .. ولكن الذى يهمنى من أمره الآن أنه غارق فى حب كيتى إلى أذنيه ، فقد تعرف إليها على أثر سفرك فى المرة السابقة ، ولعلك تعلم أن أمها .. »

وهنا قطع ليفين كلامه قائلاً ، والأسف ملء صوته : « لست أعلم شيئاً على الإطلاق ! .. » فقال ستيفان : « لقد أطلعتك على ما أعرف ، وأعتقد - برغم دقة الموقف - أن فرصتك فى الفوز أكبر ، بشرط أن تعجل بالبت فى الأمر وتطلب يد الفتاة فوراً ، ولكن ليس الليلة على أية حال ، بل غداً صباحاً ! »

- ٤ -

● منذ فرغت كيتى من تناول الغداء ، وحتى بداية الأمسية ، أحست انفعالاً شبيهاً بانفعال الشاب المقبل على خوض معركة ! .. كان قلبها ينبض بعنف وشدة ، وأفكارها تأبى أن تستقر على شئ ! لقد أحست أن تلك الليلة سوف تكون نقطة التحول فى

حياتها ، ففيها سيلتقى لأول مرة الرجلان يربدان الزواج منها ! .. وكان خيالها دائب المقارنة بينهما ، يستعرضهما آنأ على انفراد ، وآونة مجتمعين ! .. وعادت بأفكارها إلى الماضى ، واستقرت هذه الأفكار - فى شئ من البهجة والحنين - على ذكريات صلاتها مع ليفين : ذكريات طفولتها ، وصداقة ليفين لأخيها ، ولهو ثلاثتهم معاً ، وغير ذلك من الصور التى أضفت جاذبية شعرية خاصة على شعورها نحو ليفين . ومن ثم لذلها أن تفكر فيه ، وفى حبه لها ، ذلك الحب الذى توقن منه ، وإن لم يبح لها به ! .. هذا إلى أنها فى حضرته كانت تحس جواً من البساطة والصفاء ، ورفع الكلفة .. بعكس حالها مع « فرونسكى » ، الذى كان وجوده يضى على الجو شيئاً من التوتر والارتباك . لكنها - برغم ذلك - كانت لا تفكر فى فرونسكى إلا ويتوسط أمامها الأمل فى مستقبل سعيد ، فإذا انتقلت بتفكيرها إلى ليفين أحست كأن المستقبل قد شابه فجأة بحابة من الغموض !

وحين صعدت إلى غرفتها لتتزين ، تأهباً لاستقبال ضيوفها ، ونظرت إلى صورتها فى المرآة ، سرها أن وجدت وجهها يتألق بنضارة العافية والشباب . ولم تكده تهبط إلى غرفة الاستقبال ، فى منتصف الساعة الثامنة ، حتى أعلن الخادم قدوم « كونستانتين ديمتريفتش ليفين » . وكانت الأم ما تزال فى غرفتها ، وفرونسكى لم يصل بعد ، فأتركت كيتى والدَم يندفع إلى قلبها بقوة أن ليفين

تعتمد التفكير في الحضور ليخلو إليها ويكشفها بنيتها ! وعندئذ فقط تنبئت إلى أن الأمر ليس أمر البت في مستقبلها وسعادتها هي وحدها ، بل في مستقبل وسعادة شخص آخر ، تفرض عليها الظروف أن تجرحه وتؤلمه ، لا لشئ سوى أنه يحبها ، ويخلص لها الحب ! .. فرأحت تحدث نفسها قائلة : « يا إلهي ، هل يجب علي حقاً أن أقولها له ؟ هل أستطيع أن أصارحه بأنني لا أحبه ؟ لأنني أكون كاذبة . إذ ماذا أقول له ؟ هل أقول له أنني أحب شخصاً آخر ؟ .. كلا ! هذا مستحيل .. مستحيل ! » .

وكانت قد بلغت الباب ، فسمعت خطواته تقترب .. وما لبث أن أشرق عليها وجهه القوي المجدول ، وعيناه اللتان ركزهما عليها ، فرفعت إليه بصرها كأنهما تناشده أن يجنبا الموقف الجرح ، بينما مدت يدها إليه مصافحة ، فقال وهو يميل نظره في الغرفة الخالية : « لعل بكرت في الحضور ، قبل الموعد المناسب ؟ » ، وأظلم وجهه إذ تبين أن اللحظة الخطيرة الفاصلة قد حانت ، ولم يعد ثمة ما يمنعه من الإفصاح ! .. فأجابت كبتى وهي تجلس : « أوه ! كلا ! .. لكنه لم يجلس ، بل أردف بقول وهو يتجنب النظر إليها ، كى لا يفقد شجاعته : « على كل حال ، هذا ما أريده تماماً : أن أجلك وحلك ! » .

فقال دون أن تحول عنه عينيها المتوسلتين : « بعد هنية ، تهيأ أي من غرقها . لقد كانت تعباً للغاية أمس ! » وعندئذ نظر

إليها ، فتورد وجهها ، وتوقفت عن الكلام .. بينما استأنف هو كلامه قائلاً : « ذكرت لك أن مدة إقامتي هنا تتوقف .. عليك . وقد قصدت أن أقول .. قصدت أن أقول .. أنني جئت خصيصاً .. كي أعرض عليك .. أن تكوني زوجتي ! » .

ولم يدر ماذا قال على وجه التحقيق ، لكنه أحس أن العبارة الخطيرة قيلت ، وأنه قد اجتاز العقبة الكأداء .. فتوقف عن الكلام ، ونظر إليها ! .. وكانت هي تتجنب النظر إليه ، ولكن أنفاسها تلاحقت ، وأحست بنشوة عجيبة ، وبسعادة هائلة تغمرها . ولم يدر قط بخلداه من قبل أن مجرد ذكر الحب يكون له عليها هذا التأثير القوي ! لكن شعورها هذا لم يطل أكثر من لحظة ، تذكرت بعدها « فرونسكى » ، فرفعت عينيها الصافيتين الصادقتين إلى « ليفين » ، وإذا رأت وجهه اليائس أجابت في عجلة :

— عقوا .. هذا غير ممكن !

وبهت المسكين ! لأنها منذ لحظة واحدة كانت قريبة منه كل القرب ، لها في حياته كل الأهمية . أما الآن ، فما أبعدها ، وأضال نصيبه منها ! .. وأجاب دون أن ينظر إليها : « كان ينبغي أن أتوقع هذا ! » .. ثم انحنى تأهباً للانصراف . ولكن حدث في هذه اللحظة أن دخلت الأميرة الأم عليها ، وما كادت تراها منفردين ، وفي هيتهما ما ينم عن الاضطراب ، حتى ارتسم الفزع

في عينيها ! وانحنى ليفين لها دون أن يتنطق بكلمة ، أما كيتي فلم ترفع عينيها إلى أمها . وإذ ذاك حدثت هذه نفسها قائلة : « حمد الله ، لقد رفضته ! » .. وأضاعت وجهها ابتسامة الترحيب التقليدية التي تستقبل بها زوارها كل يوم خميس ، ثم جلست ، وبدأت تسأل ليفين عن حياته في الريف ، بينما جلس هو على مضض في انتظار قدوم زائرين آخرين ، كى يتسنى له أن ينسحب غير ملحوظ !

ولم تمض خمس دقائق حتى أقبلت الكونتة « نور دستون » صديقة كيتي ، وكانت قد تزوجت في الشتاء الأسبق وتريد أن تكفل لصديقتها زينة موفقة تحقق لها في حياتها السعادة المنشودة — وتلك عادة النساء المتزوجات مع الفتيات اللواتي على أهبة الزواج ! — وكان الزوج المثالي لفنائه مثل كيتي ، في رأى الكونتة صديقتهما ، هو « فرونسكى » .. أما « ليفين » ، الذي ظالما التقت به في بيت تشرباتسكى في بداية الشتاء ، فلم يظفر بإعجابها ، بل إنها جعلت معها أن تسخر منه وتصفه شخصه ، سواء في حضوره أو غيبته ! .. وكان هو أيضاً قد استنقل ظلها ، ولم يدخر وسعاً في إظهار كرهه لها ! .. وهكذا انتهى الأمر بهما إلى أن صارا يحتقر كلاهما الآخر ، إلى الدرجة التي تجعله لا يحمل آراءه على محمل الجدل ، ولا يغضب من إساءته !

وبدأت الكونتة تحرشها بليفين ، وهي تبسم في تهكم : « هيه ؟

إذن لقد غدت ثانية إلى مدينتنا التي تسميها عاصمة الفساد ؟ ترى هل موسكو هي التي اهتدت من ضلالها ، أم أنت الذى انحلت أخلاقك ؟ ! » .. فأجابها متكباً هو الآخر : « إنه ليرضى غرورى يا سيدتى أن تهتمى بتسجيل آرائى وتذكر أقوالى بهذه الدقة ! لا بد أنها تترك فى نفسك تأثيراً كبيراً ؟ ! » .. فقالت : « أعتقد ذلك ، فلانى أحرص على تدوينها بنصها ! » .. ثم استدارت لتتحدث إلى كيتي في شتى الموضوعات . ومضت لحظات قضاها ليفين صامتاً حائراً ، وكيتي ترمقه بين حين وآخر بنظرة خاطفة ، ثم تعود فتجنب عينه !

.. وأخيراً قرر أن ينهض لينصرف ، كى ينجو بنفسه من ذلك الجو الحائى . وقبل أن ينفذ عزمه هذا دخلت ضيفة جديدة ، ودخل في أثرها ضابط ، لا يعرف ليفين ، لكنه حدث نفسه قائلاً : « لا بد أن يكون هذا فرونسكى ! » .. ولكى يثبت من الأمر اختلس نظرة إلى كيتي ، فرأى عينيها قد تألفتا حين وقع بصرها على ذلك الضابط ! ولم يجد ليفين بداً من أن يعادل عن الانصراف ، وأن يبقى لكى يرى ، ويسمع ، ويعرف المزيد عن شخصية غريمه ! .. إن بعض الناس يميلون في مثل هذه الظروف إلى تجاهل كل ما لمنافسهم الظاهر من صفات حسنة ، ولا يرون غير صفاته السيئة .. وهناك آخرون يميلون بطبعهم إلى اكتشاف حسنات الغريم المحظوظ التي تفوق عليهم بها ، حتى لا يكادون

يرون غيرها ، وإن كانت قلوبهم تعاني أثناء ذلك ألماً موجعاً ..
وقد كان ليفين من هذا الفريق الأخير ، لكنه لم يجد صعوبة في
الاهتداء إلى مواطن جاذبية فرونسكى ، فقد كانت بادية للعيان
لأول وهلة .. كان قوى البنيان ، أسمر البشرة ، متوسط الطول ،
ذا وجه وسيم ينم عن الهدوء والحزم في وقت واحد .. وكان كل
ما فيه - من شعره الأسود المصفف ، ووجهه الخليق ، وسترته
العسكرية - يجمع بين الأناقة والبساطة !

وانته « فرونسكى » أول ما اتجه إلى الأم ، فالتفت لها في
احترام .. ثم عجم شطر الابنة وقد لمعت في عينيه الجميلتين نظرة
خاصة رقيقة ، وابتهامة ظافرة سعيدة ، فأعطاهما يده الصغيرة
العريضة مصافحاً .. ثم حيا بقية الموجودين بوضوح كلمات ، واتخذ
مكانه في المجلس بعد أن قلمته الأميرة إلى ليفين . ثم اشترك الجميع
في حديث متشعب كان فرونسكى فارسه المبرز . كان يوجه
كلامه بصفة خاصة إلى كيتى وليفين ، متقللاً بنظرته الودية من
أحدهما إلى الآخر على التوالي ، بحيث لم تكده الأميرة أو الكونتنة
تجدان فرصة للكلام ، إلا حين استندار المتحدث نحو الأخيرة
كى ينتقل بحديثه إلى موضوع الحفلة الراقصة الكبرى التى تقام
في الأسبوع التالى .. ولم يلبث ليفين أن انصرف وهو يحمل في
وعيه صورة وجه كيتى الباسم السعيد وهى تصغى إلى حديث
فرونسكى !

لم يكن فرونسكى قد عرف يوماً الحياة « البتية » الحقيقية ،
فقد كانت أمه في شبابها من نساء المجتمع اللامعات ، الأوانى
يقضين أكثر وقتهن خارج البيت . وكانت لها أثناء حياة زوجها
- ثم بعد وفاته خاصة - مغامرات غرامية عديدة تردد صداها
السيئ في جميع أوساط المجتمع الرفيع ! أما أبوه فلا يكاد التقي
بذكر عنه شيئاً ، فقد مات وخلفه صبيّاً ، حيث كفلته أمه ، ثم
التحق بالكلية الحربية ، فلما تخرج فيها اندمج من فوره في بيئة
ضباط بطرسبرج الأغنياء .. وبرغم دخوله في محيط المجتمع
المترف فإن مغامراته الغرامية كلها كانت بطلاتها فتيات من
خارج ذلك المحيط .. فلما عرف كيتى في موسكو هذه المرة أحس
أنه يتذوق لأول مرة متعة رفع الكلفة مع فتاة بريئة عذبة ، من
نفس طبقته الاجتماعية . ولم يدر بخلده قط أن في علاقته بها أية
غضاضة أو ضرر . صار يراقصها كلما التفت إليها في الحفلات والمناسبات
ويتردد على بيت أسرته بانتظام ، ويثرثر معها كما يثرثر الناس عادة
في المجتمعات ، وبرغم أنه لم يقل لها يوماً حرفاً لم يكن يستطيع أن
يقوله لها علناً على مسمع من الجميع ، فإنه شعر بأنها تزداد مع
الأيام « اعتياداً » عليه ، واستمتع بذلك إلى حد كبير .. لكنه
لم يعلم أن هذا المسلك فيما يتصل بها له وصف خاص في قاموس
المجتمع ، هو « التفرير بالفتيات دون تفكير في الزواج منهن ! » ..
ولا كان يعلم أن هذا التفرير - أو المغازلة - هو من الشرور المألوفة

في مجتمعات الشباب النابئين أمثاله .. وإنما بدا له أنه أول من استكشف
متعة العلاقة التي من هذا القبيل ، وقد استمتع باستكشافه !

ولو قدر له أن يسمع ما كان أهل الفتاة يقولونه في ذلك المساء ،
من أن كيتي سوف تشقى إذا لم يتزوجها ، لدesh لذلك أبلغ
الدهوة ! بل لعله ما كان ليصدق .. ! لم يكن يستطيع أن يصدق
أن ما يدخل على قلبه - وعلى قلب الفتاة نفسها دون ريب - مثل
هذه البهجة والمتعة ، يمكن أن يكون « خطأ » يؤاخذ عليه .. وأكثر
من ذلك لم يكن في وسعه أن يقتنع بأنه ينبغي له أن يتزوج ، فإن
الزواج لم يخطر يوماً بباله ! .. لا يفضيه للحياة العائلية والبيتية
فحسب ، وإنما لأن كلمة « عائلة » أو « زوج » لم يكن لها في عالم
العزوبة الذي يعيش فيه غير معنى واحد منفر عجب ، بل مضحك !

على أن فرونسكي برغم جهله بما كان يدور في أذهان أفراد
أسرة شرباتسكي ، شعر لدى خروجه من دارهم في تلك الليلة
بأن الرباط الروحي الخفي الذي يربط بينه وبين كيتي قد ازداد
قوة ومثانة في تلك الأمسية بالذات ، بحيث بات ينبغي له أن يتخذ
في صده خطوة ما . ولكن ما هي هذه الخطوة على وجه التحديد ؟
إنه لا يستطيع أن يعرف ، أو يتخيل ! .. على أنه وهو عائد من
دار آل شرباتسكي ، في ذلك المساء ، أخذ يحدث نفسه قائلاً
وقلبه مغمم بالنشوة والانشراح : « الشائق في الأمر كله أن أحداً منا
لم يوجه إلى الآخر كلمة ما ، لكننا نتفاهم برغم ذلك أوضح التفاهم

بتلك اللغة الغامضة السرية ، لغة النظرات والنبرات .. إنها أفصحت
لي الليلة ، أكثر من أية مرة سابقة ، أنها تحبني ! وإني لأشعر بأني
صرت مغلوفاً أفضل وأطهر ، وبأنني قلباً ينطوي على قدر كبير
من الحب والخير ! .. يا لعينها العاشقتين ، العذبتين ! ..

ومضى يسائل نفسه وهو سائر في الطريق : « أين أمضي بقية
المسيرة ؟ .. أقي اللعب وشرب الشمبانيا مع صديقي « أجناتوف » في
النسادي ؟ أم في ملهى « قصر الزهور » مع أوبولونسكي ، في الرقص
والغناء ؟ .. وشعر بأنه سئم كل تلك المتع ، وبأن ما أعجبه في
بيت شرباتسكي أنهم يجعلون منه شخصاً أفضل ! .. وعلى هذا فقد
اتجه رأساً إلى غرفته في فندق « دوسر » حيث تناول عشاءه ثم خلع
ثيابه . ولم يكدر رأسه يلمس الوسادة حتى غرق في نوم عميق !

- ٥ -

● في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي مضى فرونسكي
إلى محطة السكة الحديدية في بطرسبرج ليستقبل أمه . وهناك التقى
على سلم المحطة بصديقه ستيفان أوبولونسكي ، الذي كان ينتظر قدوم
أخته في القطار ذاته . وبعد أن تصافحا قال فرونسكي : « ما الذي
أتى بك إلى هنا ؟ »

- جئت لاستقبال امرأة جميلة !

- حقاً ؟

- حذار أن تسيء في الظن .. إنها أعنتي « أنا » !

— آه ، تعني مدام كارنينا ؟

— أنت تعرفها إذن ؟

— أعتقد ذلك ، أوروبالا . لست متأكدًا في الواقع ، وإن كنت سمعت هذا الاسم في مناسبة لست أذكرها الآن !

— لكنك تعرف زوجها ولا شك : « أليكسي الكسندروفتش » المشهور ! الدنيا كلها تعرفه !

— أعرف أنه ذكي ، مثقف ، ومتدين إلى حد ما !

— نعم إنه رجل ممتاز . قد يكون محافظاً بعض الشيء ، لكنه شخص رائع .. رائع حقاً !

ثم انتقل الرجلان بثرثرتهما إلى أخبار « ليفين » . فعلم فرونسكى أثناء الحديث أن غريمه يحب كيتى منذ زمن ، وأن سر اكتنابه في الليلة السابقة وبكيره في الانصراف هو — في الغالب — أنه طلب يدها فلم يلق منها ترحيباً أو تشجيعاً ! .. فانتفضت أوداج فرونسكى زهواً ، دون وعى منه ، ولملت عيناه ببريق الانتصار .. وفي تلك اللحظة وصل القطار ، وجاء من ينبئه بأن الكونتنة فرونسكى — أمه — تنتظره في مقصورتها ، فانتزعته هذا القول من تفكيره في كيتى إلى التفكير في أمه التي سيلقاها بعد لحظات : أنه ، في قرارة نفسه لم يكن يحترم أمه ، بل لم يكن يحبها — وإن لم يعترف بذلك لنفسه ! — لكن تقاليد البيئة التي يعيش فيها كانت تضطره إلى أن يظهر لها كل الطاعة والاحترام !

ومضى مع الدليل إلى عربة القطار التي كانت أمه تحتل إحدى مقاصيرها . وعند باب المقصورة توقف ليفسح مكاناً تمر منه سيدة تبغى الخروج . ومن نظرة واحدة إلى مظهر تلك المرأة ، وبفطنة الرجل الخبير بطبقات المجتمع ، أدرجها فرونسكى في عداد المتمنيات إلى المجتمع الرفيع ، فألها المعذرة ودلف داخل العربة . لكنه أحس أنه ينبغي أن يرمق تلك المرأة بنظرة أخرى ، لا لأنها كانت خارقة الجمال ، ولا بسبب أناقتها وجلالها البادين في مظهرها كله .. ولكن لأنه لحظ أن تعبير وجهها الفاتن وهي تمرق بجواره ، له طابع خاص ، جديد ، جذاب ! .. والتفت هي ، في اللحظة التي التفت فيها ، فاستراحت على وجهه عيناها اللامعتان الغيراوان ، اللتان زادتاهما سواداً كثافة أهدابهما ، ثم حولت بصرها بسرعة نحو الجماهير المتراحة وكأنها تبحث عن شخص معين . ولكن خلال تلك النظرة الحاططة القصيرة ، وجد فرونسكى الوقت الكافي كي يلحظ الالهفة المكبوتة التي تشيع في وجه تلك المرأة وتأرجح بين عينيها اللامعتين .. والابتسامة الخفيفة التي ترف على شفتيها الحمراوين ! .. إن طبيعتها تطفح بشيء يظهر — برغم إرادتها — في بريق عينيها آونة ، وفي ابتسامتها آونة أخرى ، بحيث إذا أفلحت في إطفاء نوره في عينيها ، شع برغمها في الابتسامة الواحة التي يدركها الناظر ، يحسه لا بعينه !

ودلف فرونسكى إلى داخل المقصورة ، حيث كانت أمه

العجوز التي جف عودها وتغضن وجهها . وكانت قد نهضت من مقعدها وناولت خادمتها حقيبة صغيرة . فلما لحق ابنها ابتسمت ابتسامة خفيفة بشفتيها الرقيقتين ، ومدت إليه يدها الصغيرة المغضنة كي يقبلها ، ثم رفعت رأسه عن يدها وقبلته بدورها على خده ، وقالت له :

— إذن فقد تلقيت برقيتي ؟ حمدًا لله !

فغمغم قائلاً : « لعل الرحلة كانت مريحة لك ؟ » ثم جلس إلى جوارها يستمع لحديثها ، لكنه كان يصغي دون قصد إلى صوت امرأة أخرى ينبعث خارج المقصورة . إنه ولا شك صوت المرأة التي التقى بها عند الباب .. كان أحدهم يقول لها : « اسمحي لي أن أقبل يدك .. » فأجابته إلى طلبه وأردفت قائلة له : « وداعاً يا إيفان بتروفتش .. ولهذا المناسبة ، هلا تكرمت بالبحث عن أخي على الرصيف وإرشاده إلى مكاني ؟ » ثم قفلت راجعة إلى داخل المقصورة نفسها ، فلما رأتها أمه قالت لها متسائلة : « هل وجدت أخاك ؟ » . وهنا أدرك فرونسكى أنه أمام « مدام كاريتينا » ، فانتهر الفرصة ودخل في الحديث . قال للمرأة وهو ينهض وينحني لها : « أخوك هنا ياسيدتي . أرجو المائدة إذ لم أعرفك منذ البداية ، فقد كان تعارفنا عابراً في المرة السابقة .. بحيث لا أشك في أنك لا تذكريني » .. فأجابت وهي تطلق لهفتها المكبوتة ، في ابتسامتها : « أوه ، كلا . الواقع أنني كان ينبغي أن أعرفك ، لأنني وأملك لم



وهناك أدرك فرونسكى أنه أمام (مدام كاريتينا)
فانتهر الفرصة ودخل في الحديث ..

نكن نتحدث إلا عنك طيلة الرحلة . عجباً لأخى ، لم يظهر بعد ! .
وهنا قالت له أمه : « اذهب وناده يا أليكس » .

فهبط فرونسكى إلى الرصيف وأخذ يصيح : « أوبلونسكى
أوبلونسكى ! .. ولم تنتظر مدام كارنينا وصول أخيها ، فما كادت
تلمحه قادماً حتى خرجت للاقائه بخطواتها الخفيفة الحازمة ، فلما بلغ
مكانها ألقت ذراعها اليسرى حول رقبته -- بحركة لفتت نظر فرونسكى
من فرط جلالها ورشاقها -- ثم جذبته بسرعة إليها وقبلته في حرارة ..
بينما ظل فرونسكى محققاً فيها ، لا يرفع عنها بصره ، ثم ابتسم ..
دون أن يدري لماذا ؟

.. وتذكر أن أمه في انتظاره ، ففعل عائداً إلى العربية ،
فاستقبلته أمه قائلة : « إنها عذبة لاغاية ، أليس كذلك ؟ لقد أجلسها
زوجها معي في المقصورة ، وكى سرنى أن تؤنسنى . إننا لم نكف عن
الكلام لحظة .. وكذلك فعلت أنت فيما يبدو . أنك تتقن الغزل .
لا بأس يا بنى .. لا بأس ! .. فأجاب في فتور : « لست أدري
ماذا تقصدين يا أماه .. هيا فلنذهب ! » .

وفي تلك اللحظة دخلت مدام كارنينا العربية كى تودع الكونتنة
بقولها : « لقد التقيت أنت يا بنك ، وأنا بأخى ، واستفدتنا كل
حديث ! » ، فقطعت الكونتنة كلامها وهي تتناول يدها قائلة :
« أوه ، كلا ! .. أن بوسعى أن أطوف العالم كله معك دون أن
أشعر بالملل . إنك واحدة من النساء الساحرات اللاواقى يحلو للإنسان

في حضرتين أن يضممت أو يتحدث على السواء ! .. والآن رجائى
إليك ألا تعطيلى التفكير فى طملك ، فما كان يمكن ألا تقترقا قط ! » .
ثم التفتت إلى ابنها وقالت له موضحة : « إن لمدام كارنينا ابناً فى
الثامنة ، وهى لا تقوى على فراقه ! » .

فأ قالت « أنا » وقد أضاعت وجهها ابتسامة جذابة : « نعم ،
لقد قضينا - الكونتنة وأنا - الوقت كله نثرثر : أنا عن ابنى ، وهى
عن ابنها ! .. فابتسم فرونسكى وقال يرد لها الدعابة : « أخشى
إذن أن تكونا قد شعرتما بأشد الملل ! » . ثم تصافحت المراتان ،
وطبعت أمه على خد « أنا » قبله وداع وهى تقول لها : « أصارحك
يا عزيزى بأنى قد وقعت فى هواله ! » ، فاحمر وجه « أنا » غبطة
وزهواً بمديح حديثها .. وحين جاء دور فرونسكى فى مصافحتها
كانت ترف على شفيتها وفى عينيها تلك الابتسامة الحلوة التى تقبلت
بها تحية أمه ، فضغط الشاب اليد الصغيرة التى قدمتها إليه وقد أمتعت
الحرارة التى أظهرتها فى مصافحته ، والتى كأنما خصته بها ! .. ثم
انفلتت تلحق بأخيها فى خطاها السريعة الخفيفة ، فتبعها عينا
فرونسكى حتى غابت طلعتها الرائعة عن ناظره ، لكن الابتسامة
بقيت على شفثيه فترة .. ثم استدار إلى أمه وراح يسألها عن أخبار
الأسرة ، فاندفعت تسردها عليه فى إسهاب واهتمام ، وهو لاه
عنها بفكره ، حتى أقبل رئيس خدمتها الخاصة ينبئان إليها

أن الأمتعة كلها قد نقلت من القطار ، فأعطى فرونسكى ذراعه لأمه وهبطا من العربى !

.. وفى تلك اللحظة رأيا بضعة رجال ، على رأسهم ناظر المحطة ، يهرعون فى اتجاه القاطرة بوجوه مدعورة .. وسرعان ما انتشرت الجلبة والضوضاء على الرصيف ، وسمعت أصوات مختلطة تتساءل فى لهفة : « ماذا ؟ ماذا ؟ أين ألقى بنفسه ؟ سحق رأسه ؟ » .. وعندئذ عاد أولبونسكى وشقيقته نحو القطار كى يتجنبيا الزحام ، وقد بدا عليهما شيء من الخوف ، فالتقيا بفرونسكى وأمه من جديد . وصعدت المراتان إلى العربى ، بينما ذهب الرجلان ، يستطلعان نبأ ما حدث : إن واحداً من عمال المحطة كان ثملاً ، أو شغله الضباب الكثيف عن نفسه ، فلم يسمع صوت القاطرة وهى تتحرك إلى الورا ، فسحقته تحت عجلاتها ! .. وعاد الرجلان يرويان القصة ويسفنان بشاعة منظر الجثة الممزقة التى رأياها ، ثم أضاف أولبونسكى قائلاً :

— المؤلم أن زوجته كانت هناك ! كم كان مؤثراً منظرها وهى تلتق ببنسها على أشلاء زوجها ! .. ثم أنهم يقولون إنه كان العائل الوحيد لأسرة كثيرة العدد !

فقال مدام كارنينا فى همسة متفعلّة : « أليس فى الإمكان مساعدة التبعة بشئ ؟ » ..

ونظر فرونسكى إليها . ثم قال لأمه وهو يذلف إلى خارج

العربى : « سوف أعود بعد لحظة » . وحين عاد بعد دقائق ، مضى الأربعة نحو باب الخروج فلما بلغوه استوقف ناظر المحطة فرونسكى متسائلاً : « لقد أعطيت مساعدى مائتى روبية ، فلمن تنبرع بها ؟ » . فأجابه هذا وهو يهز كتفيه : « للأرملة طبعاً . كنت أحسبى فى غنى عن الإيضاح ! »

واستقل فرونسكى وأمه عربتهما ، بينما بقى أولبونسكى وأخته ينتظران خادمتها الخاصة . وفى أثناء ذلك كان المارة بهما يعلقون على الحادث كل حسب رأيه : قال أحدهم : « يا لها من ميتة رهيبة ! » . فأجابه الثانى : « على العكس ، أعتقد أنها أسهل ميتة وأسرعها ! » .. وحين استقرت مدام كارنينا فى العربى لاحظ أخوها أن شفتيها ترتجفان ، وأنها تحبس دمعها بصعوبة .. فسألها مترعجاً : « ماذا بك يا أنا ؟ » .

— أنه قال سيئ !

— هراء .. المهم فى الأمر أنك جثت . إنك لا تتصورين إلى أى حد أعلق آمالى عليك !

— هل تعرف فرونسكى منذ زمن ؟

— نعم .. ونحن نأمل أن يتزوج من كيتى !

— حقاً ؟ .. ولكن دعنا نتحدث عن أحوالك أنت .. قص

على ما حدث !

وأخذ يروى لها قصة الخلاف بينه وبين زوجته .. وحين وقفت

بهما العربية أمام البيت ، عاون شقيقته على النزول ، وضغط يدها
رئسها . ثم مضى بالعربية إلى مكتبه .

• • •

● حين وصلت « أنا » إلى منزل أخيها أوبلونسكي ، كانت
« دوللي » زوجته جالسة تعطى ابنها « جريشا » درساً في الفرنسية ،
بينما يدها منبهكتان في بعض أشغال الإبرة التي تستعين بها على
التخفيف من حدة انفعالها في لحظات الترقب المرحقة للأعصاب .
وكانت قد عقدت العزم على ألا تصبني لأية محاولة تبذلها ضيقها
لإقناعها بالصفح عن زوجها الخائن ، وإن سرها أنها استجد الفرصة
لكي تنفس بالتحدث إليها عن بعض الحقد الذي يعمل في صدرها
نحوه !

واستقبلت دوللي ضيقها بقبلة ترحيب ودية ، وبعد أن حيثها
« أنا » وعانقت أطفالها جميعاً ، انفردت المرأتان في غرفة الاستقبال
تشربان القهوة وتحدثان .. وبعد لحظات ابتدأت أنا مضيقها
قائلة : « دوللي .. لقد قص على ستيفان كل شيء ! ولست أريد
أن أدافع عنه أو أواسيك أنت . لكنني آسفة حقاً يا عزيزتي من
أجلك ! .. ولعلت الدموع فجأة تحت أهدابها الوطف الكثيفة ،
واقتربت من زوجة أخيها تتناول يدها في عطف وحنان ، فلم تحفل
هذه ، لكن وجهها لم يفقد تعبيره الصارم .. وقالت لمحدثها :
« من المستحيل أن تواسيني ، فقد ضاع كل شيء بعدما حدث ..

كل شيء انتهى ! .. وأسوأ ما في الأمر أنني مقيدة ، بسبب
الأطفال ، بحيث لا أستطيع أن أبذه .. في حين لا أستطيع أن أعيش
معه . إن رؤيته وحدها تعذبني ! » .

فقالت لها أنا : « لقد سمعت القصة منه ، لكنني أريد أن أسمعها
منك .. قصي على كل شيء ! »

قالت : « حسناً ، لكنني سأقصها من البداية : تعلمين أتي
حين تزوجت كنت - بحكم تربية أمي - بريئة غاية البراءة ، إلى
حد الغباء . لم أكن أعرف من حقائق الحياة شيئاً . والناس يقولون
عادة إن الأزواج يروون لزوجاتهم كل شيء عن ماضيهم ، لكن
« ستيفان » لم يرو شيئاً .. فظلت حتى الآن أعتقد أنني المرأة
الوحيدة التي عرفها . وعشت هكذا ثمانية أعوام ، أبعد ما أكون
عن الارتياح في حياته لي . كنت أعتبر ذلك أمراً مستحيلاً ..
لذلك يمكنك تصور مبلغ الهلع الذي أصابني حين وقعت فجأة على
الحقيقة المرة ! .. حاولي أن تضعي نفسك مكانني : امرأة في قبة
سعادتها تعثر يوماً على خطاب من زوجها إلى عشيقته ، ومن تكون ؟
.. خادمتها ! إنه لأمر فظيع .. وأحسبك تقدرين موقفي ! » .

وكانت وهي تتكلم تحاول جامدة أن تقمع دموعها .. لكنها
فشلت ، فأخرجت مندليها ودفنت فيه وجهها .. بينما أجابتها « أنا »
وهي تضغط يدها بين راحتيها : « نعم ، أقدر موقفك يا عزيزتي ..
أقدره تماماً ! » .. فقالت دوللي وهي تغالب الدموع : « لكنه هو

لا يدرك حرج موقفه ! .. بل إنه سعيد للغاية ! .. فقالت أنا :
« كلا ! .. إنه جدير بالثناء .. إن الندم يثقل ضميره ! .. فأردفت
دوللى وهى تنظر إليها متسائلة : « أتخسبته قديراً على الشعور
بالندم ؟ »

قالت « أنا » : « نعم ، أنا أعرفه جيداً . إنه طيب القلب ، لكنه
متكبر .. أما الآن فقد صار ذليلاً ! .. وأكثر ما يعذبه أمران :
أحدهما خجله من نفسه أمام أولاده . والآخر شعوره بأنه قد
طعنك فى الصميم بينما هو يحبك أكثر من أى شيء آخر فى دنياه !
.. نعم ، صدقتى إن موقفه سيء للغاية ! »

أخذت دوللى تنظر إلى بعيد كالحالمة ، وهى تصفى إلى كلمات
شقيقة زوجها ، ثم قالت وقد لانت لمجتها : « نعم ، أنا مقتنعة بأن
موقفه سيء ، وأن المذنب فى هذه الأمور يكون أسوأ حالاً من
البرئ - هذا إذا كان يشعر بخطئه ، وبأنه المستول وحده عن كل
هذه التعاسة - ولكن كيف أستطيع أن أصفح عنه ؟ .. كيف
أستمر زوجة له ، بعد تلك الخيانة ؟ .. إن الحياة معه أمست بالنسبة
لى الآن عذاباً مقيماً ، ولا سيما أنى شديدة التعلق بحبى الماضى له ! »
وغلبيت البكاء فسكت ، حتى تمالكت نفسها ، ثم استطردت قائلة :
« إنها شابة ، وجميلة على أية حال .. أما أنا فلن شابى وجهى قد
وليا .. لكن من الذى استهلكهما ؟ .. إنه هو ، وأولاده ! .. لقد
أفنيت نفسى ونضارتى فى خدمته ، والآب باتت أى فتاة فى زهرة

العمر ، ولو كانت سوقية ، تفتنه أكثر منى . ومن يدري ماذا قالوا
عنى ، وأية أحاديث تبادلها فى شأنى ؟ وبعد هذا سوف يقول لى ..
كلا ! .. لن أستطيع تصديقه مطلقاً ! .. بل لقد انتهى كل شيء .
وأقطع ما فى الأمر أن قلبى تحول فجأة ، وبدلاً من الحب والحنان
لم يعد عندى له غير الكراهية .. نعم ، الكراهية فى أشد صورها ..
حتى ليخيل لى أنى أودلو أقتله ! »

فقالت لها « أنا » فى لهجة ملؤها الحنان : « يا عزيزتى دوللى ،
لنى أفهم موقفك . ولكن لا تعذبى نفسك هكذا . إن يأسك البالغ
يجعلك تنظرين إلى أشياء كثيرة نظرة خاطئة . ولست أنا بالتى تجهل
آلامك التى تقاسينها ، لكن هناك شيئاً واحداً أحسبني أجهله : أى
قدر من الحب بقى فى قلبك نحوه ؟ وهل يكفى هذا القدر من الحب
كمى تصفحى عنه ؟ إذا كان الأمر كذلك ، فاصفحى ! .. لنى أعلم
من أمور الدنيا وحقائق الحياة أكثر مما تعلمين . أعلم أن أمثال ستيغان
قد يخونون زوجاتهم ، لكن خيانتهم لا تؤثر فى شعورهم نحو هؤلاء
الزوجات بما يشبه التقديس ، ونظراتهم إلى عشيقاتهم نظرة ملؤها
الاحترار ! .. إنهم لا يخونون زوجاتهم بقلوبهم . ولقد كنت أنت
دائماً فى نظر ستيغان موضع إعزازه وتقديسه ، وما زلت كذلك ! »

— ولكن إذا تكرر الأمر ؟

— هذا شيء لا يمكن أن يحدث ، فيما أعتقد !

— ضعى نفسك فى مكانى .. هل كنت تصفحين عنه ؟

— نعم، وأصغح كما لو كان شيئاً من الأمر لم يحدث على الإطلاق! ثم نهضت الزوجة فقبلت ضيقها وهي تقول لها متبسطة الأسارير: «ها يا عزيزي، دعيني آخذك إلى غرفتك. لكم يسرفي أنك جئت! لقد جعل مجيئك الأمور خيراً مما كانت. خيراً منها إلى حد بعيد!».

● قضت «أنا» طيلة ذلك اليوم في البيت، فلم تخرج، ولم تستقبل أحداً، رغم أن بعض من تعرف سمعن بوصولها فحضرن لزيارتها في اليوم ذاته، لكنها أثرت أن تنفق الصباح كله مع دوللي وأولادها، بعد أن أرسلت إلى أخيها رسالة صغيرة توصيه فيها بضرورة العودة لتناول الغداء في بيته، ثم ختمت رسالتها بقولها: «تعال، فإن الله رحم!».

وتناول ستيفان أولونسكي الغداء في بيته، واشتركت زوجته في الأحاديث العامة التي دارت على المائدة، فأدرك الزوج إمكان الوصول إلى تسوية. وبعد الغداء مباشرة جاءت كيتي شقيقة الزوجة، ولم تكن قد عرفت «أنا» من قبل إلا لماماً، فجاءت لتشيع فصولها إلى لقاء هذه السيدة المترفة ذات المكانة المرموقة في مجتمعات (سانت بطرسبرج). وبدأ على الفور أن «أنا» أعجبت بجمال «كيتي» وشبابها، في الوقت الذي شغفت هي فيه حباً بأنا، كما تشغف الفتيات عادة بالزوجات اللواتي يكبرنهن سناً، وإن لم يبد على أنها في الواقع أنها قد تجاوزت العشرين، بفضل مرونة حرركاتها ونضارة

وجهاها، والحيوية الدافقة التي تبدو على مخياها، وفي ابتسامتها ونظراتها!

وحين مضت دوللي بعد الغداء إلى غرفتها، نهضت أنا واتجهت مسرعة إلى أخيها، فوجدته يشعل سيجاراً، وإذ ذاك ابتدرته قائلة وهي تغمز له بعينها: «ستيفا.. اذهب، كان الله في عونك!».. فألقى السيجار من فوره وقد فهم قصدها، ومضى دون إبطاء.. بينما عادت هي فاستلقت على الكنية إلى جوار كيتي وأخذت تداعب أطفال شقيقها الذين أحبوها فالتفتوا حولها يرحون ويعثون.. وفي أثناء حديثها مع كيتي وجدت الفرصة مناسبة كي تقول لها: «لقد أنبأني ستيفا بشيء عنك، وأنا أهنتك.. لقد التقيت بفرونسكي في اللحظة وأعجبت به جداً!».. فنورد وجه كيتي حياءً وسألها: «أوه؟ هل كان هناك حقاً؟.. وماذا قال لك ستيفا؟».

— حدثني عن الشائعات الرائجة، فسررت بها: لقد صحبتني في القطار والده فرونسكي فلم تكف عن إطرائه. إنه ابنها المفضل!

— قالت الكثير.. من ذلك مثلاً أنه كان يرغب في التنازل عن كل أملاكه لأخيه.. وأنه حين كان غلاماً يافعاً أنقذ امرأة من الغرق، وقد ألحت على كي أزورها، وسوف يسرفني أن أذهب إليها غداً.. ثم أضافت مغيرة دقة الحديث وهي تنهض لتمضي إلى مخدعها: «لقد طال مقام «ستيفا» في حجرة دوللي.. حمداً لله!».

● خرجت دوللى من حجرتها بعفوها علما حان وقت تناول الشاي ، ولما رأت أنا ابتعادها قائلة : « أخشى أن تكون غرفتك التي في الطابق العلوى باردة يا عزيزتى . سوف أنقلك إلى هذا الطابق ، كي تكوفي قريبى منى » .. فأجابتها « أنا » وهى تنفوس فى وجهها لتقيين مدى التسوية التى تمت بفضلها بين الزوجين المتخاصمين : « أوه ! لا داعى لأن ترعجى نفسك بسببى .. إن أى مكان يناسبنى ؟! » .. وفى تلك اللحظة خرج الزوج من الغرفة وأقبل يتحدث إلى زوجته ، فأدركت أنا من لهجته أنها تصالحا ، فهمست لنفسها وقد سرها أنها كانت الوسيط فى الصلح : « حذاً لله ! » .. ثم مضت إلى دوللى فقبلتها !

وطيلة الأمسية كانت لهجة دوللى مع زوجها تغلب عليها - كعادتها - مسحة من السخرية .. فى حين كان ستيفان بادى السعادة والمرح ، ولكن ليس إلى الحد الذى يوحى بأنه قد نسي غلظته ! .. وفى نحو الساعة العاشرة فى الموعد الذى ألفت فيه « أنا » أن تودع ابنها « سريوشا » فراشه قبل أن تخرج للسهرة ، أحست شيئاً من الانقباض ، لقرأها عنه ، واشتاق إلى التحدث عنه وتأمل صورته فاقترنت أول فرصة ونهضت كي تحضر « ألبوم » الصور لتعرضه على أفراد الأسرة .. وفيما هى تعبر الردهة دق جرس الباب الخارجى ، فتساءلت دوللى : « ترى من يكون الطارق ؟ » .. وقالت كيتى : « لم يحن بعد وقت إرسال من يصحبني فى عودتي إلى البيت .. كما

أن الوقت متأخر بالنسبة إلى أى زائر غريب ! » .. أما ستيفان فرجح أن يكون القادم أحد السعاة فى مكتبه أحضر له أوراقاً تتعلق بعمله .

وكانت أنا قد بلغت قمة السلم حين عاد الخادم الذى فتح الباب يعلن اسم الزائر الذى حضر .. بينما وقف الزائر نفسه فى وسط الردهة تحت أحد المصابيح ، فعرفته « أنا » على الفور : لم يكن غير فرونسكى ! .. وتملكها شعور غريب بالغبطة المزوجة فى الوقت نفسه بالخوف من شيء مجهول ! .. وفى اللحظة التى استدارت فيها لتعبر الممشى العلوى للسلم رفع الشاب عينيه .. فرأها .. وعندئذ ظلت وجهه سحابة من الارتباك والإجفال ، فأومأت له برأسها لإعانة خفيفة ومضت ، وقد بلغ سمعها فيما بعد صوت شقيقها يرحب بالقدام فى حرارة ويدعوه للدخول ، وصوت هذا يعتذر رافضاً فى هدوء ورزانة !

وحين عادت أنا تحمل « ألبوم » الصور ، كان فرونسكى قد ذهب ، وستيفان يقول لهم موضعاً : « أنه جاء ليستفسر عن مادة العشاء التى تقرر لإقامتها فى الغد لشخصية مشهورة حلت بالمدينة . وقد حاولت عبثاً إقناعه بالدخول الآن لقضاء بعض الوقت ! » . وتورد وجه كيتى ، وحسبت أنها وحدها قد أدركت سبب مجيئه فى تلك الساعة ، وسبب امتناعه عن الدخول . وقالت تحدث

نفسها : « لاشك أنه ذهب إلى البيت فلم يجدنى ، وأدرك أننى هنا ، لكنه لم يمرؤ على الدخول لأن الوقت متأخر ، ولوجود « أنا » بيننا ، وهى غريبة عنه ! » .

- ٦ -

● حل موعد الحفلة الراقصة الكبرى التى تواعدت كيتى وفرونسكى - يوم التقي فى بيتها بغريمه ليفين - على الذهاب إليها . ولم يكد الرقص يبدأ حتى كانت كيتى ووالدتها الأميرة شرباتسكى تصعدان سلم القصر الذى أقيمت فيه الحفلة ، وقد عمرته الأنوار الزاهية من كل جانب وامتلات جنباته بأصص الأزهار وبالخلم ذوى السترات الحمراء ، وانبعث من حجراته طنين أشبه بطنين خلية نحل ! وفيما كانت المراتان تلقيان على هندامهما وشعرهما نظرة أخيرة أمام المرأة ، قبل أن تندلعا إلى القاعة الكبرى ، بلغت ميسامعهما أنغام الكمان تبدأ رقصة « الفالس » الأولى .. ثم أحاط بكيتى المعجبون ، من الشيوخ والشباب ، وطلب أحدهم منها وعداً بإحدى رقصاتها ، وكانت قد وعدت فرونسكى بأن تمنحه الرقصة « الرابعة » الأولى ، فوعدت هذا بالثانية .. ثم مشت إلى داخل القاعة فى بساطة لا تشوبها خيلاء أو شعور بمبلغ حسنها الرائع وأناقة ثوبها الوردى الذى يحليه حول الرقبة إطار من القطيفة السوداء . وكانت كتفها العاريتان وذراعاها أشبه بالمرمر الناصع ، وعيناها تلمعان وشفثاها الورديتان نبسمان ، فيكتمل بذلك كله مظهرها الفاتن ..



وعندئذ ظلّت وجهه سحابة من الارتباك والإجفال
فأومأت له برأسها إيماءة خفيفة ومضت ..

ولم تكذب تتقدم في القاعة خطوات حتى طلب مراقبتها رجل من أبرع الراقصين يدعى « كورسانسكي » ، وكان ذا وجه وسم وجسم رشيق متناسب البناء ، فلم تشعر إلا وهو يحيط بخصرها الدقيق بذراعه دون أن ينتظر موافقتها ! وتلفتت حولها تبحث عن شخص تودع معه مروحتها فلم تجد إلا مضيقها ، التي ابتسمت وهي تتناولها منها .. وأطرى الرجل براعتها في الرقص ، بالعبارة نفسها التي يقولها لكل امرأة يراقصها ، فابتسمت لإطرائه ومضت تدير عينيها في أرجاء القاعة من فوق كتفه . لم يكن ذلك أول مرقص تخضره ، لكنها لم تكن تكثر من حضور المراقص ، فاستطاعت أن تراقب ما يجري في الحفلة في استمتاع هادئ . فهناك في ركن القاعة الأيسر نجمة من كواكب المجتمع الرفيع ، بينهن مدام كورسانسكي الفاتنة - زوجة الرجل الذي يراقصها - وكانت ترتدي زياً فاضحاً يجعلها شبه عارية ! .. ثم ربة القصر .. وستيفان ، زوج أختها دوللي .. وأنا كارينينا ، في ثوب من القطيفة السوداء تبرز منه رقبتها كتمثال من العاج .. ثم فرونسكي ، ولم تكن قد رآته منذ تواعدا على حضور هذه الحفلة ، في الليلة التي رفضت فيها الزواج من ليفين ! .. ولحظت كيتي أنه يطيل النظر إليها الآن وهي ترقص . فلما انتهت الرقصة قادها مراقصها إلى ذلك الركن المرموق ، حسب اختيارها . ولم يكذب سيلبها هناك حتى التفت إلى أنا كارينينا قائلاً في جراءة وهو ينحني لها :

— هل تشاركتيني هذا الفالس يا « أنا » ؟
 فسألته ربة القصر : « ماذا ؟ هل تعارفتما ؟ »
 — هل هناك من لم نتعارف معه ؟ إن زوجتي وأنا مثل الذئب البيض .. كل الناس تعرفنا ! .. هذه الرقصة يا أنا ؟
 فأجابت أنا : « أنا لا أرقص حين لا أستطيع الرقص ! »
 — ولكن من المستحيل ألا يرقص المرء الليلة !
 وفي تلك اللحظة أقبل فرونسكي ، فأنحني لها انحناء غير ملحوظة ، فقالت وهي تضع يدها على كتف كورسانسكي : « حسناً ، ما دام ذلك مستحيلاً الليلة ، فهيا بنا ! »
 وحدثت كيتي نفسها قائلة : « لماذا تعمدت « أنا » تجاهل انحناء فرونسكي ؟ ترى ما الذي ينحتها عليه ؟ ! .. أما هو فاقترب من كيتي يذكرها بالرقصة الرابعة التي وعدته بها ، ويعرب عن أسفه لأنه لم ينتبه إلى وجودها إلا الآن ، فأصغت إليه بأذنيها بينما كانت عيناها تتابعان « أنا » في شغف وهي ترقص ، وانتظرت كيتي أن يطلب فرونسكي منها أن تراقصه الفالس ، لكنه لم يفعل ، فنظرت إليه مدهوشة .. وإذا ذلك تورد وجهه قليلاً وبادر يسألها أن تراقصه .. لكنه لم يكذب يضع ذراعه حول خصرها ويتأهب للخطوة الأولى ، حتى انتهت الرقصة وصمت الموسيقى ، فزفقت كيتي عينيها إليه - وكان وجهه قريباً من وجهها - بنظرة ملؤها الحب والشغف .. لكنه لم يستجب لنظرتها ! وقد ظلت كيتي سنوات

طويلة تذكر هذا الحادث الذى حز فى نفسها وعمرها بموجة من الحجل !

وقد رقص فرونسكى وكيتى « الفالس » عدة مرات فى تلك الليلة .. ثم جاء دور الرقصة « الرباعية » فاشتركا فيها معاً . وطيلة هذه الرقصات لم يدر بينهما حديث ذو قيمة فى نظر الفتاة ، إلا حين سألتها فرونسكى عن « ليفين » ، وهل حضر الحفلة ، ثم أضاف إلى ذلك أنه قد مال إليه وأعجب به !

على أن كيتى لم تتوقع نتيجة تذكر من أحاديثها أثناء تلك الرقصات السريعة الحركة ، بل علقت كل آمالها على رقصة « المازوركا » التالية ، التى تتيح الفرصة لتبادل الكلام فى تودة وهذوء ، فصورت لنفسها أنه لا بد سيفتحها بحبه فى صراحة أثناء هذه الرقصة . وكانت واثقة من أنه سيشاركها « المازوركا » هذه المرة كما رقصها وإياها فى حفلات أخرى سابقة ، فرفضت عروض خمسة شبان تقدموا إليها طالبين مشاركتها فيها ، معتذرة بأنها قد ارتبطت بصدها مع شخص آخر قبلهم ! .. وفيما كانت ترقص الرقصة الأخيرة السابقة للمازوركا ، بصحبة أحد الشبان اللجوجين الذين يتعذر على الفتيات رفض طلبهم ، وجدت نفسها مصادفة وجهاً لوجه أمام فرونسكى وأنا ! .. وكانت أنا تبدو كاثلة من الانفعال والغبطة : تختلج عيناها ، وتلمعان ، وترف على فيها ابتسامة السعادة الخالصة ، وتتم حركاتها فى وقت واحد بالجلال

والاتزان ، والليونة والحفة ! .. فلم تملك كيتى إلا أن تسأل نفسها : « ترى أهي نشوة الإعجاب بالحفلة كلها ، التى تبعث فى أوصالها هذا الانفعال ، أم نشوة الإعجاب بشخص معين ؟ ومن يكون ؟ هل يمكن أن يكون .. هو ؟ إن الفرحه تلمع فى عينيها كلها وجه إليها كلمة ، وابتسامة الهناهة ترسم على شففتها الحمراء .. ولكنها نبذل مجهوداً كى تسيطر على نفسها ، فلا تظهر إمارات غبطتها للعيان ، لكن هذه الدلائل تأبى مع ذلك إلا أن تطفو على حياها ! » .

ومضت تسائل نفسها : ترى ما هو موقفه هو ؟ ثم اتجهت ببصرها إليه ، وسرعان ما ذعرت ، إذ رأت فى وجهه ما رآته فى وجه « أنا » ! ماذا جرى لتحفظه المألوف ، وتعبير وجهه الرزين ، غير المبالى ؟ إنه الآن كلما استدار نحوها يخفض رأسه ، كما لو كان يوشك أن يخز راكمها عند قلميها ، وفى نظراته معنى الخضوع والرهبة ! إن نظراته كأنها تقول لأنا : « لست أريد أن أسئ إليك ، وإنما أريد أن أنقذ نفسى .. » . ولست أدري كيف ! .. وكان الحديث الذى يتبادلانه تافهاً فى ذاته ، ولكن بدا لكيتى كأن كل كلمة يقولانها إنما تقرر مصيرها ومصيرها .. فقامت الدنيا كلها فى ناظرها ، واضطربت موازين الأشياء ! ولولا التربية القوية الصارمة التى نشأت عليها لما استطاعت أن تحتفظ بشباتها وتواجه مقتضيات موقفها ، أى أن ترقص ، وتجنب عن سئلة مراقصها ، وتبتسم ! .. ولكن حين بدأت الاستعدادات لرقصة المازوركا

أدركت كيتي حرج مركزها : لقد رفضت عروض خمسة من الراقصين طلبوها ، اعتياداً منها على مراقبة فرونسكي ، وها هي ذي الرقصة تبدأ وهي لم تشترك فيها ، ولا ينتظر أن تفعل ، فقد كانت من النجاح في المجتمع بحيث لن يخطر ببال أحد أنها لا تجد من تراقصه ، ومن ثم لن يحرّض شخص آخر على التقدم لها !

وودت لو تزعم لأمرها أنها تشعر بتعب مفاجئ ، وتنصرف إلى بيتها ، فضت إلى أقصى غرفة الانتظار الصغيرة وتهاكت على مقعد مريح ، ثم راحت تهز مروحتها هزات سريعة قصيرة ، بغية التخفيف من حرارة الانفعال التي تلهب وجهها ، وقد عض قلبها بأس مروّع ! .. ومرة أخرى استعادت في ذهنها كل ما حدث ، ومضت تحدث نفسها قائلة : « لعلني مخفظة ، لعل الأمر ليس كما استنتجت ! » .

وفجأة اقتحمت عليها الكوئنة « نور دستون » عزلتها وبادرتها متسائلة : « كيتي ، ماذا جرى ؟ لست أفهم ! ألا تراقصين ؟ » .. فبدأت شقة كيتي السفلى تحتلج انفعالا ، وأجابت بصوت يشرق بالدموع : « كلا ، كلا .. » ، وعندئذ قالت الكوئنة تواسيها : « لقد طلب من « أنا » أن يراقصها المازوركا على مسمع مني ، كما سمعتها تسأله : ماذا ؟ ألا تنوي أن ترقصها مع كيتي ؟ » .. وهنا قطعت كيتي كلام محدثها متبرمة وقالت : « أوه ! هذا لا يعني ! » .. لكن الكوئنة أدركت حرج موقف الفتاة ، فطلبت من الراقص

كورسانسكي - الذي كان مقدراً أن يرقص معها - أن يراقص كيتي بدلا منها . وكان من حسن حظ كيتي أن مراقصها لم يشترك معها في ثروة تفرض عليها أن تتكلم فتنفضح انفعالا . وأثناء الرقصة التقت بفرونسكي و « أنا » من قريب ، فازدادت شعوراً بتعاسفها التامة . كان يبدو عليهما مظهر اللذين يحسان نفسيهما وحيدين في القاعة الغاصة بالناس ! .. وعلى وجه فرونسكي لمحت كيتي تلك النظرة المخاضعة الحائرة التي ترسم في عيني الكلب الذكي حين يدرك أنه قد ارتكب فعلة حققاء !

ثم ابتسمت « أنا » فانعكست ابتسامتها على فمه . وعادت فبدت عليها سمعة التفكير ، فبدا هو بدوره جاداً ! .. وأحست كيتي أن قوة خارقة تجذب نظرها إلى أنا . ورأتها فاتنة في كل شيء : في جمالها ، وثيابها ، وحليها ، وحركاتها ، وشعرها المرسل .. لكن فتنها كانت تنطوي على طابع يجمع بين الرهبة والقسوة ! .. وأعجبت كيتي بها أكثر من أي وقت مضى ، لكنها تأملت منها أيضاً ألماً حاداً ممزقاً نمت عنه ملامح وجهها ، فلما حاذها فرونسكي أنشأ الرقصة لم يعرفها في البداية من فرط تغيرها ، وحين عرفها بادرها : « يا لها من حفلة ممتعة ! » ، فلم ترد على أن نعمت قائلة : « نعم ! » . ولما انتهت الرقصة أعربت « أنا » عن رغبتها في الانصراف ، فألح عليها مضيفوها كي تبنى للعشاء . وللارقصة التالية ، لكنها أصرت قائلة : « لقد رقصت الليلة في موسكو أكثر مما رقصت طيلة الشتاء

في بطرسبرج ! .. ثم دارت ببصرها باحثة عن فرونسكى ، الذى وقف بالقرب منها ، واستطردت فقالت : « ينبغي أن أستريح بعض الوقت قبل أن أسافر » . فسألها فرونسكى على الفور : « إذن فأنت تصرين على السفر غداً ! » .. فأجابته وهى تعجب لجرأته ، وترمقه بنظرة وابسامة أشعلتا فى كيانه النار : « أعتقد ذلك » .. ثم انصرفت !

-V-

● أبرقت « أنا » إلى زوجها فى صباح اليوم التالى منبهة إياه باعتزامها بمبارحة موسكو فى اليوم نفسه . وأنفقت الضحى كله فى إعداد أمتعتها تأهباً للرحيل ، وبعد الغداء مضت إلى حجرتها لترتدى ثيابها ، فتبعها إليها زوجة أخيها « دوللى » - وقد لاحظت اكتئابها وغرابة أطوارها - وابتدرتها بقولها : « ما أغرب حالك اليوم يا أنا ! » ، فأجابتها هذه وهى تتحنى على حقيبتها تعبت بها لتحنى انفعالها : « أنا ؟ أتظنين ذلك ؟ هذا يحدث لى أحياناً . أحس ببيل إلى البكاء ، لكنها نوبة لن تلبث أن تنقضى . قبيل مغادرتى بطرسبرج أحسست بإشفاق من السفر ، واليوم أشفق من العودة ! » وطفق الدموع فوق مقالي « أنا » وهى تتكلم ، فنظرت إليها مضيقاً بإيمان . وقالت : « لقد صنعت خيراً بمجيئك .. فواجهتها « أنا » بعينيها المبللتين بالدمع ، وأجابت : « لا تقولى هذا

بادوللى ، أنا لم أصنع شيئاً . وإنما هو الحب الذى ممكنك من الصفح ، وصنع كل شئ ! »

- بل لولاك لحدث ما لا يعلم غير الله ! .. ما أسعدك يا أنا ، كل شئ صاف وطيب فى قلبك .

- لكل قلب منفصاته ، كما يقول الإنجليز !

- لكن شيئاً ما لا ينقصك أنت فيما أحسب .. كل ما فىك صفاء ونقاء !

.. فصمتت أنا هنيهة ، ثم قالت فجأة وقد رففت على شفيتها ابسامة ساخرة ، وتهاكت على مقعد مريح : « بل عندى ما ينقصنى . أتعلمين لماذا أرحل اليوم بدلاً من غد ؟ إنه اعترافى بقل على قلبى ، وقد قررت أن أكاشفك به ! .. وأدهش دوللى أن ترى محدثها وقد صعد الدم إلى وجهها فجأة ، وهى تردف قائلة : « نعم ، وهل تعلمين لم لم تأت كيتى اليوم للغداء ؟ لأنها تغار منى ! .. لقد أفسدت عليها متعة سهرة الأمس . ولكن صدقنى إنها لم تكن غلطى ، أو قولى إن نصيبى فيها كان ضئيلاً ! » .. فقالت لها دوللى ، تهون عليها الأمر : « لقد ذكر لى سيفيان أنك رقصت المازوركا مع فرونسكى ، وأنه .. » .. فقطعت « أنا » كلامها قائلة : « إن الأمر كله حدث دون قصد .. بدأ بمزحة ثم انقلب فى النهاية جدلاً ، ربما برغم إرادتى ! .. والواقع أنى أكون غاية فى التعاسة لو كان هو قد نظر لى المسألة نظرة جدية .. لكنى واثقة

أن كل شيء سوف ينسى ، ولن تعود كيتي تحس نحوى بالكراميه !
- دعيني أصارك بدورى يانا ، إني لم أعد متحمسة لزواج
فرونسكى من كيتي ، مادام قد رآ على أن يقع فى هوالك بهذه
السرعة !

- إنها حقا كبرى فى الواقع . وها أنذا أغادر . موسكو بعد
أن كسبت عداء كيتي ، التى أحبها وأعجب بها . حقاً ما أعذبها !
لكنك ستصلحين الأمر كله بلباقتك ، أليس كذلك يلدولالى ؟

وفاضت الدموع من عينيها ، فأجابتها مضيقها قائلة : « عداء
كيتي ؟ لا تغالى يا عزيزتى .. وجففت أنا دمعها بمندليها ثم نهضت
لتكمل ارتداء ثيابها لاسفر . وحين أرف وقت الرحيل وصل ستيفان
ليرافق شقيقته إلى المحطة ، وعانقت دوللى ضيقها هامة لها :
« تذكرى يا أنا أنى لن أنسى ضيلعك من أجل ما حييت ! إني أحبك
وسوف أعتبرك دائماً أعز صديقة لى ! »

.. وفى القطار تنفست أنا الصعداء ، بعد أن ودعها أخوها ودوى
صغير القاطرة ليداناً بالرحيل . ثم حدثت نفسها قائلة : « لقد
انتهى كل شيء ، والحمد لله ، وغداً أكون بين ابنى سيريوشا
وزوجى أليكسى ، وتعود حياتى سيرتها الأولى ، لطيفة كالعتاد »
.. ثم ففتحت إحدى حقائبها فأخرجت منها وسادة صغيرة وضعتها
على ركبتيها ودثرت ساقها بغطاء صميك ، ولذا استراحت إلى هذا
الوضع أخرجت كتاباً يتضمن قصة إنجليزية وشرعت تقرأ . لكنها

لم تتقدم فى القراءة وتفهم ما تقرأ إلا بعد أن ابتعد القطار عن ضجيج
المحطة وسكنت مناقشات الركاب بصدد العاصفة الثلجية التى كانت
تضرب زجاج النوافذ بكرات الثلج الثقيلة . وكان من عادة « أنا »
إذا انهمكت فى قراءة قصة أن تعيش مع بطلاتها وأبطالها بكل مشاعرهما ،
فلما رافقت بطل القصة هذه المرة حتى حصل على أمنيته فى السعادة
المنشودة - حسب عقلته الإنجليزية - وهما : لقب « سير » ،
وضيعة من الأرض ، ثم تأهبت لأن تمضى معه إلى ضيعته الجديدة
.. أحست فجأة أنه ينبغى أن يتجمل من نفسه ، وأن يتجمل هى منه ،
ولكن ما هو الشيء الذى ينبغى له ولها أن يتجملامنه ؟

سألت نفسها هذا السؤال كالمدهوشة ، ثم ألقت للكتاب جانبا
وغاصت فى مقعدها ، وأخذت تستعيد ذكريات أيامها فى موسكو :
تذكرت حفلة الأمس ، وتذكرت فرونسكى بوجهه الناطق بالشغف
والوله ، ثم تذكرت كل تصرفاتها معه . لم يكن فى شيء من ذلك
ما يتجمل ، ومع ذلك فقد ازداد شعورها بالحجل حدة وإلحاحاً ،
وكان صوتاً يهيس لها كلما فكرت فى فرونسكى : « دافى » ، « دافى »
جداً ، ساخن ! .. فليئت تسائل نفسها فى عزم وجرة : « ماذا ،
أيمكن أن توجد - الآن أو فى المستقبل - بينى وبين هذا الضابط
الشاب أية علاقة غير التى تربطنى بكل من أعرف ؟ »

وضحكت فى احتقار لهذا الظن ، ثم تناولت كتابها من جديد ،
لكنها فى هذه المرة عجزت عن حصر ذهنها فيما تقرأ ، وإنما راحت

تعبت بسكين الورق التي فطمت بها صفحات الكتاب ، فألصقت سطحها الناعم البارد بخدها . وكادت تضحك بصوت عال لهذا الشعور بالغبطة والنشوة الذي تملكها على حين غرة . أحست شيئاً في داخلها يضغط أنفاسها ، بينما اتخذت كل الأشكال والأصوات في وعيها طابعاً « حاداً » غير مألوف .. ولم تفق من شرودها إلا حين بلغ القطار المحطة التالية ، فنهضت بعد أن تدرت ، ومضت إلى باب المقصورة تشد الهواء . وحين فتحت الباب اندفع منه الجليد والهواء اللاذع ليصار عاها على عتبتها ، لكنها استمتعت بالصراع وهبطت إلى الرصيف . وهنا فقط وجدت في خمي العربات أماناً من الرياح العاصفة ، فجذبت بضعة أنفاس عميقة من التسمات المثلوجة وراحت تجيل بصرها في أرجاء المحطة المضاء بالأنوار . كان الرصيف مأهولاً بالمسافرين والوافدين والمودعين ، وقد كساهم الجليد بلونه الناصع الشبه بلون القطن المنذوف ، كما كسا جميع معالم المحطة وعجلات القطار وعربات نقل البضائع التي تروح وتجيء على الرصيف .. والناس يهرعون كل إلى وجهته مسرعاً لا يلوى على شيء ، هرباً من العاصفة العاتية . وكانت الرياح قد اشتدت ، فجذبت « أنا » نفساً أخيراً أطويلاً من الهواء النظيف المتعش وأخرجت يديها من فراء كميها كي تملك بمقبض العربة وتدخل إلى مقصورتها .. ولكن في تلك اللحظة برز أمامها ضابط ، تبينت فيه على الفور : فرونسكي !

ومد الشاب أعضائه إلى طرف قبعته ثم انحنى لها متسائلاً : « هل ترغب السيدة في شيء ؟ وهل أستطيع خدمة ما ؟ » .. وحذقت فيه « أنا » طويلاً دون أن تجيب ، وبرغم أنه كان واقفاً في ظل الضوء ، فلما لحقت التعبير الذي لاح في وجهه وعينه . كان هو ذلك التعبير النشوان الذي يتم في الوقت نفسه عن التوقير والتحية ، التعبير الذي كان له أكبر الأثر في نفسها خلال الليلة السابقة ! .. ونسيت ما كانت قد زعمته لنفسها منذ هنيئة ، من كونه لا يزيد في نظرها على أي رجل آخر ممن تعرف ، بحيث لا يستحق منها أن تفكر فيه لحظة ، وبدلاً من ذلك تملكها شعور بالفرحة الطاغية غير الإرادية .. ووجدت صوتها أخيراً لتسأله ، وإن كانت في غنى عن جوابه الذي تعرفه سلفاً : « لم أكن أعلم أنك مسافر في القطار نفسه .. إلى أين ؟ ! » .. وأشرق في وجهها الهناء والشوق وهي تتكلم ، فأجابها فرونسكي وهو ينظر في عينيها عن كلب : « ما الذي جاء في ؟ تعرفين جيداً أنني جئت لأكون حيث تكونين . إنه أمر لاهيلى فيه ! » وفي تلك اللحظة بلغت العاصفة أشدها ، فراحت تفتزع الأشياء الخفيفة من أماكنها ، وتلطم الوجوه بقسوة . ولكنها برغم ضراوتها بدت لآناً رائحة ممتعة ! .. كيف لا وقد خاطبها فرونسكي بالعبارات التي كانت روحها تنوق إلى سماعها ، وإن خشيتها بعقلها ؟ ! .. ومضت لحظات ، قبل أن تستطيع هي الإجابة قائلة : « إنه غير لائق هذا الذي تقوله ، ورجائي إليك - إذا كنت رجلاً فاضلاً - أن

تنسى العبارة التي تفوهت بها ، كما أسأهاها أنا ! .. ولكنه مضى في كلامه بلهجة العناد والحزم نفسها فقال : « ما من كلمة من كلماتك ، أو حركة من حركاتك ، يمكن أن أسأهاها يوماً ! إن هذا فوق استطاعتي ! » .. فقالت مغمضة « كفى ! : كفى ! » .. وحاولت وهي تصيح به أن تضئ مسحة صرامة على وجهها ، الذي كان الشاب يتحدث فيه بشراة . ثم صعدت بسرعة إلى العربة ومرقت إلى الممر المؤدى إلى مقصورتها .. لكنها في وسط الممر تمهل ، تسترجع في ذهنها ما حدث . وبوحي من غريزتها أدركت أن ذلك الحديث القصير قد قرب بينهما إلى حد مخيف ! .. ويقدر ما أفرعها الأمر ، أمتعها هذا وسرها ، فاستأنفت سيرها إلى مقصورتها ، حيث جلست في مكانها وقد استبد بها انفعال حاد يفوق كل ما أحسنه من قبل ! .. وطيلة الليلة لم تدق للنوم طمعاً ، لكن المشاعر التي تجاذبت حواسها ، والرؤى التي ملأت خيالها ، لم تكن كثيفة بغضة ، بل كانت على العكس مشرقة ، بهيجة ، مباركة !

وحين غادرت القطار ، كان أول من وقع عليه بصرها في محطة بطرسبرج : زوجها ! .. رياه ، لم تبد أدناه بهذه الهيئة ؟ وأقبل هو نحوها وعلى فمه ابتسامته الساخرة المعهودة ، وعيناه الكبيرتان المتعبتان ترمقانها . ونهش قلبها شعور بالضيق وعدم الارتياح ، كأنما توقعت أن تراه على غير ما عهدت وعرفت ! .. ولأول مرة تنبته إلى الثفور الذي أحسنه نحوه حين لقيته ! أما هو فاستقبلها

متظرفاً ، يقول : « إن الشوق إليك يلهب - كما ترين - زوجك الرقيق المخلص » .. فسألته : « هل سير يوشأ بخير ؟ » .. فقال : « أهذه كل مكافأتى على أشواقى ؟ .. إنه بآتم خير ! »

● لم يحاول فرونسكى أن ينام طيلة تلك الليلة ، وإنما جلس في مقعده بالقطار ينظر إلى ما يجري أمامه دون أن يلتفت إلا إليه أو إلى الناس الذين حوله ، وكأنهم في نظره ليسوا من البشر ! .. بل لعله في شروده لم ير أحداً ، أو شيئاً ما ، وإنما أحس بنفسه ملكاً ، لا لكونه اطمأن إلى أنه قد ترك في نفس « أنا » أثراً - ولم يكن في الواقع قد اطمأن إلى ذلك بعد ! - بل لأن الأثر الذي تركته هي في نفسه قد أفعم قلبه غبطة وزهواً ! .. ولم يكن يدري ماذا ستكون نتيجة هذا كله ، لكنه لم يفكر في ذلك قط ، مكتفياً بإحساسه أن كل قواه - التي كانت حتى الآن مشتتة ضائعة - قد تركزت اليوم في شيء واحد ، وسعت في نشاط مخيف إلى هدف واحد منشود .. وأنه لسعيد بذلك ! .. إنه لا يعلم سوى أنه قد ذكر لها الحقيقة حين قال لها إنه جاء ليكون حيث تكون ، فإن كل سعادته - أو المعنى الوحيد للحياة عنده - قد انحصر الآن في رؤيتها ، وسماع صوتها .

وحين غادر مقصورته في محطة (بولوجوفا) ليلبحث عن زجاجة من المياه المعدنية ، ووقع نظره على أنا ، أفصحت كلمته الأولى لها عما يختلج في قلبه . ولكم يسره أنه قد فعل ، وأنها تعرف ذلك الآن ، وتفكر فيه ! .. إنه لم يتم طيلة الليلة ، فحين عاد إلى مقعده - بعد

أن التقيا - لبث يسترجم في ذهنه كل صورة رآها عليها منذ عرفها وكل كلمة نطقت بها . وأمام خياله سبحت صور مستقبلهما المحتمل معاً ، فاختلج قلبه انفعالا بعاطفته !

وحين غادر القطار في بطرسبرج ، بعد ليلته المؤرقة ، أحسن نشاطاً وانتعاشاً كما لو كان خارجاً لنوره من حمام بارد ! .. فتمهل قرب مقصورتها ينتظر خروجه ، وقد أخذ يحدث نفسه وهو يبتسم دون وعي : « مرة أخرى سأراها ، أرى مشيتها ووجهها .. سوف تقول شيئاً ، أو تدبر رأسها ، أو ترمقني بنظرة ، وربما تبتسم ! .. » لكنه قبل أن يراها تخرج ، رأى زوجها ، الذي كان ناظر المحطة يرافقه في إجلال وبفسح له الطريق بين الجماهير . وعندئذ ، ولأول مرة ، أدرك فرونسكى بوضوح أنها تمت بصلة إلى شخص غيره ، إلى زوج ! نعم ، كان يعلم من قبل أن لها زوجاً ، لكنه كان لا يكاد يؤمن بوجوده .. أما الآن فقد آمن بوجوده ، ولا سيما حين رآه يأخذ ذراعها في ذراعه ! .. وضايقه أن يرى « غريمه » ، وأحسن أن أحداً غيره ليس من حقه أن يحب « أنا » ! .. فحزم جرأته واقترب منها ، وخيل إليه وهو يرقب اللقاء الأول بين الزوجين أن المرأة تخاطب زوجها بشيء من التحفظ ، فحدث نفسه : « إنها لا تحبه .. ولا يمكن أن تحبه ! .. » وفي اللحظة التي أوشك أن يخاذلها لاحظ مزهواً أنها تنهت إلى اقترابه وأدارت رأسها نحوه ، فلما رآته استدارت مرة أخرى إلى زوجها .. فخاطبها الشاب وهو ينحنى لها ولزوجها معاً :

« هل قضيت ليلة مريحة ؟ » فأجابته : « نعم ، أشكرك » ، ونظرت إلى زوجها لترى ما إذا كان يعرف فرونسكى ، فنظر الزوج إليه في فنور وهو لا يكاد يذكر أنه رآه من قبل . فأبتدرته « أنا » تقدم إليه صديقتها الجديد : « الكونت فرونسكى » .

فقال أليكسى وهو يمد يده إلى الشاب في غير احتفال « آه ، أعتقد أننا لسنا غريبين . إذن فقد ذهبت « أنا » في رفقة الأم ، وعادت في رفقة الابن ! » ، ثم خاطب فرونسكى قائلاً : « لعلك عائد من الأجازة ؟ » .. وقبل أن يدع له فرصة الرد استدار ثانية إلى زوجته في لهجة المزاح : « وهل ذرف مودعوك الدموع الغزار في موسكو عند سفرك ؟ » .. وبهذا التصرف أقهم الزوج فرونسكى أنه يود أن يتفرد بزوجته ، ثم لم يكتف بذلك بل نظر إليه ورفع يده إلى قبعته مودعاً . لكن فرونسكى التفت إلى أنا قائلاً : « أرجو أن يكون لي شرف زيارتك في منزلك » ، فرمقه أليكسى بنظرة باردة وقال في تكلف : « بكل سرور . نحن نستقبل ضيوفنا كل يوم . اثنين .. » وعندئذ ودعهما فرونسكى وانصرف !

وهنا بدأت « أنا » تسائل زوجها عن ابنتها سربوشا ، وكيف كانت حاله أثناء غيابها ، فأجابها : « على خير ما يرام . والواقع أنه لم يتألم لفراقك مثل ما فعل زوجك ! حمداً لله ، إنى لن أجلس إلى مائدة العشاء وحدى بعد الآن » .. ثم ضغط يدها طويلاً وابتسم ، وهو يعينها على الصعود إلى غرفتهما !

الفصل الثاني

- ٨ -

• كان أفراد الطبقة الرفيعة المترفة في مجتمعات (بطرسبرج) كلهم أو أكثرهم - يعرف بعضهم بعضاً ويتزاوون . وكانوا منقسمين إلى جماعات ، توطدت صلات أنا كارتينا بثلاث منها : إحداها جماعة زملاء زوجها ومرؤوسيه من رجال الحكومة ، لكن هذه الجماعة التي لا هم لها غير التحدث في السياسة وشئون الرجال ، لم تكن تلقى اهتماماً من « أنا » ، فكانت تتجنب مجالستها في أكثر الأحيان !

وكانت الجماعة الثانية هي التي أعانت زوجها على الارتقاء في عمله ومنصبه ، وتزعمها الكونتة « ليديا إيفانوفا » ، وهي تضم خليطاً من عجايز النساء المحسنات ، القبيحات الخلقة ، والرجال النابهن الطموحين . وقد استطاعت أنا - بمروءتها ولباقتها - أن تجعل لنفسها مركزاً ممتازاً بين أفراد هذه الجماعة ، فكان لها بينهم أصدقاء وصديقات . لكنها على أثر عودتها من رحلتها الأخيرة إلى موسكو نفرت كذلك من هذه الجماعة التي يسودها النفاق ، ولم تعد تتردد على الكونتة ليديا إلا فيما ندر !

أما الجماعة الثالثة ، فكان أفرادها يركزون جل همهم في حضور المراقص ، وإقامة المآدب ، والتنافس في مظاهر الأناقة والزينة

والأزياء . وكانت تربط « أنا » بهذه الجماعة زوجة ابن عمها الأميرة « بتسي تفرسكوى » التي كان دخلها السنوي يزيد على مائة وعشرين ألف روبية ! .. وقد حاولت أنا في البداية أن تتجنب مجتمع الأميرة « بتسي » قدر طاقها ، فراراً من التورط في نفقات لا قبل لها بها ، لكنها على أثر عودتها من موسكو فعلت عكس ذلك : تجتبت المجتمعات الجادة ، وأكثرت من تردها على مجتمعات الأغنياء والمترفين ! .. وهناك صارت تلتقي بفرونسكى ، ولانسيا في بيت الأميرة بتسي ابنة عمه . وكان فرونسكى يغشى كل مكان يحتمل أن يرى فيه أنا ، ويتحدث إليها عن حبه ، ما وجد إلى ذلك سبيلاً ! ورغم أنها - من ناحيتها - لم تشجعه ، لكنها في كل مرة التقياً فيها ، كان يتناها ذلك الانفعال الغامض البهيج الذي أحسته حين رآته لأول مرة في القطار ! وفي البداية اعتقدت « أنا » - مخلفة - أنها تكره منه جرأته على مطاربتها على هذه الصورة . لكنها حين ذهبت إلى إحدى السهرات التي كانت تتوقع أن تراه فيها ، ولم تجده ، أحست بخيبة أمل ، أشعرتها بمدى مغالطتها لنفسها وبأن مطاردة الشاب لها لم تكن بغیضة إليها !

وفي إحدى حفلات الأوبرا التي ضمت عليه الفوم ، التي فرونسكى بابنة عمه الأميرة بتسي في مقصورتها ، فابتدرته بمسائلة « لم لم تحضر مأدبة العشاء هذه الليلة ؟ » . ثم أضافت إلى ذلك قائلة في صوت هامس وهي تبسم : « إنى لأعجب لبعد نظر العشاق

وصدق إحسانهم بالغيب . إنها لم تحضر أيضاً ! » . فرمقها فرونسكى بنظرة تساؤل ، متجاهلاً مغزى عبارتها ، بينما استطردت هي : « ها قد وقعت فى الفخ يا بطل ! » . فقال لها : « إن رغبتى الكبرى هي أن أقع فيه ! وإذا كان لى ما أشكو منه فهو أنى لم أقع فيه كل الوقوع . لقد بدأت أفقد الأمل ! » . ثم تناول المنظار المكبر فوضعه أمام عينيه وراح يذرع ببصره مقاعد المسرح ، كأنما يبحث عن شخص معين ، فلما لم يجد هذا الشخص ، قال للأميرة : « أخشى أن يكون موقعى مثيراً للسخرية ! » .

لكنه كان على يقين من أن مخاوفه لا تستند إلى أساس ، وأن المجتمع قد يسخر من العاشق الذى يقبل فى حبه لفتاة ، أو لامرأة غير متزوجة ، لكنه لا يسخر البتة - بل قد يصفق ! - للرجل الذى يطارد بحبه ، فى استهتار ، زوجة رجل آخر .. ويجعل هدفه الأول فى الحياة أن يغريها بالسقوط !

ولم تنتظر الأميرة بتسى حتى تنتهى الرواية ، بل خرجت قبل الفصل الأخير فاستقلت عربتها إلى بيتها ، كى تكون فى استقبال ضيوفها . فلما بلغت البيت ، بادرت إلى إبدال ثيابها وإصلاح زينتها . ثم أمرت بإعداد الشاى فى حجرة الصالون الكبرى ، ولم يمض قليل حتى تقاطرت عربات الضيوف على باب البيت ، ثم دخلوا يتبع بعضهم بعضاً إلى حيث تألفت منهم جماعتان : جماعة تنوسطها ربة الدار ، والجماعة الأخرى فى أقصى القاعة تنوسطها

زوجة أحد السفراء ، وكانت امرأة حسناء ترتدى ثوباً من القطيفة السوداء . وحاولت الأميرة بتسى أن تجمع شمل الجماعتين ، فهتفت بزوجة السفير : « أحقاً أنت زاهدة فى تناول الشاى ؟ تعالى وانضمي إلينا . فاجباتها هذه وهي تبتسم ثم تواصل ما انقطع من حديث جماعتها : « كلا ، نحن سعيدات هنا ! » . وكان حديث الجماعة فى الواقع شائفاً مثيراً ، يدور حول أنا كارنينا وزوجها ! قالت إحدى صديقات الزوجة : « لقد تغيرت » أنا « تغيراً كبيراً منذ عادت من موسكو . طرأ عليها طابع غريب ! » .. فعلقت زوجة السفير على كلامها قائلة : « فى رأى أن أكبر تغير طرأ عليها أنها أحضرت معها ظلاً لها : « فرونسكى ! » ثم توالى التعليقات من بقية الحاضرات :

— إن المرأة تكره بطبعها ألا يكون لها ظل !

— نعم ، لكن العادة جرت بأن النساء ذوات الظلال تكون نهايتهن سيئة ..

— إن مدام كارنينا امرأة رائعة . أنا لا يعجبني زوجها ، لكنى أحبها هي .

— ولم لا يعجبك زوجها ؟ إنه رجل ممتاز ، بل إن زوجى يؤكد أنه طراز نادر من الساسة ، قل نظيره فى أوروبا بأسرها !

— وزوجى أيضاً يقول عنه ذلك ، لكنى لا أصدق قوله .

وفى رأى أنه غبى كبير ، وهذا يوضح كل شيء !

— يا لسانك اللاذع ! إن « أنا » فائنة وظريقة ، فما ذنبها إذا أحبها الرجال جميعاً ، وتبعوها مثل ظلها ؟ إذا لم يتبعنا أحد مثل ظلنا ، فليس من حقنا أن نلومها هي !
— أوه ، أنا لا ألوّمها البتة ..

وانتهت المناقشة عند هذا الحد ، فانضمت الجماعة إلى الحلقة الأخرى التي تنزعها ربة البيت . ولم تلبث هذه أن هتفت تحيي فرونسكى الذى دخل فى تلك اللحظة : « آه ، ها أنت قد جئت أخيراً ! » . وكان فرونسكى يعرف كل المدعويين والمدعوات ، رغم حداثة عهده برؤيتهم جميعاً ، ولهذا دخل المكان فى هدوء الداخلى على قوم كان معهم منذ لحظات . وفيما هو يجيب عن أسئلة بعضهم فى شأن الأوبرا التي شهدا ، والنظارة الذين لقيهم هناك ، وصل إلى أسماع الحاضرين والحاضرات وقع خطوات على السلم ، وكانت الأميرة يتسنى تعلم أن القادمة هي أنا كارنينا ، فنظرت إلى فرونسكى ، وإذا هو يتطلع فى لفة إلى الباب .. ثم يحدق فى الداخلة بنظرة ملؤها الفرح والانتباه ، وشىء من الخجل ! وأخيراً نهض واقفاً ، بينما دخلت أنا القاعة منتصبة القامة كعادتها ، تسير بخطواتها السريعة الحازمة الخفيفة التي ميزتها عن بقية نساء مجتمعهما ! .. ولما بلغت أنا مكان مضيقها صافحتها وابتسمت ، ثم دارت ببصرها فى القاعة وعلى شفيتها الابتسامة نفسها ، فلما التفت نظراتها يعنى فرونسكى انحنى لها إجلالاً ، وقدم لها مقعداً تجلس عليه ! وقابلت

هي صتيعة بإيماء خفيفة ، وقد تورد وجهها قليلاً .. ثم لم تلبث أحاديث الجماعة أن عادت سيرتها الأولى . وحدثت « أنا » الحاضرين عما سمعته فى منزل الكونتيسة ليديا من تفاصيل شائقة عن الحياة فى الهند ، رواها أحد المراسلين العائدين من هناك . ثم استدارت « أنا » فجأة نحو فرونسكى ، الذى كانت حواسه معلقة بقمها ، وابتدته قائلة : « لقد تليقت خطاباً من موسكو ، جاء فيه أن « كيتى شرباتسكى » مريضة ، وفى حالة سيئة ! » .

فغمغم فرونسكى قائلاً وقد عقد حاجبيه : « مريضة ؟ » .. ولم يزد على ذلك شيئاً ، فسألته أنا : « ألا يهملك ذلك ؟ » .. فقال : « بل يهمنى جداً .. ماذا جاء فى الخطاب ؟ ! » . لكن « أنا » تجاهلت سؤاله ، ثم نهضت ومضت نحو مائدة ربة البيت ، حيث طلبت إليها أن تصب لها قلدحاً من الشاي ، ثم عادت تحمله إلى مائدة منعزلة فى أقصى القاعة ، فبادر فرونسكى إلى اللحاق بها . وعاد يسألها عما تضمنه الخطاب الذى تلقته ، فقالت متجاهلة سؤاله : « كثيراً ما أعتقد أن الرجال لا يفهمون الأمور المنافية للشرف فى تصرفاتهم ، وإن تشدقوا بالتحدث عنها دائماً .. فوجم قليلاً ، ثم قال لها : « لست أفهم ما تعنين تماماً . ماذا هناك ؟ » قالت : « لقد أخطأت فى تصرفك ، غاية الخطأ ! » .. فقال : « أو تحسبني لا أعلم أنى أخطأت ؟ .. ولكن من كان السبب ؟ .. » ولم تستطع إخفاء اضطرابها ، فقالت وعيناها تكذبان قولها :

— هذا يظهر أنك بلا قلب !

فابتسم هو وقال : « لكن الأمر الذى تحدثنى عنه يتعلق بخطأ كما سمعت منك الآن ، فأى دخل فى ذلك الحب ؟ » .. فقالت له جادة ، وقد ذهب عنها اضطرابها : « تذكر أنى منعك من أن تنطق بهذه الكلمة الكريمة . لقد طالما أردت أن أصارحك بهذا ، وقد جئت الليلة خصيصاً لهذا الغرض » .

ونظر فرونسكى إليها وهى تتكلم ، فراحه منها جمال روحانى جديد يشع فى وجهها . وقال فى بساطة وجد : « ماذا تريدنى أن أفعل ؟ » . فقالت : « أريدك أن تصافى إلى موسكو ، وتسال كيتى الصفح ! » . فقال : « أنت تريدن ذلك ؟ ! كلا ! لست أعتقد هذا ! » . وكان قد لمح فى عينيها أنها تقول غير ما تريده ، فأجابها بذلك فى ثقة ، لكنها أردفت قائلة : « إذا كنت تحبى — كما تقول — فافعل ما أطلبه منك ، كى تسكن نفسى وتستريح ! » . وعندئذ أشرق وجهه وهتف بها جذلاً : « ألا تعلمين أنك فى حياتى كل شيء ؟ » . وأنتى لست أنعم بسكينة النفس التى تطلبينها ، وليس فى وسعى أن أعطيك إياها ، بل ليس فى وسعى أن أفكر فىك وفى نفسى باعتبارنا شخصين مختلفين ! .. فالواقع الذى لأشك فيه أننا شخص واحد ! ولست أرى أن هناك فرصة لسكينة النفس ، سواء لك أو لى ! نعم ، لست أرى أمامنا غير اليأس والتعاسة ، اللهم إلا إذا شئت أنت أن تفصحى لنا كليتنا مجال الأمل فى السلام

المنشود ! فهل أطمح فى أن تتداركى ذلك الأمل ، قبل فوات الأوان ؟ ! » .

وكان صوته وهو ينطق بالعبرة الأخيرة أشبه بالهمس ، لا يكاد يبين ، لكن أذنيها المرهفتين لم يفتهما النقاط كل حرف من حروف عبارته . ثم أجهدت كل قوى ذهنها لتقول ما ينبغى أن يقال ، لكنها بدلاً من ذلك تركت عينيها تستريحان على محياه ، وقد أغممتا حباً . ولم تحب ! .. فحدث هو نفسه قائلاً : « لقد لانت ، فى الوقت الذى كنت فيه قد بدأت أياأس ! نعم ، لم تلج بعد نهاية الطريق الذى سلكته .. لكنها لانت ! » .

وانتزعت من أفكاره بقولها : « افعل هذا لأجلى . لا تقل مثل هذه الأشياء لى ، ولنكن صديقين ، وكفى ! » .. ولكن عينيها قالتا غير ما قال لسانها ، فأجابها هو : « لن يكون هذا أبداً ، وأنت تعرفين ذلك : إما أن نكون أسعد الناس ، أو أشقاهم ، فنتقرر ذلك فى يدك أنت ! » ، وهمت بأن تقول شيئاً ، لكنه واصل حديثه فقال : « لست أسألك إلا شيئاً واحداً : أن تدعبنى أحفظ بالأمل والألم معاً ، كما هو شأنى الآن ! ولكن إذا تعذر ذلك ، فما عليك إلا أن تأمرينى بالاختفاء من حياتك ، وعند ذلك لا تعودين ترينينى على الإطلاق ! » . وسكنت أنا هنية ثم قالت له : « لست أبغى أن انتزعك من محيطك ! » ، فقال : « لا تغيرى شيئاً . دعى كل شيء على حاله . هذا كل ما أريده ! » . وكان وجهه إلى باب

القاعة فشاهد في هذه اللحظة اليكسى الكسندروف قفص ، زوج أنا ، داخلًا في مشيته الهادئة الثقيلة ، فلفت نظرها إلى ذلك ، وأرأى اليكسى زوجته وفرونسكى ، لكنه واصل السير إلى حيث جلست ربة الدار وسط جماعتها ، ثم جلس إلى مائدتها يحتسى قدحاً من الشاي ، ويتحدث في السياسة !

وهست إحدى السيدات وهي تجيل بصرها بين مدام كارنينا وزوجها ، وفرونسكى : « هذا تصرف شائن ! » . فأجابتها صديقة أنا : « ألم أقل ذلك ؟ » .. وسرعان ما صار كل من في القاعة يتخلسون نظرات خاطفة إلى حيث انزوت الزوجة وصاحبها ، ما عدا الزوج ، فإنه وحده بقي لا ينظر إلى ذلك الاتجاه ، أو يقطع الحديث الذى كان منهمكاً فيه ! وأخيراً لم تطق ربة البيت صبراً ، فأجلست مكانها من تصغى إلى الزوج وتناقشه ، وذهبت هي إلى أنا تقول لها : « يدهشنى أسلوب زوجك الواضح الدقيق في أحاديثه . إن أعقد النظريات تصبح في متناول فهمي حين يشرحها ! » . فأجابتها أنا وقد أشرفت على فها ابتسامة السعادة ، دون أن تعي حرفاً من كلام مضيفتها : « حقاً ؟ ! » .. فعادت هذه إلى المائدة الرئيسية لتشارك في الأحاديث الدائرة هناك !

وبعد أن قضى الزوج نصف ساعة ، مضى إلى زوجته يقترح عليها أن يعودا معاً إلى البيت ، لكنها أجابته - دون أن تنتظر إليه - بأنها سوف تبقى لتناول العشاء ! .. فانحنى اليكسى تحية لربة البيت

والمدعوين ، ثم انصرف ، في مثل الخطوات الهادئة الثقيلة التى دخل بها !

وإذ حان موعد انصراف « أنا » ، صحبها فرونسكى حتى الباب الخارجى وهو يهمس لها : « أنك لم تعدينى بشئ » ، وأنا لم أسألك شيئاً ، لكنك تعلمين أن الصداقة ليست ما أبغيه . فالواقع ألا سعادة لى في الحياة إلا بتلك الكلمة التى تفيضها : « الحب » ! .. فأخذت تردد كلمة « الحب » بصوت خافت ، ثم أردفت فجأة : « إلى أبغض هذه الكلمة ، لأنها تعنى الكثير بالنسبة لى ، أكثر جداً مما تظن ! » . وبعد لحظة حذقت في وجهه وقالت : « إلى اللقاء ! » ثم مدت إليه يدها مودعة ، ومرقت بسرعة من الباب إلى حيث اختفت داخل غربتها !

- ٩ -

● لم ير « أليكسى » في انزواء زوجته مع فرونسكى وانشغالها بالحديث شيئاً غير لائق ، إلا بعد أن لاحظ أن بقية الحاضرين قد اعتبروه كذلك ! .. ومن ثم عقد عزمه على أن يتحدث إلى زوجته في الأمر .. فلما بلغ المنزل مضى إلى غرفة مكتبه كعادته ، حيث غاص في مقعده المريح ولبث يقرأ ، ويفرك جبهته براحته بين الحين والآخر كأنما يحاول أن يبعد خاطراً ملحاً .. ولما مضت ساعة بعد انتصاف الليل : نهض وصعد إلى الطابق العلوى . لكنه لم يأو إلى فراشه كما ألف ، بل أخذ يذرع الغرفة ذهاباً وجيئة وقد عقد

يديه خلف ظهره ! .. وإذ بدأ يدير في رأسه الكلام الذى ينبغى أن يقوله لزوجته ، وضحت له صعوبة المهمة التى حسبها سهلة فى البداية ! إنه لا يحس بالغيرة ، فالغيرة فى رأيه تنطوى على الإهانة للزوجة ، فى حين ينبغى أن تكون للزوج ثقة كاملة فى زوجته ، واقتناع كامل بأنها ستظل تحبه دائماً ! .. لكن ، لماذا ينبغى هذا للزوج ؟ .. إنه لم يسأل نفسه يوماً هذا السؤال ، لأنه لم يحس يوماً فقدان الثقة فى زوجته الشابة هذه ! .. ومع أن ثقته هذه لم تتغير ، ومع أن اشترازه من الغيرة لم يفارقه ، فإنه وجد نفسه وجهاً لوجه أمام شيء غير منطقي ، وغير معقول ، فلم يدر ماذا يفعل ! .. إنه - لأول مرة - يواجه الحياة . يواجه احتمال أن تحب زوجته شخصاً غيره ! وقد بدا له ذلك غير معقول ، لأنه طيلة حياته عاش على هامش الحياة ، فى أجواء عمله الرسمية وحدها . وفى كل المرات التى اضطدم فيها بالحياة اصطداماً خفيفاً كان يترجع من فوره مجفلاً ، قانعاً من الغنيمة بالإياب ! أما الآن فهو يشعر بشعور الإنسان الذى يكتشف فجأة ، وهو يعبر قنطرة مقامة فوق هوة عميقة ، أن القنطرة مكسورة . وأن لا شيء يعصمه من السقوط من حائق ! .. تلك الهوة كانت هى الحياة ذاتها ، والقنطرة هى هامش الحياة السطحي الذى عاش هو فى نطاقه ! .. لكنه الآن يجد نفسه يواجه لأول مرة احتمال أن تحب زوجته رجلاً آخر .. وقد أفرعه هذا الاحتمال ؟

وراح الزوج وهو يسير ذاهباً آيئاً يحدث نفسه : « يجب أن أحسم الأمر فوراً ، وأن أضع له حداً ! .. يجب أن أصارحها برأى فى تصرفها وقرارى فى شأنه .. ولكن ، ما هو قرارى ؟ وما الذى حدث ؟ .. لا شيء ! لقد تحدثت هى إلى الشاب طويلاً ، وماذا فى ذلك ؟ .. أليس من حق النساء فى المجتمع أن يحدثن من بشأن ؟ ثم أن هذه الغيرة تحط من قدزى وقدرها . ولكن ، ما دام الجميع قد استهنجنوا مسلكها فلا بد أن فى الأمر شيئاً . نعم ، يجب أن أحسم الأمر وأضع له حداً .. ولكن ، ما الذى حدث ؟ ! » .

وهكذا أدرك الزوج أن أفكاره تدور فى حلقة مفرغة ، لا ينتهى منها إلى جديد ، ففرك جبهته حائراً وجلس على حافة فراش زوجته وهناك وقع نظره على منضدة الكتابة الصغيرة وقد انتشرت عليها أدوات الكتابة ، فتغير اتجاه أفكاره فجأة ! بدأ يفكر فى « أنا » ، وفى حياتها ، وأفكارها ، ومشاعرها ، ورغباتها ! وكان هذا التعمق إلى باطن شخص آخر تجربة روحية جديدة عليه ، وتمريناً نفسياً لم يألف القيام به . وأزعجه احتمال أن تكون لزوجته حياة خاصة مستقلة عن حياته ! .. وقال مجدداً نفسه : « أسوأ ما فى الأمر أن هذا الشاغل المقلق يدهنى فى الوقت الذى اضطلع فيه بمشروع عظيم - فى عمل - يتطلب منى كل نشاطى وذخيرتى من سكونة النفس وصفاء الفكر ! لكن ماذا أصنع ؟ إني لست من الذين يستسلمون لموهمهم دون أن تكون لهم قوة الخلق التى تمكنهم من

مواجهتها ! وإذن فينبغي أن أتخذ قراراً في الأمر : لكن مشاعرها الخاصة والأفكار التي تراود خاطرها ، ليست من شأنى ، وإنما من شأن ضميرها ، ووازعها الدينى . أما واجبى الذى تلقىه على كاهلى مسئوليتى كرب أسرة ، وزوج ، وأب ، فهو أن أقودها إلى شاطئ الأمان .. أن أنبه « أنا » إلى الخطر الذى ألمح ، وأحذرنا منه ، بل أستخدم سلطانى عليها إذا اقتضى الأمر ذلك ! .. نعم ، يجب أن أكلمها بصراحة تامة ! » .

واتخذ الحديث الذى أراد أن يفضى به إلى زوجته صسورة واضحة ، دقيقة ، محددة فى ذهنة — كما لو كان تقريراً وزارياً يكتبه بحكم عمله ! — واستطرد يحدث نفسه : « يجب أن أوضح لها النقط التالية :

أولاً : أهمية المحافظة على سمعتها وسمعة الأسرة من أقاويل الناس !

ثانياً : المفزى الدينى للزواج !

ثالثاً : الكارثة التى قد تلحق بابنتنا من تصدع العائلة !

رابعاً : الشقاء الذى يصيبها من جراء مسلكها المحتمل ! »
وإذ وصل أليكسى فى تفكيره إلى هذا الحد ، سمع صوت عربة تقف أمام الباب الخارجى ، ثم وقع خطوات أنا وهى تصعد الدرج . وهنا — وبرغم رضاه عن خطابه الذى استعد لإلقائه — شعر بشيء من الانفعال إزاء المهمة التى تواجهه ! .. ودخلت أنا



شعر بشيء من الانفعال إزاء المهمة التى تواجهه ! ..

على عادتها مرفوعة الرأس مشرقة الوجه ، فلما رأت زوجها ابتسمت ، وقالت وهي تمضي إلى غرفة الزينة الملحقة بالمدخل : « ألم تنم بعد ؟ يا للعجب ! .. إن الوقت متأخر ! .. فقال لها : « أنا ! .. يحيى أن أحدثك في أمر ! » .

— أي أمر ؟ ويم يتعلق يا ترى ؟ حسناً ، فلتتحدث إذا كان ذلك ضرورياً ، لكنني أفضل أن ننام !

وقد نطقت « أنا » بما توارده على لسانها . وعجبت على أثر ذلك من مقدرتها على الكذب ! حقاً ما أبسط عبارتها وأروع مظهرها الطبيعي الجرد من التكلف وهي تجلس أمام زوجها وكأنها يغلبها التعاس ! وأحست نفسها محصنة داخل درع من الزيف لا يمكن اختراقه . بل أحست أن قوة خفية خفت إلى نجاساتها وشدت من أزرها ! وعاد هو يقول لها : « أنا .. يجب أن تحذري ! » .. فنظرت إليه في بساطة وإشراق ، متسائلة عما يحذرهما منه ! ولو أن أحداً — لا يعرفها معرفة زوجها لها — رآها حينذاك ، لما ساورتها أدنى ريبة في مسلكتها ، ولا شعر بأى شيء غير طبيعي يشوب صوتها أو عبارتها . أما زوجها الذي ألف أن يتحدث عن كل صغيرة أو كبيرة في حينها ، فإن مسلكتها هذا بدا له غريباً إلى حد غير قليل ! .. أحس أليكسي أن خلجات روحها التي كانت دائماً مثل كتاب مفتوح أمامه قد أغلقت دونه ، وستظل مغلقة على الدوام ! .. لكنه حدث نفسه قائلاً : « لعلني أستطيع أن أعثر على المفتاح ! » .. ثم

قال لها في صوت خفيض : « أريد أن أحذرك من اللفظ الذي قد تأثيره حولك في المجتمع نتيجة لعدم حيلتك .. فإن حديثك الطويل مع الكونت فرونسكي الليلة — على حدة — قد لفت الأنظار ! » وكان وهو يتكلم ينظر في عينيها الصاحكتين ، اللتين أفرغتهما بنظرهما الغامضة . وقبل أن يتم كلامه كان قد أدرك عقم نصائحه وعدم احتفال « أنا » بها . فلما سكنت ، أجابته : « إنك دائماً هكذا تنتقد مسلكتي . مرة تنتقد جهودي وعدم اختلاطي بالناس ، واليوم تنتقد اختلاطي ومرحى ، حسبك أني لم أكن جامدة الليلة ، فهل يسببك هذا ؟ » .. فقال لها : « أنا .. أهذه أنت ؟ ! لشد ما تغيرت ! .. إليك ما أردت أن أقوله لك ، ورجائي إليك أن تصغي إلى كلامي . أنت تعرفين أني أمقت الغيرة وأحقرها . لكن هناك حدوداً ينبغي للزوجة ألا تتجاوزها ، إذا أرادت أن تكوني محترمة في أعين الناس . وقد لاحظ جميع الحاضرين الليلة أن مسلكتك لم يكن سليماً من الشواثب ! .. » فقالت له في هدوء : « الواقع أني لست أفهمك إنك تبدو على غير طبيعتك يا أليكسي ! » .. ثم نهضت متجهة إلى الباب ، لكنه خطا إلى الأمام — شأن من يعتزم اعتراض طريقها — فتوقفت ، وقد بدا زوجها في عينيها في تلك اللحظة أقيح وجهاً منه في أى وقت مضى ، ثم طوحت برأسها إلى الوراء وشرعت تنزع دبابيس شعرها بحركة سريعة ، وهي تقول في هدوء وبخيرية : « حسناً ، ها أنذا مصغية في شوق إلى ما عندك من مزيد ! » فقال

لها : « ليس من حقى ، وليس مما يجدى أيضاً ، أن أدخسل فى تفصيلات تتصل بشعورك الشخصى . إن النهش والتنقيب فى أعماق النفس قد يثير أشياء يمكن أن تظل كامنة ، غير ملحوظة .. ومن ثم فشاعرك أمراً لا شأن به لغير ضميرك ، لكن واجبى نحوك ، ونحو نفسى ، ونحو الله ، يقتضى أن أنبهك إلى واجباتك . إن حياتنا لم يربطها البشر بل وربطها الله ، وهذا الرباط لا يمكن فصله إلا بارتكاب جريمة .. وهذه الجريمة تحمل فى طياتها عقوبتها ! » ..

فقالت وهى تواصل نزع دبائيس شعرها ، دون أن تنظر إليه : « لست أفهم حرفاً مما تقول ، لسوء الحظ ، إذ يغلبني النعاس ! »

فقال : « كيف ؟ .. بربك لا تتكلمى بهذه اللهجة ! .. قد أكون مخطئاً فى ظننى ، ولكن صدقنى أن هذا الذى أقوله من أجلك ، كما هو من أجلى .. وأنا زوجك ، وأحبك ! » .. وهنا اختفى من عيني أنا بريق التهمك والسخرية ، وكأنما أثارت كلمة « الحب » ما كان كامناً فى أعماقها ، فحدثت نفسها : « يعنى ؟ .. أوستطيع هو أن يحب ؟ .. إنه لو لم يسمع أن هناك شيئاً اسمه الحب ، يتحدث الناس عنه ، لما جرت هذه الكلمة على لسانه قط ! إنه لا يعرف حتى ما هو الحب ! » .. ثم التفتت إليه قائلة :

— اليكسى ، إلحق أنى لست أفهمك الليلة .. أوضح ماتقول ! فقال لها : « عفواً ! دعيني أفرغ كل ما فى جعبتى . قلت لى أحبك ، لكنى لست أنصح لك بما أنصح من أجل نفسى ، وإنما

من أجل ابنا ، ومن أجلك أنت ! » .. فقالت من فورها وهى تجمع ابتسامة تغالبها : « ليس عندى ما أفضى به . ثم أن وقت النوم قد حان » .. فتهند اليكسى ، ومضى إلى مخدعه دون أن ينطق بكلمة !

.. وحين لحقت به بعد دقائق كان قد لاذ بفراشه وأطبق شفتيه ، ووجه نظره بعيداً عن اتجاهها . وانتظرت هى طويلاً بلا حراك ، وقد شردت بأفكارها إلى الرجل الآخر ، مستعبدة صورته لنفسها ، ثم أحست مدى ما فاض به قلبها من عاطفة وغبطة آتمة وهى تفكر فيه ! .. ولم تلبث أن سمعت شخير زوجها ينبعث فى لحن منتظم رتيب ، فهست لنفسها وهى تبسم : « إن الوقت متأخر .. كادت الليلة تنقضى ! » ..

لكنها ظلت زمناً راقدة بلا حراك ، وعيناها مفتوحتان ، يخيل إليها أنها تكاد ترى بريقهما فى الظلام !

— ١٠ —

● بدأ الزوجان منذ تلك الليلة حياة جديدة لا عهد لها بها من قبل ، فاستمرت « أنا » تغشى المجتمعات ، وترى فرونسكى فى كل مكان ! بينما كان اليكسى يرى ذلك ولا يستطيع أن يفعل شيئاً ، فقد حرصت هى على أن تقيم فى وجه كل محاولة منه لاستدراجها إلى النقاش فى الموضوع حاجزاً من الهبلبة الخيرة ،

عجز عن اختراقه ! .. وظلت صلتها أمام الناس على حالها ، أما علاقاتها الحقيقية فقد طرأ عليها تبدل كبير !

وكان اليكسى ذا نفوذ عظيم في دنيا السياسة ، لكنه أحس نفسه عاجزاً كل العجز عن أن يسوس أمراته كما يشتهي ، فانتظر مستملاً — كالثور المنكس الرأس — السوط الذى شعر بأنه قد أشهر على ظهره ! .. وفى كل مرة حاول فيها أن يفكر فى أمره ، كانت نفسه تحدته بأن يبذل محاولة أخيرة ، لعله يستطيع باللطف واللين والإقناع أن ينقذها ، لكنه كان دائماً يقول لها غير ما اعتزم أن يقول ، وما ينبغى أن يقول !

ووقعت الواقعة .. أخيراً !

تحققت الرغبة التى ظل فرونسكى زهاء عام كامل يتخذها هدفه الأول فى الحياة ، وينسى فى سبيلها كل هدف آخر ، وكل رغبة أخرى ! .. تحقق الأمر الذى كانت «أنا» تعدّه مستحيلاً رهيباً ، وإن كان هو حلم حياتها الممتع الأخاذ ! .. ووقف فرونسكى أمامها ، شاحب الوجه ، وفكه الأسفل يخنج ، وراح يناشدها أن تهدأ ، وإن لم يدرك كيف ، أو لماذا ! ثم هتف بصوت راعش : «أنا ! .. أنا ! .. ينبغى أن تهدئ ! .. لكنها نكست رأسها ، شاعرة بأنها لا تستطيع أن تبقيه كما كان ، بعد أن أثقله الخنزى والعار ! .. ثم هبطت من الكنية التى كانت عليها إلى الأرض ،

وركعت عند قدميه ، ثم أخذت تشفق باليكاء وتضغط يديه على صدرها قائلة : «يا إلهى ! .. اغفر لى ! ..»

لقد أحست ببشاعة خطيتها ، وبأن لم يبق لها غير أن تذلل نفسها وتطلب الصفح . ولما لم يعد لها فى دنياها غير عشيقها ، فقد توجهت إليه بتوسلاتها . نظرت إليه وقد أحست ألماً من مدلتها .. ثم لم تستطع أن تنطق بحرف ! .. أحست ما يحسه القاتل حين يرى جثة ضحيته التى سلبها الحياة . ولم تكن تلك الضحية التى قتلها هو ، سوى حبيهما المتبادل .. المرحلة الأولى من ذلك الحب ! .. كان رهيباً أن تفكر فى الغاية التى دفعت فى سبيلها هذا الثمن الغالى الخفيف من الخنزى والعار .. ذلك الخنزى من عريهما الروحى ، الذى سحقها ، وامتدت عدواه إليه هو !

ولكن القاتل برغم فزعه أمام جثة ضحيته ، كثيراً ما يجد نفسه مدفوعاً إلى أن ينجم على الجثة ويحذبها ، ثم ينال عليها نهشاً وتقطيعاً ، وأخيراً يخفيها .. كى ينتفع بما جناه من قتلها ! .. وهكذا اندفع فرونسكى يغطى وجه «أنا» وكثفها ، بقبالاته .. فتناولت هى يده ورفعتها إلى شفتيها ، وقبلتها .. أما هو فركع على ركبتيه وحاول أن يرى وجهها . ولكنها أخفته ، ولم تنبس بكلمة ! .. وأخيراً تحاملت على نفسها فنهضت ، ودفعته عنها بعيداً ، وكان وجهها ما زال كعجده جميل ، فكان ذلك أدعى إلى الحسرة والرتاء .. وقالت له : «لقد انتهى كل شيء ، ولم يعد لى سواك . تذكر ذلك ! ..»

فأجابها : « وكيف أنسى يوماً حياتي بأكلها ؟ إن لحظة واحدة من هذه السعادة .. » ، لكنها قاطعتها في رعب واشمئزاز : « السعادة ؟ بحق الرحمة كفى . لا تتعلق بكلمة أخرى ! » . لقد أحست في تلك اللحظة أنها عاجزة عن التعبير بالكلمات عما يتخيلها من إحساس بالتجمل ، والذهول ، والدعور . أمام عتبة الحياة الجديدة التي تدخلها .. فلم تشأ أن تتحدث في الأمر ، حتى لا تشوه شعورها أو تبتذله ! لكنها حتى فيما بعد ، في اليوم التالي والثالث ، ظلت عاجزة عن أن تجد الكلمات التي تعبر عن مشاعرها التي باتت معقدة . بل إنها لم تجد الأفكار التي تعبر بها عما يصطرح في أعماقها ، فحدثت نفسها : « كلا ! .. لست أستطيع التفكير في الأمر الآن ، فلأدع ذلك حتى أسترده هادئاً .. » .

لكن هذا الهدوء المنشود لم يواتها أبداً ! .. وفي كل مرة مثل في خاطرها ما فعلته ، وما قد يجرحه من نتائج ، كان الرعب يتملكها ، فتطرد هذه الأفكار بعيداً ، مغلفة نفسها بقولها : « فيما بعد ، حين أغدو أهدأ بالاً ! .. لكنها في أحلامها ، حيث لا سيطرة لها على أفكارها ، كان موقفها يمثل أمامها عارياً مخيفاً ، على حقيقته ! وكان أنخص ما يطاردها من هذه الأحلام كابوس رهيب طفق يتراءى لها كل ليلة ! فكانت ترى نفسها زوجة للرجلين في وقت معاً ، وكلاهما يغمر جسدها بالقبلات !

وكان فرونسكي — رغم أن غرامه استغرق كل حياته الخاصة —

يتابع سيره في حياته العامة في طريقه المرسوم ، سواء في صلاته بالاجتماع أو صلاته بفرقة في سلاح القربان . وكان شغوفاً بفرقة هذه ، كما كانت فرقة شغوفاً به ، تحترمه وتفتخر به ، بسبب ولائه لها وخدماته لأفرادها ، رغم ثرائه العريض وثقافته العالية ومؤهلاته العديدة التي كانت جذيرة بأن تفتح أمامه السبيل إلى النجاح والشهرة والمجد . ومن ثم إلى الغرور وما يستتبعه من الإهمال لزملائه ! .. ولم يكن هو يجهل حب إخوانته له ، وكان يعتز بهذا الحب ويحرص على استمراره . لكنه في الوقت ذاته حرص ألا يكشف أحداً من أولئك الزملاء بغرامه الجديد . حتى حين كانت الخمر تغريه بأن يصخب معهم في حفلاتهم ويتسبط وإياهم ، كان يسارع إلى زجر كل من تحدّث نفسه منهم بأن يشير إلى ذلك الغرام ، ولو من طرف خفي ، أثناء المزاح !

على أنه رغم تكتمه هذا ، ما لبث غرامه بمدمام كارثينا أن صار معروفاً في كل أوساط المدينة ! وهكذا حسده أكثر الشبان ، حتى على العنصر البغيض الوحيد الذي كان يشوب غرامه في الواقع ، وهو المركز الذي يتمتع به زوج عشيقته ، مما يهدد العاشقين بفضيحة « منازة » أيضاً في المجتمع ! .. أما النساء ، فأكثرهن كن لا يحسبن « أنا » . بعد أن ملئن جماع الناس بقبولها بالمرأة الفاضلة العفيفة ، وفرحن بتحقيق نبوءاتهن في صدد تكذيب هذا الضيت ..

وإن بقي هناك نفر من ذوى الشخصيات البارزة ساء لهم ما لاح في الأفق من نذر الفضيحة المدوية !

وعندما سمعت والدة فرونسكى بصلة ابنها بمدام كارنينا ، سرت بالنبا وطربت له في البداية ، فقد كانت ترى ألا شيء يوطد مستقبل الشاب الذكي مثل صلة وثقى تربطه بإحدى نساء المجتمع الرفيع .. كما سر الكونتة فرونسكى ألا تكون أنا - التي أعجبت بها وسمعتها تبدي تعلقها الشديد بطفلتها - أفضل أو أعف من مثيلاتها من سيدات المجتمع ذوات الجمال البارع والأصل العريق ! .. لكن الأم عادت فغيرت نظرتها إلى غرام ابنها حين وصل إلى سمعها أنه رفض منصباً كبيراً عرض عليه ، كى يبقى قريباً من عشيقته ، مما أحرق عليه بعض ذوى النفوذ من الشخصيات الكبيرة ! .. وعند هذا أرسلت الأم ابنها الأكبر إلى (بطرسبرج) ليلعب أخاه رغبة أهمها في أن تراه وتتحدث إليه . وكان هذا الأخ الأكبر غير راض عن مسلك فرونسكى - لا غيرته منه على مبادئ الأخلاق ، فقد كانت له هو الآخر عشيقته ، برغم كونه زوجاً ورب أسرة ! - وإنما خوفاً على مستقبل أخيه من أن يعوقه ذلك الغرام الطائش !

وكانت لفرونسكى - إلى جانب عشيقته ، والمجتمع ، وفرفته بالجيش - هواية أخرى تستحوذ على اهتمامه ، هى جياذ السباق ! وكان قد استعد للاشتراك في موسم السباق لذلك العام بشراء جواد إنجليزى أصيل ، والإشراف على تدريبه وإعداده . وفي اليوم المحدد

للسباق ، جلس فرونسكى في مطعم نادى الضباط يفكر في وعد « أنا » له بأن تلقاه في هذا اليوم بعد انتهاء السباق . وتذكر أنها قطعت له هذا الوعد منذ ثلاثة أيام ، قبل أن يعود زوجها فجأة من رحلته في الخارج ، الأمر الذى يحتمل معه أن تعجز عن الوفاء بوعدها ! ومن ثم قرر فرونسكى أن يذهب إلى عشيقته في منزلها الضيق ليطمئن على مصير لقائهما الموعد ، متعللاً بأن ابنة عمه الأميرة بتسى قد أرسلته ليسألها : هل تعتزم حضور السباق أم لا ؟ ! وأرسل من فوره بوصى بإعداد عربة وثلاثة جياد كى تقله

إلى حيث يريد في الوقت المناسب ، قبل موعد وصول الزوج من مقر عمله في بطرسبرج . وإذ دنا من الدار ، ترجل من العربة ليقطع المسافة الباقية سيراً على قدميه ، تجنباً للفت الأنظار .. وبدلاً من أن يتجه إلى الباب الرئيسى دخل من باب الحديقة ، وسأل البستاني : « هل وصل سيدك ؟ » ، فلما أحياه بأنه لم يصل بعد ، وبأن سيدته موجودة وحدها في البيت ، واصل سيره في حذر نحو المدخل الخلفى للدار .. وفيما هو يضع قدمه على السلم الخشبي للشفرة ، متجنباً أن يحدث أدنى صوت ، فوجئ بتذكر العامل الذى طالما نسيه من العوامل التى تكثف صلته بأنا - مع أنه أكثرها مضايقة له وتعذيباً - هو : « مريوشا » ابن مدام كارنينا ، ذو العينين المسننتين ، العدائيتين له فيما يخص إليه !

كان الصبي في كثير من الأحيان عائقاً يحد من حرية العاشقين ،

فكانا يتجنبان - في وجوده - أن يتبادلا أية عبارة لا يجرؤان أن يتبادلاها أمام الملاء .. وبحرصان على تجنب أية إشارة غامضة لا يستطيع الغلام أن يفهمها ! .. ولكن فرونسكى برغم هذا الاحتياط لاحظ ، أكثر من مرة ، أن نظرات سريوشا اليقظة الحائرة تستقر عليه .. كما لاحظ في مسلك الصبي نحوه حياء غريباً وخليطاً من الشك ، والفتور والتحفظ ! .. والواقع أن سريوشا عجز عن أن يحدد الشعور الذى ينبغى له أن يشعر به نحو فرونسكى ، سيما وقد تناقض شعور أهله نحوه : فبينما كان أبوه ومربيته وخادمتهم يظهرن نفورهم منه بل وكراهيتهم له ، وإن لم يفصحوا عن ذلك كله بكلمة ، كانت أمه تعتبره صديقها الأول ! .. ومن ثم لبث الصبي يسائل نفسه في حيرة : « ما معنى ذلك ؟ ومن هو في حقيقته ؟ هل ينبغى لى أن أحبه ؟ لأن كنت لا أعرف الجواب فلا شك أنها غلطى ! » .. وفى الوقت نفسه كان وجود الصبي يثير في نفس أمه ونفس فرونسكى مثل شعور البحار الذى يرى في البوصلة أن الاتجاه الذى يسير فيه أبعد ما يكون عن الاتجاه الصائب ، لكنه يشعر بعجزه عن تغيير ذلك الاتجاه ، فيأبى أن يعترف لنفسه بالخطر الداهم الذى يترصده !

لكن الصبي لم يكن في البيت هذه المرة ، وكانت « أنا » وحدها ، جالسة في الشرفة تنتظر أربة ولدها من نزله ، وقد أزعجها أن المطر انهمر على أثر خروجه ، فأتكأت برأسها على

آنية كبيرة من أواني الأزهار ، وشردت مع أفكارها .. حتى سمعت وقع خطوات فرونسكى تدنو منها ، رفعت رأسها .. وهنا ابتدرها هو قللاً : « ماذا ؟ هل أنت مريضة ؟ » .. فأجابته وهي تنهض وتضغط يده الممتدة نحوها : « كلا ، لى بخير .. لكنى لم أكن أنتظر حضورك » .

— اغفر لى حضورى ، فإنى لم أستطع أن أقضى اليوم بغير أن أراك !

— أغفر لك ؟ بل لى على العكس سعيدة !

وبينا اندفع فرونسكى يروى لها متحمساً أنباء السباق المزمع إقامته ، طفقت هى تسائل نفسها : « هل أخبره ، أو أكتّم الأمر عنه ؟ .. أنه يبدو مجد سعيد ، بحيث يغلب على الظن أنه يقدر جسامته الأمر بالنسبة لنا .. ولو لم يفعل لما غفرت له ذلك ، فلم أضعه موضع الامتحان والتجربة ؟ » .. ولاحظ هو شرودها ، فقطع قصته ليسألها : « لكنك لم تذكر لى قيم كنت تفكرين وقت مجيئى . يخيل لى أن شيئاً قد حدث ، فهل يدور بخلدك أنى أجد راحة أو سكوناً وأنا أعلم أن عندك هملاً لا أشاركك إياه ؟ » .

ولم تجب هى في البداية ، وإنما أطرقت قليلاً ، ثم نظرت إليه من تحت حاجبها وقد أشرقت عينها من خلال أهدابها الطويلة ، وارتجفت يدها وهي تعبت بورقة انتزعها من آنية الزهر .. فارتسم على محياها ذلك الشغف الحنون الذى كان له نصيب كبير في

استمالها إليه .. وتناول يدها المريحفة ، وعاد يقول لها :

— بريك أفصحى ؟ !

— هل أفعل ؟

— نعم ، نعم ..

— إن فى أحشائى جنيناً !

واشتد اهتزاز ورقة الشجر التى فى يدها ، لكنها لم تخفض عينيها عن وجهه ، كى ترقب وقع النبأ عليه .. فرأته قد شحب وجهه ، ونهياً لأن يقول شيئاً ، ثم عدل .. وترك يدها من يده ، وسقط رأسه على صدره ! فحدثت نفسها : « نعم ، لقد أدرك جسامته الأمر » . وضغطت يده شاكرة ، فقبل يدها ونهض ، صامتاً ، ثم جعل يذرع الشرفة ذهاباً وجيئة ، وأخيراً اتجه نحوها قائلاً فى لهجة حازمة : « إن أحداً منا لم ينظر إلى علاقتنا هذه كتمعة عابرة ، والآن هذا هو مصيرنا قد تحدد ، وبات من المحتم أن نضع حداً للحداع الذى نعيش فيه ! »

فسألته فى لطف وقد أشرقت على وجهها ابتسامة لطيفة :

— كيف نضع له حداً يا فرونسكى ؟

— بأن تتركى زوجك وتجعل حياتنا « واحدة » !

— إنها لكذلك الآن !

— أعنى ، تماماً .. بكل معنى الكلمة !



فانكأَتْ برأسها على آنية كبيرة من أواني الأزهار ..

— ولكن كيف ؟ قل لي كيف ؟ هل هناك أى مخرج من مثل هذا الموقف ؟ ألسنت زوجة زوجي ؟
— هناك مخرج من كل موقف . وأى حل خير من الموقف الذى نحن فيه . لكنى أرى كيف تعذبن نفسك بالتفكير فى آراء الناس ، ومصير ابنك وزوجك !
— كلا ! فلست أفكر فى زوجى البتة ، إنى لا أعرفه .. إنه غير موجود !
— إنك لست مخلصة فى كلامك . أنا أعرفك .. أنت تقلقين عليه !

— أوه ، إنه لا يعرف شيئاً محمداً عن علاقتنا !
وفجأة تورد وجهها واندفع الدم حاراً إلى خديها وعنقها ، ولعلت عينها .. ثم أردقت قائلة : « دعنا من الكلام عنه ! »
وكان قرونسكى قد حاول مراراً من قبل أن يحملها على أن تدبر موقفهما الراهن ، لكنه كان يصطدم فى كل مرة بمثل ما قابلت به محاولته هذه المرة . وكان يخيل إليه أن « أنا » التى يعرفها تخفى حينذاك لتبرز مكانها امرأة أخرى لا يحبها بل يخافها ، امرأة تعارض رغبته وتتصدى له . لكنه اعترم أن يجبرها على مواجهة الموقف ، فقال معلقاً على عبارتها الأخيرة : « سواء أكان زوجك يعلم بعلاقتنا أم لا يعلم بها فليس هذا ما يعنيننا ، وإنما أريد القول إننا لا نستطيع البقاء فى هذا الوضع ، ولاسيما بعد الآن ! » .

— وماذا فى وسعنا أن نفعل ؟
— صارح به بكل شيء ، واركبه !
— حسناً ، لنفترض أنى فعلت .. أنتعرف ماذا تكون النتيجة ؟
دعنى أصورها لك : إنه سيقول لى ، بلهجته الصارمة : « إذن أنت تحبين رجلاً آخر ، ولك به علاقة إجرامية ؟ لقد حذرتك من النتائج من وجهة النظر الدينية والمدنية والعائلية ، لكنك لم تصغى إلى . والآن لا أستطيع أن أدعك تلوثين اسمى و .. » .
ولم تقو على أن تضيف كلمة « وابنى » فعدلت عنها وواصلت حديثها قائلة : « وبالاختصار ، سوف يؤكد لى أنه لا يستطيع أن يدعنى أذهب ، وأنه سوف يتخذ كل الإجراءات التى يسعه اتخاذها كى يمنع الفضيحة .. ثم ينفذ كلامه حرفياً بكل هدوء وصرامة .. هذا ما سوف يحدث . إنه ليس إنساناً ، بل آلة صماء . وآلة حقود فى حالة الغضب ! » .
— ولكن يا أنا ، لا مفر لنا من أن نصارحه بالأمر ، ثم نتصرف وفقاً للطريق الذى يسلكه !
— أتعنى أن نفر معاً ؟
— ولم لا ؟ ! .. لست أرى كيف يمكن أن نستمر على هذا المتوال ، لا أقول هذا من أجل أنا ، بل من أجلك أنت .. فلست بغافل عن أنك تتألمين !
— نعم ، نفر معاً وأصبح خليلتك ، أليس هذا ما تبقى ؟

— «أنا» !

— نعم ، أصبح خليلتك ، وأدمر مستقبل ..

ومرة أخرى عجزت عن أن تنطق بلفظ «ابني» ، فلم تكلم عبارتها ! .. أما فرونسكى فقد عجز عن أن يفهم كيف تحمل — وهى على ما هى عليه من طبيعة قوية تمتت الكذب — أن تمضى فى حياة الخلداع والتدليس على هذا النحو ، وكيف لا تتوق إلى الخلاص منها ؟ لكنه رجح أخيراً أن العامل الرئيسى الذى على عليها تصرفها هو .. ابنها .. الذى لم تستطع الإشارة إليه ! فهى إذن حين تفكر فى هذا الابن وفى مسلكه فى المستقبل نحو أمه التى «هجرت أباه» ، ينتابها الرعب والفرع مما فعلت ، بحيث تعجز عن مواجهته ، فتعمد — كأمراة — إلى محاولة التخفيف مما بها زاعمة لنفسها أن كل شيء سوف يظل على حاله ، وإن فى الإمكان نسيان السؤال المخيف بشأن علاقتها المقبلة بابنها !

وفجأة استطردت قائلة : وهى تتناول يده وتكلم فى لهجة مغايرة ، مغلصة ورقيقة : « أرجو منك وأتوسل إليك ، ألا تحدثنى فى هذا الأمر مرة أخرى ؟ ! »

— ولكن يا أنا ..

— دع الأمر لى . إنى أدرك فظاعة موقفى وما ينطوى عليه من ضعة . لكن المسألة ليست بالتى يسهل تدبيرها كما تحسب ، فأنكرها

لى وافعل ما أقوله لك : إياك أن تحدثنى عن هذه الفكرة مرة أخرى . هل تعدنى ؟

— أعدك بكل ما تطلين ، لكنى لن أستريح أو أحس بالسكينة ، ولا سيبا بعد ما ذكرته لى الآن . لن أستريح ما دمت أنت غير مستريحة !

— أنا ؟ إنى أكون مهمومة أحياناً ، لكن هذا كله سوف ينقضى إذا كفت أنت عن أن تحدثنى فى هذا الأمر !

— لست أفهم ..

— أنا أعلم كم يصعب على طبيعتك المخلصة الصريحة أن تضطر إلى الكذب . بل أنا أرئى لك .. وكثيراً ما أفكر فى أنك قد دمرت حياتك كلها من أجل !

— وأنا كنت أسائل نفسى السؤال بعينه : كيف استطعت أن تضحى بكل شيء من أجلى ؟ لست أغفر لنفسى أنك شقية ! — أنا شقية ؟

واقتربت منه ، ونظرت إليه وهى تبسم ابتسامة العاشقة العشوانة ، ثم قالت : « إنى مثل رجل جائع أعطى طعاماً لياكل . إنه قد يكون معذباً من البرد ، يرئدى الأسمال البالية ويحبل حياته بالعار ، لكنه ليس بشقى . كلا ! لست شقية . هذا هو شقائى ! » .. وبلغ سمعها صوت ابنها يقترب منهما ، فاختلست نظارة سريعة إلى ما حول الشرفة ثم نهضت على عجل وقد التمت عيناها بالنار التى

عرفها فرونسكى وخبرها جيداً ، وبحركة سريعة رفعت يديها الجميلتين الثقيلتين بالخواصم ، وأخذت رأس معشوقها بينهما ثم نظرت إلى وجهه نظرة طويلة وابتسمت . وبعد أن غمرت فيه وعينه بالقلبات ، دفعته عنها بعيداً ! .. وإذ تهيأت لتنتقل ، عاقها عن الذهاب ، هامساً في لفظة محمومة : « متى ؟ » ، فقالت : « اليوم الساعة الواحدة ! » . ثم تهتدت وسارت بخطوتها الخفيفة السريعة لتلقى ابنها ، متعمدة أن تخاطب فرونسكى بصوت مسموع : « حسناً ، إلى اللقاء ، إذ يجب أن أستعد لحضور السباق ، فقد وعدتني « بتسى » بأن تمر لتأخذني معها ! »

وإذ ذاك نظر فرونسكى إلى ساعته وانصرف على عجل !

- ١١ -

● وصل فرونسكى إلى حلبة السباق وقد بدأ الشوط الثانى ، فضى إلى « المظلة » التى احتشدت تحتهما الجماهير ، تنابع السباق بأعين ملهوفة ! ثم عرج على حظائر الخيل حيث كانت فرسه « فروفرو » تعد للاشتراك فى السباق ، فقفز فوقها ووضع قدمه اليمنى فى المهماز ، وأحكم وضع العنان بين أصابعه ، فى انتظار إشارة بدء الشوط . كان طول حلبة السباق ثلاثة أميال ، بثت خلالها تسعة عوائق متنوعة ، منها حاجز ارتفاعه خمسة أقدام ، وفجوة جافة ، ثم أخرى مغمورة بالماء ، ومنحدر سريع الانحدار ، وأكمة عالية تتلوها مباشرة حوة لا تبدو لعين الجواد إلا وهو

يعبرها - وهذا العائق « الأيرلندى » أخطر العوائق على حياة الجياد - ثم حفرتان مملوءتان بالماء ، وأخرى جافة . وكانت نهاية الحلبة تواجه أماكن النظارة المحتشدين ..

وانطلقت الجياد ، فتبعها الأعين والمناظير الكبيرة ، وتأخرت فرس فرونسكى فى البداية ، لكنها لم تلبث أن تخطت ثلاثة من الجياد التى سبقتها ، ولم يبق أمامها غير الفرس « ديانا » فى المقدمة ، وخلفها الجواد « جلاديتور » . وبعد العائق الثالث جاوزت فروفرو « جلاديتور » ، ثم طرحت ديانا راكبها عن ظهرها وهو يعبر بها عائقاً عالياً ، وهكذا أمسى فرونسكى فى المقدمة ، وقوى أمله فى الفوز ! وزادت من غيظته وحاسته هتافات التشجيع من أصدقائه بين المتفرجين .. وبدأ العرق يتصبب من رأس « فروفرو » ، وأذنيها ، وناصيتها ، وتناعبت أنفاسها لاهثة ، لكنه أيقن أن مابق من قواها يكفى لتخطى العائق الأخير وقطع الخمسمائة ياردة التى تليه . وسره أن اجتازت الفرس ذلك العائق فى خفة الطائر المنطلق فى الفضاء .. على أنه فى اللحظة نفسها أحس أنه ارتكب خطأ كبيراً وهو يسترد مكانه فوق صهوة الفرس ، بعد أن ارتفع جسمه عنها قليلاً أثناء القفزة العالية . وفى ثوان كان قد هوى من فوقها إلى الأرض على إحدى قدميه ، بينما سقطت الفرس على جنبها ، تنن وتلوى ، وقد كسر ظهرها ، نتيجة لذلك الخطأ !

وعغم فرونسكى فى غيظ محتدم : « ضاع السباق ! يا لها من غلطة مخجلة لا تقتصر :: والفارس العزيزة المخطمة ! .. آه ، ماذا فعلت ؟ ! » .. وسرعان ما التأم جمع غفير ، بينه الطبيب ومساعدته . وتبين فرونسكى أنه لم يصب بأى سوء ، أما الفارس المكسورة فقد تقرر رميها بالرصاص ! واستدار الفارس المنكود مشيحاً بوجهه عن أسئلة القضاة ، تاركاً قبعته حيث سقطت بجانب فرسه ، ثم مضى لا يلاوى على شيء ، ولا يندرى إلى أين يتجه ، بل لم يكن يرى ما حوله ! .. لقد أحس بتعاسة لا مثيل لها ، وشعر — لأول مرة فى حياته — بأنه أصيب بنكبة لا طاقة له بتحملها !

ورافقه زميل له إلى بيته . وبعد نصف ساعة كان قد تمالك نفسه ..

● كان يوم السباق من أحفل أيام « أليكسى كارينين » بالعمل ، لكنه مع هذا حرص على أن يذهب بعد الغداء مباشرة إلى بيته الريفى ليلقى زوجته . كما دونه كل أسبوع . بحفاضة على المظاهر ، وليعطيها بعض المال لتفقاتها .. ثم يتوجه بعد ذلك إلى حلبة السباق ، حيث يقتضيه مركزه أن يكون بجانب عليه القوم ..

وحين وصل الحلبة كانت « أنا » جالسة فى المدرج بجانب الأميرة بتسى ، ورأته وهو قادم يسبق طريقته وسط الزحام ،

ويتحنى لهذا ويرد على تحية ذلك ، فحدثت نفسها فى مقت مكبوت : « إنه لا يعرف غير الطموح ، وليس فى دنياه غير الترقى والوصول إلى قمة المجد . وما آراؤه السامية المترفعة ، وولعه بالثقافة وتعلقه بالدين ، غير بعض الوسائل إلى مطامعه ! » .

وأدركت أنا من نظراته نحو الجناح المخصص للنساء أنه يبحث عنها ، وأن عينيه قد ضلنا هدفهما وسط البحر الذى يموج بأثواب المسلمين الزاهية ، والشرائط الملونة ، وريش القبعات ، والمظلات والأزهار .. لكنها تعمدت ألا تلفت إليه ! وبعد لحظات صاحت به بتسى : « أليكسى ، اعتقد أنك تبحث عن زوجتك ، هذه هى » ، فاتجه نحوها ، وابتسم لزوجته ابتسامة الزوج الذى فارقها منذ برهة قصيرة ، ثم حبا الأميرة ومن حولها من يعرف .. ولم يلبث أن اتهمك فى الحديث مع أحد ذوى المناصب العالية !

وحين بدأ السباق ، انخست أنا إلى الأمام وهى تتابع عشيقها فرونسكى بعينين ملهوفتين ، وصوت زوجها فى حديثه الطويل الممل يطرق سمعها ، بتبراته المادئة البغيضة .. فلم تملك أن حدثت نفسها : « إني امرأة آثمة ، امرأة ضائعة ، لكنى أمقت الكذب ولا أطيق الزيف . أما هو ، فالزيف عصب حياته وقوامها ! ماذا يهمه من أمرنا ما دام يستطيع أن يتكلم بهذا الهدوء ؟ » .

وفى تلك اللحظة بدأ السباق ، وصمت النظارة وتطلعون إلى

الجياد المنطلقة يتابعون عدوها . ولما لم يكن أليكسي شغوقاً بالسباق فقد راح يحيل بصره فيما حوله في إعياء وكلال ، حتى استقرت عيناه على زوجته ! كان وجهها شاحباً جامداً ، يوحى بأنها لا ترى غير شيء أو شخص واحد ، وكانت يداها متقلصتين تضغطان مروحتي في عصبية ، وقد أمسكت أنفاسها .. وحاول أليكسي أن يفتح نفسه بأن النظارة جميعاً في مثل انفعالها ، وأن يحول بصره عنها ، كي لا يقرأ ما كتب على وجهها بوضوح تام ! لكن بصره أبى أن يتحول ، وطفق يرتد إليها في إصرار ! .. وهكذا قرأ على عيها ما - وهو مرتاع - الشيء الذي أراد أن يجهله ! .. فعندما سقط أحد المتسابقين عن جواده ، دعر النظارة جميعاً ، لكن أليكسي قرأ على وجه «أنا» أن الرجل الذي يتابعه بصرها لم يسقط ! .. وحين سقط متسابق آخر عند اجتيازه أحد العوائق العالية ، وأصيب إصابة بالغة قفز المتفرجون جميعاً من مقاعدهم ، ما عدا «أنا» . وأخيراً أحست أنا بنظرة زوجها الباردة الملحة مثبتة عليها ، فاختلست إليه نظرة خاطفة ، أيدت ظنونها ، ثم أغضت عنه ، قائلة لنفسها : « لست أعيا بالأمر » . ولم تنظر إليه مرة أخرى !

وكان السباق مشغولاً ، فحين اقترب من نهايته كان نصف المتسابقين تقريباً قد سقطوا وأصيبوا ، فاشتد انفعال النظارة ، وراحوا يتبادلون التعليقات في عصبية واهتمام . فلما سقط فرونسكي

أخيراً ، وشبهت أنا بصوت مسموع من فرط انزعاجها ، لم يكن في شبهتها ما يلفت الأنظار أو يثير الانتباه . لكنها لم تلبث أن فقدت انزائها تماماً ، فبدأت تتململ كطائر حبيس ، ثم التفتت هامسة إلى صديقتها بتسى : « هيا بنا نذهب .. هيا نذهب ! » .. لكن بتسى لم تسمعها ، فقد كانت تصغى إلى حديث جار لها ..

وفي اللحظة التالية كان أليكسي قد انجح إلى حيث جلست زوجته ، فأنحنى لها ، وقدم لها ذراعه قائلاً : « فلنذهب إذا أردت » . لكن هذه كانت ذاهلة عنه ، تصغى إلى جار صديقتها يقول « يبدو أن ساقه قد كسرت . إن هذا كثير ! » . ودون أن ترد أنا على عبارة زوجها رفعت المنظار الكبير إلى عينيها وسلطته على المكان الذي سقط فيه عشيقها ، لكنها لم تستطع أن تتبين شيئاً .. فعاد زوجها يقول وهو يلمس يدها : « مرة أخرى أقدم لك ذراعي إذا أردت الانصراف ! » .. لكنها تراجعت في إجحاف ، وأجابت بغير أن تنظر إليه : « كلا ، دعني . إلى باقية » . وعلى أثر ذلك أقبل ضابط يحمل الخبر اليقين قائلاً : « إن فرونسكي لم يقتل ، لكن فرسه أصيب » .

وهنا أخفت «أنا» وجهها في مروحتها ، ورأى زوجها بوضوح أنها تبكي ، فوقف بإزائها جامداً ، ناركاً لها الفرصة حتى تتالك نفسها . ثم عاد بعد حين يقول لها : « للمرة الثالثة أقدم

لك ذراعى ! .. وفى هذه المرة حدثت أنا فيه ولم تدبر بماذا تجيب ؟
.. فخفت بنسى إلى نجدتها قائلة له : « لا يا أليكسى . لقد حضرت
« أنا » معى واستعود معى » . فأجابها بابتسامة مؤدبة ونظرة حازمة :
« أرجو المَعذرة يا صاحبة السمو ، لكننى أرى أن « أنا » ليست
بخير ، وأرغب فى أن تعود معى إلى البيت ! .. » وعند هذا
نهضت أنا مستسلمة ، ووضعت يدها فى ذراع زوجها ، بينما
همست لها بنسى : « سوف أستفسر عن أنبائه ثم أخطر لك ! » .

وأخذت « أنا » مكانها فى العربة إلى جوار زوجها وهى
صامتة . وكان أليكسى — برغم كل ما رآه — ما يزال ينكر على
نفسه حقيقة حال زوجته . إنه لم ير غير الأعراض الخارججية .
رأى أنها تصرف تصرفاً غير لائق ، وأن واجبه يقتضيه مصارحتها
بذلك ، ولكن كان من العسير أن يضيف مزيداً . وأخيراً فصح
فه وقال لها : « أراى مضطراً إلى القول بأن تصرفك اليوم لم
يكن لائقاً ! .. » فالتفتت إليه وقالت وهى ترمقه بنظرة حازمة ،
أخضت وراءها بكل صعوبة شعورها بالضيق والاضطراب : « أى
شئ فى تصرفى لم يكن لائقاً ؟ » ، وكان صوتها عالياً ، فأشار إلى
النافذة المفتوحة التى تفصلهما عن الحوضى وهمس قائلاً : « صه ! »
ثم مد يده فأحكم إغلاق النافذة ، وقال لها : « لم يكن لائقاً ذلك
اليأس الذى عجزت عن إخفائه حين أصيب أحد المتبارين ! » .
وانتظر أن تجيب ، لكنها لاذت بالصمت ، وهى تنظر إلى

ما أمامها ! .. فاستطرد : « لقد رجوتك من قبل أن تجرصى على
مسلكك فى المجتمع بحيث لا تدعى مجالاً حتى لأخبث الألسنة أن
تخوض فى سيرتك . وكنت وقتئذ أعنى مسلكك الباطنى ، لكنى
اليوم أقصر كلامى على مسلكك الخارجى ، الذى أرجو ألا يتكرر
بعد اليوم ! » .

ولم تسمع هى نصف ما قال ، إذ كانت شاردة تفكر فيما
عساه يكون قد حدث لفرونسكى ، فاكثفت بأن ابتسمت فى سخرية
متكلفة حين فرغ من كلامه ! وأراد هو أن يتعلق بخطط من الأمل
الكاذب ، لعله يبدد شكوكه ، فقال لها : « لعلنى أكون غلطاً .
فلذا صح ذلك فى أن أرجو معذرتك ! .. » لكنها أجابته قائلة وهى
تحدق بائسة فى وجهه البارد : « كلا ، إنك لم تكن غلطاً . فالواقع
أنى انزعجت فعلاً ، ولم أستطع أن أكم انزعاجى ! إنى أسمعك ،
لكننى أفكر فيه ! .. إنى أحبه .. إنى خيلته ! .. ولست أستطيع
احتمالك . إنى أخافك ، أكرهك ! » .

.. ثم غاصت إلى الوراى فى ركن العربة وانخرطت فى البكاء
بحرقة ، وهى تخفى وجهها بين يديها . أما أليكسى فبقى صامناً
— ينظر أمامه كالتثال ! — حتى وصلا إلى بيتهما ، وعندئذ التفت
إليها قائلاً ، وعلى وجهه ذلك التعبير الصارم نفسه ، وإن اختلج
صورته قليلاً : « حسناً . لكننى أطلبك بأن تراعى مقتضيات المظاهر

الخارجية على الأقل ، حتى أتخذ الإجراءات الكفيلة بصيانة شرفي .
ثم هبط من العربة وأعانها على الهبوط ، وأمام الخدم ضغط يدها
مودعاً ، ثم ركب العربة من جديد وانطلق إلى بيته في بطرسبرج ! ..
وعلى أثر ذهابه وصل رسول من خدم الأميرة بتسى يحمل إلى
« أنا » رسالة جاء فيها : « لقد أرسلت إلى فرونسكى أسأله عما
أصابه فأجابني بأنه بخير ، لم يصب بسوء ، سوى اليأس الذى
استولى عليه بسبب فشله .. فحدثت أنا نفسها فرحة : « إذن
فسوف يأتى . حسناً فعلت إذ صارحت أليكسى بكل شيء ! » .

الفصل الثالث

— ١٢ —

• لم يكن هناك غير قليلين من أخص أصدقاء أليكسى يعلمون
ما يخفى وراء مظهره المهادى الرزين ! كانت في أعماقه ناحية
ضعف خفية ، هى عجزه التام عن تحمل رؤية الدموع في عيسى
طفل أو امرأة . وقد يسلمه منظر هذه الدموع إلى انفعال عصبي
يفقده كل قدرة على التفكير ! .. ومن هنا كان تذرعه بالصمت
المطبق حين باحث له زوجته بخياتها ثم أجهشت بالبكاء ، فقد أدرك
أن أى تعبير عن شعوره الحقيقى إزاء تلك الكارثة سوف يفسله
ضعفه أمام دموعها ، فلا يجئ مناسباً لما يقتضيه المقام .. ومن ثم
لاذ بالجمود !

فلما خلا إلى نفسه في العربة بعد افتراقه عن زوجته ، أدهشه أنه
شعر براحة كاملة من شكوكه السابقة وغيرته الموجهة ، أو من
جزعه وإشفاقه وتأثره بدموعها ! .. بل انتابه شعور الشخص الذى
خلع ضرسه الذى كان يسبب له آلاماً قلبية ، فأحس فجأة أن ذلك
الشيء الضخم قد فارقه ، بعد أن كان يثقل رأسه وفكه ، ويسم
حياته ، ويستأثر بخواسه ! .. وأنه يستطيع بعد ذلك أن يعيش ويفكر
ويهتم بأمور أخرى عدا ضرره الذى خلع ، أو زوجته التى خانتة ! ..
وأخذ أليكسى يقول لنفسه والعربة تنهب به الطريق إلى بيته :

« يا لها من امرأة فاسدة ، لا شرف لها ، ولا قلب ، ولا دين ! ..
لقد طالما أحسست بذلك وأدركته ، لكنني حاولت أن أخدع نفسي
كأن أجنبتها هذه العاقبة ! .. وعادته ذكريات من تصرفاتها
أكدت له أنها كانت زوجة فاسدة منذ البداية ، فاستطرد يحدث
نفسه : « لقد أخطأت بربط حياتي بحياتها ، لكنني لست المعلوم ..
بل هي ! والآن ، فلا تكف عن التفكير فيها ، إذ لم يعد لها وجود
في نظري ! .. » وهكذا لم يعد همه أو يشغل باله غير التفكير
لإيجاد وسيلة عادلة ، شريفة ، مريحة ، ينتزع بها نفسه من الوحل
الذي نثرته عليه في سقطنها ، ثم يواصل طريق حياته النظيفية النشيطة
النافعة ! .. ومضى يحدث نفسه : « لا ينبغي أن يشقيني لإقدام امرأة
حقيرة على ارتكاب جريمة كهذه ، وكل ما يجب على عمله هو أن
أفكر في أحسن مخرج من المأزق الذي وضعتني فيه .. وسوف
أهتدى إلى هذا المخرج .. فما أنا بالزوج الأول المخدوع .. ولا
الأخير ! .. »

.. ثم راح يستعرض قائمة أمثاله من الأزواج الذين خانتهم
زوجاتهم ، سواء أكان ذلك في عصور التاريخ المنصرمة ، أم في
المجتمع المعاصر الذي يعيش فيه .. وخلص من ذلك إلى استعراض
مختلف الحلول التي تخصه من مأزقه : ففكر أولاً في مبارزة غريمه ،
لكنه استبعد هذا الحل على الفور بدون أن يناقشه ، فهو أولاً ليس
من أنصار استعمال العنف أو استخدام السلاح ، فضلاً عن جهله

بطريقة استخدامه .. ثم أنه لا يستطيع أن يفهم أو يفهم احتمال أن
يتذهب - وهو البريء - ضحية الجريمة التي هو فيها في مركز الجاني
عليه ، سواء قتل أو جرح ! .. وأخيراً فإن أصدقاءه الكثيرين لن
يسمحوا له بتعريض حياته للخطر وهو السياسي الذي يحتاج إليه
وطنه أشد الحاجة !

وهكذا انتهى إلى استبعاد فكرة المبارزة ، ومناقشة الفكرة التالية
لها في قائمة الحلول المبسورة ، وهي : الطلاق ! .. ولكنه لم يكد
يفعل حتى تبين أن طلاق زوجته - حتى على فرض حصوله على
الأدلة التي تثبت خيانتها - لن يؤدي إلا إلى إثارة فضيحة علنية في
المجتمع ، سرعان ما يتلقفها خصومه السياسيون لمحاولة هدمه ..
هذا إلى أن هذا الحل يحقق للزوجة وعشيقها الحرية التي ينشدانها ،
وبذلك يكافئهما على جريمتها ، بدلاً من أن يعاقبها !

وفكر في حل ثالث هو الانفصال عن زوجته بغير طلاق ..
لكن هذا أيضاً يثير الفضيحة نفسها التي يرى اجتنابها ، ويزيد
الزوجة ارتعاشاً في أحضان عشيقها ، وإذا كان هو لا يستحق أن
يشق بسببهما ، فهما كذلك لا يستحقان أن يسعدا على حساب
شقاها ! ..

والواقع أن أليكسي وهو يستعرض هذه الحلول تملكته رغبة
قوية في ألا يتيح لزوجته فرصة للخروج من خيانتها ظافرة ، وحرص
على أن تلقى عقاب جرمها ، وعلى أن يراها تقاسي ، جزاء تدميرها

سكينة نفسه ، واغتيالها شرفه ! واقنع أخيراً ، بعد استعراض كل هذه الحلول ، بأن أجد لها عليه هو أن يبقى زوجته معه ، وأن يخفى عن أسمع الناس ما حدث ، ويستخدم كل وسيلة في مقدوره كي يحبط مؤامرة العاشقين . . . وبعد أن ركن إلى هذا المخرج ، سره أن وجده كذلك متفقاً مع أحكام الدين ، فحدث نفسه قائلاً : « نعم ، إنني باتباعي هذا المسلك لا أكون قد نبذت الزوجة الخطاطة ، بل أكون أعطيها فرصة للتوبة والتكفير عن خطيئتها ، ولا شك أني - برغم صعوبة المهمة - سوف أخصص جانباً من نشاطي لمحاولة إصلاحها وهدايتها . » وتبقى الأيام ، ويصلح الزمن كل شيء . . . وتعود العلاقة القديمة بيننا سيرتها الأولى ! »

وحين أشرف أليكسي على (بطرسبرج) ، كان قد استراح إلى قراره . وصاغ في ذهنه عبارات الخطاب الذي اعترم أن يكتبه إلى زوجته ، فلما وصل إلى منزله دخل من قوره غرفة مكتبه ، حيث كانت تضيئها ست شمعات ، وجلس هنيهة معتمداً برأسه على إحدى راحتيه ، ثم شرع في كتابة الخطاب التالي : « في لقائنا الأخير وعدت بأن أخبرك بقراري فيما يتصل بموضوع اللقاء . وها أنذا أني بوعدى ، بعد أن تدبرت كل شيء ، وإليك ما قررت : أياً كان مسلكك فلنأى لا أراى فى حل من أن أفصم الروابط التى عقدها بيننا قوة علوية . إن الأسرة لا يمكن أن تحطم بفعل نزوة - أو خطيئة - لأحد الزوجين ، ومن ثم ينبغى أن تستمر حياتنا كما

كانت فى الماضى ، الأمر الذى هو جوهرى بالنسبة لى ، ولك ، ولابنا . وإنى لمقتنع كل الاقتناع بأنك قد ندمت وتندمين الآن على الأمر الذى دعانى إلى إرسال هذا الخطاب ، وإنك سوف تتعاونين معى على إزالة سبب النفور الذى بيننا ، ونسيان الماضى . وإذا لم يكن اعتقادى هذا صحيحاً فلأنك تستطيعين أن تتصورى المصير الذى ينتظرك أنت وابنتك - وأرجو أن أوفق إلى شرح ذلك كله لك بتفصيل أوفى فى مقابلة خاصة - ولما كان الموسم يوشك أن ينتهى ، فلأى أرجو منك أن تعودى إلى بطرسبرج بأسرع ما تستطيعين قبل يوم الثلاثاء ، وسوف تعد جميع التدابير اللازمة لاستقبالك . وسأطوى هذا الخطاب على بعض المال لعلك تحتاجين إليه لسد نفقاتك . »

وقرأ الخطاب مرة أخرى ، فشعر بالارتياح ، سيما لكونه قد تذكر أن يرسل إليها بعض المال ، ولأنه لم يضمن الخطاب أية عبارة نائية أو كلمة تقريع ، بل كان فيه متسامحاً أكثر مما ينبغى له . فجاء الخطاب من أجل ذلك كله صالحاً لأن يكون قطرة للترجيع الكريم . . . وطوى أليكسي الخطاب ، ثم وضعه فى ظرف أغلقه ، ودق الجرس ، فلما جاءه أحد الخدم ، ناوله المظروف المغلق وقال له : « سلم هذا الخطاب للساعى كى يوصله إلى زوجتى غداً فى المنزل الصبى ! » .

● كانت أنا كارينينا تطل من نافذة المنزل الصبى ، حين رأت رسول زوجها يصعد السلم ويدق الجرس ، فجلست على مقعد منخفض وعقدت يديها على ركبتيها ، ووطنت نفسها على استقبال ما يحمله الرسول . أيا كان ! ولم يلبث خادم أن دخل يحمل إليها الرسالة وهو يقول : « إن حاملها ينتظر رداً » . فأجابته : « حسناً ، دعه ينتظر » . ثم قضت المظروف ، فتساقطت منه حزمة أوراق النقد ، وقرأت الخطاب مرة ، والثنتين .. فلما استوعبته ، أحست بالبرودة تسعى إلى أطرافها ، وكأن خطباً قد دهمها على غير انتظار ؟ كانت قد أسفت في الصباح على أنها صارت زوجها بكل شيء . وودت لو أنها لم تنطق بكلمة مما قالته له مساء أمس . ولكن ها هو ذا خطابه يعتبر كلماتها كأن لم تكن ، ويحقق بذلك رغبتها ، فما لها تعتبر الخطاب أبشع من كل احتمال توقعته ؟ .. وراحت تحدث نفسها : « يا للمخلوق الشرير الوضع ! إنه يتظاهر بأنه متدين وكريم ، لكن أحداً لا يفهمه غيرى ! إن الذين يمتدحون صفاته لا يرون ما رأيت ، ولا يعرفون كيف سحق حياتي طيلة ثمانية أعوام ، سحق كل شيء كان حباً في ! إنه لم يفكر يوماً في أنى امرأة على قيد الحياة ، ينبغي لها أن تجد الحب الذى تنشده كل امرأة ! بل إن الناس لا يعلمون كيف أذلنى في كل خطوة ، وأمتعته أن يفعل ذلك ؟ أو لم أكافح أنا بكل قواى لكى أحبه ، وأجد شيئاً يكسب حياتي طعماً ومعنى ؟ .. ولكنى عجزت عن أن أخبه ، فركزت جبي

كله في أبني ! .. ثم جاء الوقت الذى أدركت فيه عجزى عن المضى فى خداعى لنفسى . أدركت أنى حية ، وأنى غير ملومة ! إن الله خلقنى كى أحب وأعيش ، والآن ماذا فعل الآثم ؟ لو أنه قتلنى ، أو قتل فروتسكى ، إذن لكان ذلك أكرم وأحسن ! .. ولكن كلا ! كيف غاب عني أن أتوقع ما سوف يفعله ؟ ! إنه يهددنى بالتزاع أبني منى ، وقد يحكم له القانون بذلك . لكنه يعلم جيداً أنى لن أنخل عن طفلى أو أهجره ، وألا حياة لى بغيره ، حتى مع حبيبي ! وإنه ليعلم أيضاً أنى لست من ذوات القلوب المتحجرة الوضيعة ، اللواتى تترك الواحدة منهن طفلها وتفر مع عشيقها ! .. وتذكرت « أنا » ما ذكرها به أليكسى فى خطابه بقوله : « ومن ثم ينبغي أن تستمر حياتنا كما كانت فى الماضى ! » ، فاستطردت تحدث نفسها : « هل كانت حياتنا فى الماضى غير شقاء مرير ! لكنه يريدنا أن تستمر ، لكى يمضى فى تعذيبى . إنه يكون سعيداً فى صحة الغش والنفاق ، كما تسعد السمكة فى الماء ! كلا ! لن أمتحه هذه السعادة ، سأمزق نسيج الأكاذيب الذى يريد أن يحبسنى فيه ، كما يحبس العنكبوت الذبابة ! إن أى شيء أفضل عندى من الكذب والغش ! .. ولكن كيف ! يا إلهى ! هل توجد امرأة أشقى منى ؟ لكنى سأنجو بنفسى .. نعم سأنجو ! » . وقفزت من مكانها وهى تمسح دموعها ، ثم اتجهت إلى متصدة الكتابة لتكتب إليه . لكنها فى أعماق قلبها كانت تشعر بأنها أضعف

من أن تستطيع التخلص من مأزقها ، برغم الزيف والعار اللذين يكتنفان حياتها ، فجلست إلى منضدة الكتابة ، لكنها بدلا من أن تكتب ، بقيت هنية متكئة بمرفقيها على المنضدة ورأسها بين كفيها .. ثم انخرطت في البكاء ، ونوات شهادتها كالطفل العاجز ! كانت تبكي تبعد أمهاتها في تسوية موقفها وجلالته . إنها تعلم الآن أن كل شيء سوف يستمر على حاله ، بل لعله سيزداد سوءا ! وهي تحس أنها لا تستطيع التفريط في مكانتها الاجتماعية التي بدت لها في الصباح ضئيلة القيمة ، ولن تقوى على أن تستبدل بها تلك المكانة المزرية التي يعطيها المجتمع للمرأة التي تهجر زوجها وطفلها كي تلحق بعشيقها .. إنها لن تستمتع قط بحريتها في الحب . وإنما ستظل دائما زوجة آثمة ، وسيظل سيف العقاب مصلنا فوق رأسها في كل وقت . إنها تخون زوجها من أجل صلة مخجلة برجل آخر يعيش بعيدا عنها ، ولا أمل في أن يشاركها حياتها .. بل إنها لا تعرف إلى أية نهاية سوف ينتهي بها المطاف !

وبقيت « أنا » تبكي في حرقه دون أي تحفظ . بكّت كما تبكي الطفلة حين تعاقب . ولم تفق من بكائها إلا حين سمعت وقع خطوات الخادم يقترب منها ، فأخفت وجهها متظاهرة بالكتابة . ثم سمعته يقول : « الرسول بالباب يسأل : هل هناك رد ؟ » . فقالت له : « رد ؟ نعم ، فلينتظر حتى أقرع لك الجرس ! » . ثم ساءلت نفسها حائرة : « ماذا أكتب ؟ ماذا أستطيع أن أقرر وحدي ؟ ماذا

أعرف ؟ ماذا أريد ؟ .. وأحسّت كأن روحها توشك أن تفلق إلى شطرين ، فأفرعها هذا الإحساس ، وودت لو تشغل نفسها بأي شيء يحول بينها وبين التفكير في أمرها ، وقالت لنفسها : « يجب أن أرى فرونسكى . لا أحد غيره يستطيع أن يشير على بما ينبغي أن أفعل . فلأذهب إلى « بتسى » ، لعلني أجده هناك !

لكنها بعد أن أمعت فكرها في الأمر ، عادت فالتحت على الورق ، وراحت تكتب إلى فرونسكى : « يجب أن أراك اليوم لأمر ضرورى . تعال إلى حديقة (فريدى) . حوالى الساعة السادسة » . ثم ختمت الرسالة وسلمتها لمن يوصلها ..

● كان فرونسكى يسير في حياته وفق دستور خاص وضعه لنفسه : دستور يحرم على الرجل أن يكذب على رجل مثله ، لكنه يجيز له أن يكذب على امرأة ! ويحرم على المرأة أن تفش أحدا سوى زوجها ! .. ويحرم على الإنسان أن يففر إهانة ، لكنه يجيز له أن يوجه الإهانة إلى غيره ! .. وكانت ميادى هذا الدستور - برغم مجافاتها للمنطق والأخلاق - تسمح لفرونسكى بما ينبغي من سكينه النفس وشموخ الأنف . ووفقا لها كانت صلته الحالية مع « أنا » وزوجها غاية في الوضوح والبساطة : فهو على ضوءها يرى « أنا » امرأة شريفة ، أسبغت عليه حبها ، وأحبها هو ، ومن ثم فهي في نظره تستحق من الاحترام والتبجيل مثل ما تستحق الزوجة

الوفية ، وربما أكثر ! .. وإن يده لتقطع قبل أن يسمح لنفسه بحركة أو كلمة فيها ما يذلها أو يشعرها بأنه يرضن عليها بأقصى ما تطمع فيه المرأة من احترام الرجل !

وفيا يختص بالمجتمع ، كان دستور فرونسكى يوحى إليه بأحكام هي الأخرى غاية في الوضوح : فهو يرى أن من حق كل فرد في المجتمع أن يعلم بأمر علاقته بمدام كارنينا ، أو يرتاب في ذلك ، ولكن ليس من حقه أن يتحدث عنها علانية ! فإذا جرؤ على ذلك فإنه مستعد لأن يجبره على الصمت ، وعلى احترام « الشرف المفقود » للمرأة التي يحبها !

على أن أوضح أحكام ذلك « الدستور » كانت تلك التي تتعلق بزواج « أنا » المخدوع : فنذ اللحظة التي أحبت فيها « أنا » فرونسكى ، اعتبر هذا حقوقه عليها بمثابة أمر مفروض منه ، ولم يعد زوجها في نظره غير شخص يجلب الضيق ، ولا لزوم له البتة ! .. وصحيح أن هذا الزوج بات في موقف لا يحسد عليه ، ولكن كيف السبيل إلى معالجة ذلك ؟ إن الشيء الوحيد الذى من حق الزوج أن يفعله هو أن يطلب ترضية من غريمه ، بالمبارزة والسلاح ، وقد كان فرونسكى على أتم استعداد لهذا الأمر !

لكن ثمة غيوماً جديدة بدأت تتكاثر في جو العلاقة بين فرونسكى وأنا ، فتسبب له شيئاً من الانزعاج : فهي مثلاً قد أنبأته بأمر الجنين الذى تحمله في أحشائها منه ! وقد كان رد الفعل المباشر

الذى أوحى له به قلبه إزاء هذا التبا المفاجيء أنه طالما ابتكر زوجها إلى غير رجعة . لكنه ما لبث أن ندم على تسرعه ، وود لو يستطيع تجنب هذه النتيجة ، وجعل يسائل نفسه : « إن هجرها زوجها إجابة لطلى معناه أن أقرن حياتى بحياتها . فهل أنا مستعد لهذه الخطوة ؟ هناك عقبتان تعترضان تنفيذها : إحداهما تدبير المال الكافى لمواجهة مقتضياتها ، والأخرى اضطرارى للاستقالة من الجيش كى أذهب معها بعيداً عن هذا المجتمع الذى يعرفنا ، ولن تكف أسنة أفراده عن أن تلوك تلك القضية ! » .

وكانت العقبة الأخيرة هي العقبة الكأداء حقاً ، فقد كان فرونسكى طموحاً إلى بلوغ أعلى مناصب الجيش ، وكان هذا حلم طفولته وشبابه . وقد بلغ من طموحه هذا أنه لم يعجم عن الدخول مع غريمه ، زوج عشيقته ، في صراع الند للند ! ومن ثم أخذ فرونسكى يقول لنفسه : « لو أننى هجرت الجيش فإني بذلك أحرق سقنى من خلقى ، فأقطع على نفسى خط الرجعة ! أما لو بقيت فيه فلن أخسر شيئاً ! .. ثم إننا قالت بلسانها أنها لا تود تغيير الأوضاع الحالية ! » .

ثم نهض فحلق لحيته ، وارتدى ثيابه ، وخرج إلى مواعده مع أنا ! .. وفى الطريق إلى حديقة (فيللا فيريدى) راح يتحدث نفسه قائلاً وهو يستعيد إلى ذاكرته صورة « أنا » كما بدت له فى لقائهما الأخير : « لست أبغى شيئاً سوى هذه السعادة ! إن حبي

لها يتضاعف كل يوم !». وحين اقترب من الحديقة قفز من العربة وصرف الحوذى ، ثم دخل الحديقة مسرعاً . وحانت منه نظرة إلى البين فرآها قادمة ، وقد غطت وجهها بنقاب ، فسرت في جسمه على الفور قشعريرة كالتى تحدثها صدمة كهربائية ! وحين التفتيا ضغطت يده فى قوة ، وابتدرته بلهجة جادة أثارت قلقه : « إنك غير غاضب لأنى دعوتك ؟ » . ورأى من تصرفها وحركاتها أن شيئاً قد حدث ، وأن لقاءهما لن يكون بهيجاً ! وسرعان ما سرت عدوى وجومها إليه ، فإن إرادته كانت تفارقه فى حضرتها ! فسألها وهو يحاول أن يقرأ أفكارها : « ماذا بك ؟ ما الذى حدث ؟ » لكنها سارت صامتة بضع خطوات وهى تجمع شتات شجاعتهما ، ثم توقفت فجأة وقالت له ، وهى تلتقط أنفاسها اللاهثة فى صعوبة : « فانتى أمس أن أخبرك بأنى صارحت بكل شيء . ذكرت له أنى لا أستطيع أن أكون زوجة له ، وأنى .. بالاختصار ذكرت له كل شيء ! » .

فاعتدل فرونسكى فى وقتته وارسم على وجهه فجأة تعبير يمتزج فيه الإباء والصرامة وقال : « هذا أفضل . أفضل ألف مرة . وإن كنت أقدر مدى الألم الذى سببه لك هذا الموقف ! » . لكنها لم تصغ إلى كلماته . كانت منشغلة بمحاولة قراءة أفكاره من تعبير وجهه ! لكنهم كانت تود لو قابل النبا قاتلا فى حلبة وعزم ، لا يخالجهما تردد : « دعى كل شيء وتعالى معى ! » . لو أنه

فعل ، لتركت زوجها وابنتها وذهبت معه ! .. فقالت فى عصبية مكتومة : « كلا ، لم يكن الموقف أليماً بالنسبة لى ، بل حدث الأمر من تلقاء ذاته . انظر ! » وأخرجت خطاب زوجها من ثيابا قفازها ، فتناول الخطاب وقال لها : « أنى أفهم كل شيء . وكل ما أتوق إليه - وطالما صليت لكى يتحقق - هو أن ينتهى هذا الموقف بأسرع وقت ، كىما أكرس حياتى لتوفير سعادتك .. » ثم نشر الخطاب وشرع يقرؤه . فلما أتى على سطره رفع عينيه إليها فى غير تصميم ، فقرأت هى فيها أن أملها الأخير قد خاب ! وقالت له بصوت مختلج : « أرايت أى رجل هو ، إنه .. » ، فقطع كلامها قائلاً : « لا تؤاخذينى إذا قلت إن هذا يسرنى . دعينى بربك أتم كلامى . إنه يسرنى لأن هذه الأوضاع لا يمكن أن تستمر بحال ، ولهذا أرجو أن تتركه ، وأن تدعينى أرتب حياتنا ، وغدا .. » . فقالت له مقاطعة : « ولكن ماذا يكون من أمر ابنى ؟ ألم تترك كيف هددي فى خطابه بأن يسلبنى إياه ؟ » ، فقال لها : « أيهما أفضل : أن تتركى ابنك ، أو أن تظلى فى هذا الوضع المزمى ؟ » . فسكت هنيهة ثم قالت له : « لا تقل هذا ، هذه الكلمات لا معنى لها فى نظرى ! ألا ترى أن كل شيء قد تغير فى حياتى منذ أحبتك ؟ لقد أصبح حبك عندى هو كل شيء ! » .

وخنتها العبرات ، فلم تستطع المضى فى حديثها ! وشعر هو بغصة فى حلقه ، ولأول مرة فى حياته انتابه ميل إلى البكاء مثلها ،

لإدراكه أنه المسئول عن شقوتها ، فقال متخاذلاً : « أليس الطلاق
ممكناً ؟ » . فهزت رأسها ولم تجب ، فأردف قائلاً : « ألا تستطيعين
أن تأخذى ابنك ؟ » . فقالت : « هذا يتوقف عليه وحده ، والآن
أرأى مضطرة إلى اللحاق به ! » . فقال : « سأكون في بطرسبرج
يوم الثلاثاء ، وكل شيء يمكن أن يسوى » . قالت : « حسناً !
ولكن دعنا من هذا الموضوع ، فلست أحب أن نتكلم فيه ! » .
ثم ودعته واستقلت عربتها .. ومضت !

● وكان اليكسى قد نسي ، في عمرة مشاغله ، اليوم الذي
حدده لعودة زوجته .. فلما تلقى برقية تنبيه بعودتها ، صدم في
البداية ، وأحس شيئاً من الضيق . ثم أرسل العربية لتقلها إلى البيت ،
دون أن يذهب لاستقبالها . وعندما بلغت البيت قيل لها إنه في حجرة
مكتبه ومعه سكرتيره ، فأرسلت تبثته بقدومها ثم مضت إلى غرفتها
الخاصة ، وهي تنتظر أن يلحق بها . لكن ساعة انقضت وهو لم
يظهر ! .. فتوجهت إلى حجرة المائدة بحجة إصدار بعض التعليمات
إلى الخدم : ورفعت صوتها عامدة كي يحس بوجودها . لكنه لم يخرج
من مكتبه ، حتى بعد أن ودع سكرتيره عند باب الحجرة . فقد
عاد بعدها إلى الداخل ! . وعندئذ لم تجده هي بلداً من أن تتجه نحوه .
فلما دخلت رآته قبل أن يراها . كان مبتكراً بمرفقته على متصلة
المكتب ، يفكر ! إنه يفكر فيها . وما كاد يراها حتى احمر وجهه ،

على خلاف عادته ، ثم نهض مسرعاً فاتجه ليلقاها ، وهو ينظر لا إلى
عينها وإنما إلى جبهتها وشعرها ، ثم تناول يدها ودعاها إلى
الجلوس ، وقال وهو يجلس يجسوارها : « كم أنا مسرور لأنك
حضرت ! » .

وحاول أن يضيف شيئاً آخر ، لكنه لم يدر ماذا يقول ؟ !
وكانت هي قد أعدت نفسها لتأنيبه وإظهار احتقارها له ، لكنها
أحست بالرتاء لحاله ، فسكت ، ولم تدر هي الأخرى ماذا تقول ؟ !
وهكذا استمر الصمت بينهما دقائق . وأخيراً قطعه هو متسائلاً :
« هل سريوشا بخير ؟ » ، ثم أضاف دون أن ينتظر جواباً : « لن
أتناول الغداء في البيت اليوم . ثم أتى مضطراً إلى الخروج فوراً ! » .
فقالت أنا : « لقد فكرت في الذهاب إلى موسكو » .

فقال : « كلا ! إنك أحسنت صنعاً بالحجى ! » ، ثم صمت .
وإذ رأت هي عجزه عن الدخول في الموضوع ، حزمت شجاعتها
وقالت ، وهي تنظر إليه دون أن تغض من بصرها تحت وقر نظراته
الملحة إلى شعرها : « اليكسى . إنى امرأة آثمة ، سيئة الخلق . وقد
جئت لأقول لك إنى لا أستطيع أن أعسير شيئاً من الأمور التي
صارحتك بها ! » . فقال في حزم وهو يواجهها بنظرته المنطوية
على الكراهية : « أنا لم أسالك إيضاحاً عن ذلك . لكنى ، كما قلت لك
وقئتذ ، وكررت لك في خطابى ، أعود فأقول لك إنه ليس من

الحتم أن أقف على هذه الحقيقة ، ومن ثم فإني أتجاهلها .. قليلاً ..
كل الزوجات من الطيبة والرفق بحيث يهرعن إلى مصارحة
أزواجهن بمثل هذه الأنباء « السارة » ! .. نعم ، إلى سوف أتجاهل
الأمر ما دام مجهولاً من الناس ، وما بقى اسمي غير ملوث ! ومن
هنا أقول لك : إن علاقتنا ينبغي أن تستمر كما كانت . ولأنني لن
أأخذ خطوة إيجابية لصون شرفي ، إلا إذا اضطررتني أنت إلى
ذلك ! .

وعاودها تفورها منه ، وطفى هذا الشعور على رثائها لحاله أول
الأمر ! لكنها بقيت خائفة منه ، فقالت في صوت خجول وفي
ضيق ظاهر . وقد انتوت أن توضح له موقفها كاملاً ، بأي ثمن :
« لكن علاقتنا لا يمكن أن تستمر كما كانت ، فلست أستطيع أن
أكون زوجة لك بينا .. » ، وعندئذ ضحكك ضحكة باردة خبيثة
وقال : « يبدو أن مسلكك قد انعكس على أفكارك . لكني أحترم
ماضيك وأحترم حاضرك ، بحيث أفي لم أقصد هذا الذي فسرت به
كلامي ! » . فتهدت « أنا » ونكست رأسها ، بينا تابع هو حديثه
قائلاً : « .. وإن كنت عاجزاً عن فهم هذا التناقض الغريب الذي
يجعلك لا ترين في خيانتك لزوجك أي غضاضة ، بينا تجددين كل
الغضاضة في القيام بواجبات الزوجية ! » .

ف نظرت إليه متسائلة ثم قالت : « ما الذي تريد مني ؟ » .

فقال : « أريدك ألا تستقبلي ذلك الرجل هنا ، وأن تسلكي في
حياتك الخاصة ما لا يجعل لأحد من الناس أو الخدم سبيلاً إلى لومك !
وهذا ليس بكثير فيما أرى . وفي مقابل ذلك سوف تستمتعين بكل
امتيازات الزوجة الوفية ، دون أن تقوى بواجباتها ! هذا كل
ما أردت أن أقوله لك ، والآن آن لي أن أذهب ، ثم أفي لن أتناول
الغداء في البيت اليوم » .

وانجه إلى الباب ، فنهضت هي أيضاً .. وإذ ذاك تركها تمر
قبله وهو ينحن لها في أدب !

الفصل الرابع

- ١٣ -

● استمر الزوجان يعيشان معاً تحت سقف واحد ، يلتقيان كل يوم ، لكنهما كانا أشبه بغيريين . وقد حرص أليكسى على أن يرى أنا كل صباح ، كيلا يجد الخدم مجالاً للفروض والتقولات ، لكنه صار يتجنب تناول الغداء في البيت . أما فرونسكى فانقطع عن التردد على بيت غريمه ، فكانت « أنا » تلقاه في الخارج ، يعلم زوجها !

وكان الموقف أليماً لثلاثتهم ، بحيث ما كان واحد منهم يستطيع أن يطبق استمراره يوماً واحداً ، لولا أمله في أن يتغير ، فتزول هذه الحنة الآلية « المؤقتة » . وكان أليكسى يعتقد أنها عاطفة عابرة سوف تفسد وتنقضي ، كما ينقضي كل شيء ، وينساها ثلاثتهم ، فيبقى اسمه كالعهد به غير ملوث ! أما « أنا » - التي كان الأمر يتوقف عليها ، والتي كانت تقاسى منه أكثر من الرجلين - فإنها لم تحصل هذا الوضع إلا وهي موقنة بأنه لن يلبث أن ينتهي إلى غاية فيتيسر تصحيحه ووضع الأمور في نصابها ، وإن لم تكن لديها أية فكرة عن السبيل إلى ذلك ! وقد تبع فرونسكى خطاها راعماً ، وهو يأمل بدوره أن يحدث أمر - من غير جانبه هو - يحل جميع المشكلات ، وتستقيم به الأوضاع ! وذات يوم عاد فرونسكى إلى

بيته ، فوجد في انتظاره رسالة من أنا تقول فيها : « إلى مريضة وشقية ، ولن أستطيع الخروج ، لكنني ان أستطيع أيضاً أن أبقى بغير أن أراك .. فتعال هذا المساء . وسوف يخرج زوجي إلى عمله في السابعة ، ولن يعود قبل العاشرة ! » .

وفكر فرونسكى في غرابة هذا الطلب من أنا ، برغم تشديد زوجها في وجوب امتناعها عن استقباله في بيته ، على أنه لم يجد بداً من أن يجيبها إلى طلبها ، فقرر الذهاب . لكن سنة من النوم عاقته عن الاستيقاظ في الموعد المناسب ، فلما فتح عينيه وجد الظلام قد هبط ، والساعة قد بلغت الثامنة والنصف ! .. فارتدى ثيابه على عجل وهو يفكر في الكابوس الرهيب الغامض الذي رآه في نومه ، واستقل عربته إلى دار غريمه ، فوصل إليها في التاسعة إلا عشر دقائق . وكما كانت دهشته واستياؤه حين التقى في مدخل البيت بأليكسى خارجاً ، وقد ألقى ضوء الردة الضئيل ظله على وجهه الشاحب الصارم وعينيه البليدين ، فحدهجه الزوج حين مر عليه بنظرة خرساء ، ثم رفع يده إلى قبعته ومضغ شفتيه ، رداً على الحنאה فرونسكى له ، ومضى إلى عربته ..

وتابع فرونسكى سيره في الردة وقد لمعت عيناه ببريق الكبرياء والغضب ، وأخذ يحدث نفسه : « يا له من موقف ! لو أنه بارزني دفاعاً عن شرفه ، لاستطعت أن أنصرف ، وأعبر عن مشاعري . لكنني لا أطيق هذا الضعف ، هذه الضعة ! إنه يضعني

في موضع الخادع المدلس ، وأنا ما أردت هذا ، ولست أريده ! :
وكانت آراء فرونسكي قد تغيرت منذ حديثه مع « أنا » في حديقة
« فيريدني » ، فاستكان دون وعي لضعف عشيقته التي أسلمت له
نفسها ومصيرها تسليمًا كاملاً ذليلاً !

وفي نهاية الردهة سمع وقع خطواتها ، فأدرك أنها كانت تنتظره
وترقب حضوره في لفظة ، ولم تكد تراه حتى صاحبت به والدموع
في عينها : « كلا ، لئن سارت الأمور على هذا المتوال فالنهاية
أقرب مما تصور ! » .

— ماذا جرى يا حبيبتي ؟

— ماذا جرى ؟ منذ ساعتين وأنا أنتظرك على حجر ! لكنني لئن
أتشاجر معك ، فأنت بالطبع لم تستطع الحضور قبل الآن . كلا ،
لن أعاتبك !

ووضعت راحتيها على كتفيه ، ورمقته بنظرة طويلة عميقة ،
حارة فاحصة — كأنما التعوض ما فاتها منه في غيابه ! — ثم استدارت
ونزعت لإبرة « الكروشيه » من قطعة الصوف التي تنسجها ، وبدأت
تعمل فيها من جديد بحركة سريعة عصبية . ثم سأله : « أين التقيت
بزوجي عند دخولك ؟ » ، فقال : « في مدخل الردهة » . فهضمت
وقلدت زوجها وهو ينحني بالتحية ، ثم قالت : « أهكذا انحنى
لك ؟ » ، فابتسم فرونسكي لبراعتها في التقليد ، وضحكت هي في
مرح ، ثم أردف فرونسكي قائلاً : « الواقع أنني لست أفهم على

الإطلاق : كيف يمكن أن يدع الأمور على هذا الوضع ، بعد
اعتراك له بمدى الصلة التي بيننا ؟ !

فقالت : « إنه قانع بهذا الوضع ! » .

قال : « إذن فقم ابتناسنا جميعاً إذا كانت السعادة في متناولنا ؟
قالت : « أنت لا تعرفه كما أعرفه ، إنه غارق في الزيف
والنفاق حتى أذنيه . وإلا فهل يستطيع شخص عنده ذرة من
الإحساس ، أن يعيش في بيت واحد — كما يفعل هو — مع زوجته
التي تحذعه ، وأن يتحدث إليها ويخاطبها بكلمة « عزيزتي » ؟ إنه
فاقد الضمير والشعور ! بل إنه ليس رجلاً ، ليس إنساناً على
الإطلاق . إنه دمية لا أكثر ! ولو أنني كنت مكانه لقتلت ومرت
زوجة مثلي منذ أول لحظة ! أقول لك إنه ليس إنساناً ، بل آلة
مصلحية . إنه لا يستطيع أن يفهم أنني قد غدوت زوجتك أنت !
أوه ، دعنا نكف عن التحدث في أمره ! » .

فحاول فرونسكي أن يهديء من ثائرتها وقال : « إنك ظالمة ،
ظالمة جداً يا حبيبتي . ولكن دعينا من سيرته كما نقولين ، وحدثيني :
ماذا كنت تفعلين ؟ ماذا أصابك ، وماذا قال الطبيب ؟ أحسبك
لست مريضة ، وإنما هو الحمل الذي يسبب لك هذا التعب . متى
يحين موعد الوضع ؟ » . وهنا انطفأت النظرة الساخرة في عينها ،
وارسمت على وجهها بدلاً منها ابتسامة كثيفة غامضة ، وما عثمت
أن أجابته : « قريباً . قريباً ! إنك تقول : إن موقفنا تعس جداً ،
٩ - أنا كلونينا — كتابي

وإننا ينبغي أن نضع له حداً . ولكن آه لو علمت كم أتألم أنا منه ؟ وماذا أبذل كي يقدو في مقدورى أن أحبك في حرية وجرأة ! والواقع أننى لا ينبغي أن أعذب نفسى وأعذبك بغيرتى . ولتلق أن النهاية ستكون قريبة . ولكن ليس على الصورة التى تنتظرها ! . ولإذ تذكرت الصورة التى تتوقع أن تكون عليها النهاية ، تدافعت الدموع إلى عينيها وعجزت عن مواصلة الكلام ، فوضعت يدها على كفه وتشبثت به بهمة ، حتى استردت صوته فاستطردت : « إن النهاية لن تكون كما نفترض . لم أكن أريد أن أقول لك ذلك ، لكنك دفعتنى إلى قوله . وقريباً سيتهى كل شيء ونتم جميعنا بالسكينة ولا نعود نتألم ! » .. فبدأ التساؤل فى عينيه وقال لها : « لست أفهم شيئاً ! » ، فقالت : « ألم تسألنى متى يحين موعد الولادة ؟ إنه سيحين قريباً ، ولن أعيش بعدها ! لا تقاطعنى ، أنا أعرف ذلك ، أعرفه عن يقين ! » .. وتساقلت الدموع من عينيها ، فانحنى على يدها يقبلها ، محاولاً إخفاء تأثره .. بينما أردفت هى : « إنه المخرج الوحيد الذىبقى أماناً ! » .

وكان هو قد اعتدل وافقاً ، فرفع رأسه وقال لها : « يا لالوهم ! ما هذه السخافات التى تنطقين بها ؟ » .

— إلى ساموت .. لقد رأيت حلماً ؟ !

وتذكر فرونسكى الكابوس الرهيب الذى رآه فى نومه بعد الظهر ، بينما واصلت هى كلامها قائلة : « نعم . حلمت بأنى دخلت

مخدعى لأبحث عن شيء ، فوجدت فى ركن منه قروياً ذا لحية كثرة وشكل مخيف . وحاولت أن أعدو لكنه انحنى على غرارة وراح ينبش فيها بيديه ، هكذا : « » ، وأخذت تمثل حركته وقد ارتسم الرعب فى عينيها ، فتذكر فرونسكى حلمه ، وأحس برعب مماثل يستولى عليه ، بينما استطردت هى تقول : « ثم التفت الرجل المفزع إلى وقال : « سوف تموتين يا سيدتى وأنت تضعين طفلك ، ستموتين ! » ، وعندئذ استيقظت من نومي » .

— ١٤ —

● على أثر اللقاء اليكسى وفرونسكى عند مدخل البيت ، مضى الأول إلى دار الأوبرا الإيطالية ، حيث شهد فصلين من الرواية ، ورأى كل من أراد أن يراهم ، ثم عاد أدرأجه إلى البيت . وكان أول ما فعله حين دخل أن ألقى نظرة على المشجب ، فلما لم ير عليه معطف الضابط مضى إلى غرفته تواء . لكنه بدلاً من أن يأوى إلى فراشه راح يذرع الحجرة حتى اقترب الفجر ، وقد أزعجه تحدى زوجته لتعليقاته فى شأن كتمان صلتها بعشيقها ! .. وبعد أن قلب الأمر على وجوهه قرر أن يكون عند كلمته فيعاقبها بتنفيذ تهديده لها بالطلاق وانتزاع ابنها من حضانتها ، برغم كل العقبات والصعاب التى تكنف هذا الإجراء !

ولم يمه طيلة الليل ، وظل غضبه يتفاقم حتى بلغ ذروته فى الصباح ، فنهض وارتدى ثيابه على عجل ثم مضى إلى مخدعها رأساً

.. فأدهشها أن تراه يدخل عليها على هذه الصورة ، وقد زوى ما بين حاجبيه ، ولمعت عيناه بنظرة زائغة ، وفي انطباق فمه وحركاته ومشيته ونبرات صوته ما يدل على الحزم والتصميم ! .. واتجه دون أن يحياها إلى منضدة الكتابة التي تخصها ، فتناول مفاتيحها وفتح بها أحد الأدراج ، فصاحت به أنا : « ماذا تريد ؟ » .

فقال دون أن ينظر إليها : « رسائل عشيقك ! » .

فقالت : « إنها ليست هنا ! » . ثم نهضت مسرعة وأغلقت الدرج ، لكنه أدرك من حركاتها أنه كان على حق في استنتاجه ، فنجحها جانباً واختطف من الدرج حافظة أوراق كان يعلم أنها تضع فيها أوراقها الخاصة ، فحاولت أن تنتزعها منه لكنه دفعها عنه في شيء من العنف قائلاً : « اجلسى ، قالى أبغى أن أكلمك . لقد ذكرت لك أنى لن أسمع لك بأن تستقبل عشيقك فى بيتى ! » .

فقالت : « أردت أن أراه كى .. » ، وسكتت مطرقة كأنما تبحث عن السبب ، فاستطرد هو قائلاً : « لن أدخل فى تفاصيل الأسباب التى من أجلها تريد المرأة أن ترى عشيقها ! » .

— كان غرضى أن .. على أية حال فإنك تجد من السهل عليك أن تهينى ! ..

— الرجل الأمين والمرأة الأمينة يتلقيان الإهانات . أما أن يقال للص إن له لص فهذا تقوير أمر واقع وليس أكثر من ذلك !



واقعه دون أن يحياها إلى منضدة الكتابة التي تخصها
فتناول مفاتيحها وفتح بها أحد الأدراج ..

— هذه القسوة شيء جديد لم أعهده قبلك !

— أهي قسوة أن يعطى الزوج لزوجته حريتها ، ويعهد إليها بحراسة اسمه وشرقه ، لقاء شرط واحد بسيط هو المحافظة على المظاهر ؟ !

— إنها أسوأ من القسوة . إنها ضعة ، إذا أردت أن تعرف ! وكان وجهها وصوتها يمان عن كراهية هائلة ، ثم نهضت وهمت بالخروج من الغرفة ، فاستوقفها بصرخة حادة غير مألوفة ، ثم قبض على ذراعها بقوة وعنف وأجلسها حيث كانت ، قائلاً : « كلا ! إنما الضعة — إذا حرصت على استخدام هذه الكلمة — هي أن تضحي الزوجة بزوجها وطفلها من أجل عشيقها ، في الوقت الذي تأكل فيه خبز هذا الزوج ! » .. فنكست رأسها ، ولم تقل ما قالت لعشييقها في الليلة السابقة ، من كونه هو زوجها ، دون الزوج الحقيقي الذي صار منهوذاً من حياتها ! بل لم تشعر في أعماقها بصحة هذا القول ، وإنما شعرت بعدالة غضبه زوجها ، وصدق كلماته .. فقالت في نعومة : « لن تستطيع أن تصف موقفى بأسوأ مما أحسه أنا ! لكن ماذا تبغى ؟ » .

— ماذا أبغى ؟ أبغى أن تعلمي أنك ما دمت لم تنفذى رغبتي في شأن المحافظة على المظاهر الخارجية ، فسوف أتخذ الإجراءات الكفيلة بوضع حد لهذه الحالة !

— كل شيء سينتهى قريباً على أية حال !

وإذ جال بذهنها خاطر الموت القريب المنشود ، لمعت الدموع في عينيها .. بينما استطرد هو فقال : « إنه سينتهى بأسرع مما دبرت أنت وعشيقك ، فما دمتا نصران على إشباع غرائزكما الحيوانية .. » .

— اليكسى . لن أقول لك إن هذا مسلك غير كريم منك ، بل إنه مناف لشهامة الرجال أن تضرب ضربة خرت ساقطة !

— إنك تفكرين في نفسك فقط ، أما آلام الرجل الذى كان زوجك فلا تعبين بها ! لا يهمك أن تنهار حياته كلها وتصير حطاماً !

وكان يتكلم بسرعة وحدة جعلت أنفاسه تلهث ، فأخست بالرائاء له ، ولكنها لم تجد ما تقوله ، فاكثفت بأن نكست رأسها ولاذت بالصمت ! .. وصمت هو بدوره برهة ، ثم بدأ يتكلم بصوت أقل حدة وأكثر بروداً : « لقد جئت لأقول لك .. » ، فنظرت إلى عينيه وحدثت نفسها : « أيمكن لمن له هاتان العينان البليدتان أن يحس أو يتألم ؟ » .

— جئت لأقول لك إنى ذاهب غداً إلى موسكو ، ولن أعود إلى هذا البيت . وسوف تصل إليك أنباء ما سوف أقدره بعد استشارة المحامى الذى سأعهد إليه في قضية الطلاق . أما إنى فسيذهب إلى بيت أنتى .

— إنك تأخذ سريوشا لتنتقم مني ، لا لأنك تحبه . دع لي سريوشا !

— صدقت ، فلقد فقدت حتى حبي لابني . لأنه مرتبط بالثور الذي أحسه نحوك . لكنني سأجده مع ذلك ، فوداعاً !

وهم بالخروج ، لكنها عاقته هذه المرة هامة في ضراعة : « أليكسي ، دع لي سريوشا ! ليس عندي شيء آخر أقوله . دع سريوشا حتى يحين : لن يطول في الوقت حتى .. دعه لي ! .. » لكنه انتزع يده منها في غضب رهيب ، وخرج .. دون أن يضيف حرفاً !

• • •

● في اليوم التالي لوصول أليكسي إلى موسكو ، لقيه مصادفة « ستيفان أوبلونسكي » شقيق « أنا » ، وكانت معه زوجته « دوللي » وأطفالها ... فدعاه الزوجان إلى تناول العشاء في ضيافتهما مساء اليوم التالي . مع تحبه من الأصدقاء ، وأصرأ على دعوتها برغم محاولته التملص منها !

وفيما أليكسي جالس في اليوم التالي بعد أوراق قضية الطلاق ويضعها في ظرف تمهيداً لإرسالها إلى محاميه ، بعد أن اتفقا على خطة السير في الدعوى ، سمع صوت « ستيفان » مشبكاً في نقاش مع الخادم الذي يحول بينه وبين الدخول على سيده دون استئذان .

فهمس أليكسي محدثاً نفسه : « لا بأس ، لعل الخير في حضوره . سأصارحه فوراً بموقفي نحو شقيقته ، وأوضح له سبب اعتذاري عن تناول الطعام عنده ! » . ولم يلبث « ستيفان » أن دخل وهو يتف في مزح : « كم أنا مسرور لأنني وجدتك ! أرجو أن .. » فقطع أليكسي كلامه قائلاً في برود ، دون أن يدعوه إلى الجلوس : « لن أستطيع الحضور ! » .

— لم لا تستطيع ؟ ماذا تعني ؟ .. لكنك وعدت ، ونحن معتمدون عليك !

— أعني أنني لن أستطيع تناول العشاء في بيتك ، لأن أسباب الصلة التي كانت بيننا ينبغي أن تنوقف !

— ماذا ؟ ماذا تعني ؟ ما السبب ؟

— لأنني شرعت في اتخاذ إجراءات الطلاق ضد شقيقتك ، زوجتي ؟ !

.. وقبل أن يكمل أليكسي عبارته ، زفر ستيفان وتأوه ثم غاص في مقعد مريح وهو يقول ذاهلاً ، وقد بدا الألم في وجهه : « كفى دعاية يا أليكسي ، ماذا تقول ؟ » .

— كما ذكرت لك ..

— لا تؤاخذني ، إنني لا أستطيع تصديقك !

— لقد قادتني الظروف الحتمية المؤلمة إلى السعي في الطلاق !

— حسبي أن أقول لك شيئاً واحداً يا أليكسى : لقد عرفتك رجلاً ناهياً ، قوم الخلق ، كما أعرف عن « أنا » أنها امرأة رائعة طيبة ، ولن أستطيع تغيير رأيي فيها . لذلك ينبغي أن تعذرني إذا لم أصدق كلامك . لا بد أن في الأمر سوء تفاهم !

— ليته كان كذلك ؟!

— ربما استطعت أن أفهم ، ولكن يجب ألا تتعجل في تصرفك !

— لست أحب العجلة في أى شيء . لكن النصيحة لا تجدى في مثل هذه الأمور . لقد استقر قرارى على ذلك !

— هذا فظيع ! ولكن دعني أناشدك أن تفعل شيئاً واحداً قبل أن تقدم على شيء : قابل زوجتي وتحدث إليها في الأمر ، فهي تحب « أنا » كأخت ، كما تحبك أنت ، وهي امرأة حكيمة . فبربك حدثها في الأمر ، امنحني هذا الفضل .. أرجوك !

سكت أليكسى هتية ، متردداً ، فنظر إليه ستيفان في عطف دون أن يقطع صمته .. ثم قال يسأله : « أذهب أنت لثراها ؟ » . — لست أدري ، فقد كان هذا سبب إحجامي عن زيارتك ،

فإنى أحسب أن علاقتنا لا بد سوف تتغير !

— ولم ؟ لست أرى رأيك . بل أعتقد أنك تكن لي — بغض النظر عن الصلة التي بيننا — مثل الشعور الودى والتقدير المخلص اللذين أكنهما لك . وحتى لو تحققت أسوأ افتراضاتك فلن ألوم

طرفاً منكماً ، أو أنحاز إلى الآخر ، ولست أرى سبباً لأن تتأثر علاقتنا بشيء من هذا ! .. والآن ، افعل من أجل هذا الصنيع ، تعال وقابل زوجتي !

— إن كليتنا ينظر إلى الأمر من وجهة نظر مختلفة . وعلى أى حال ، لن نتناقش في الأمر !

— ولم لا ؟ على كل حال ينبغي أن نحضر للعشاء معنا ، فإن زوجتي تنتظرك . وهي امرأة متزنة ، سوف ينفعك أن تحدثها في الأمر . فبربك تعال ، إنى أستحلفك !

فقال أليكسى أخيراً وهو يتنهد : « حسناً ، ما دمت تريد ذلك ، فأحضر ! » .

• • •

● التأم شغل المدعورين في صالون بيت « ستيفان أوبلونسكى » منذ الغروب ، ولم يبق غائباً منهم غير « ليفين » .. فلما حضر بعد قليل أخذه ستيفان من ذراعه وقدمه لأليكسى على اعتبار أن الأخير شخصية بارزة يسر الجميع أن يتعرفوا إليها . لكن ليفين لم يكن ليتشد في حالة تسمح له بمرور التعرف إلى أحد ! .. فقد كانت أفكاره كلها تحوم حول « كيتي » ، شقيقة ربة الدار ، ولم يكن قد رآها منذ الليلة التي التقى فيها بفرونسكى لأول مرة ، في دار أسرهما ؟ وقد استنتج حين دعاه ستيفان إلى العشاء أنه سوف يرى كيتي بين الحاضرين ، ومع ذلك وطن نفسه على احتمال أن لا يراها .

فلما أسر ستيفان إليه عند دخوله أنها موجودة ، شعر بمزيج من
 البهجة والذعر ، حتى لقد لث قلبه بين ضلوعه من فرط الانفعال !
 وكانت كيئى لا تقل عنه انفعالا وترقباً ، فلما دخل القاعة
 شعرت هي الأخرى بمزيج من الغبطة والقلق ، واحمر وجهها ، ثم
 شحب ، ثم احمر كالقرمز ، واختلجت شفتاها .. حتى لقد خشى
 أهلها المتابعون للموقف أن تفقد سيطرتها على أعصابها فتجهش
 بالبكاء ؟ .. فلما دنا ليقين منها انحنى لها ومد يده ، دون أن يتكلم ..
 وفيما عدا الاختلاجة الخفيفة في الشفتين ، والتدى اللامع في العينين ،
 كانت ابتسامتها هادئة وهي تقول له : « منذ متى لم ير أحدنا
 الآخر ؟ » .. ثم ضغطت يده بيدها الباردة في حركة يأس ، وأدارت
 رأسها الصغير الجميل نحوه ، وابتسمت . وبرغم أن عبارتها لم
 تنطو على معنى غير عادى فقد أحس ليفين في كل نبضة من صوتها ،
 ورعدة من شفتها ، ونظارة من عينيها ، توسلا من أجل الصفع ،
 وثقة في شخصه ، ورقة ناعمة خجلى ، بل ووعداً وأملاً وحباً له ..
 الأمر الذى أغرقه في فيض من السعادة الغامرة !

ودون أن يلفت « ستيفان » الأنظار . بل دون أن ينظر حتى
 إلى الشاب أو الفتاة ، أجلسهما متجاورين ، كأن ليس في المكان
 مقاعد أخرى خالية ! .. وكانت السمرة ناجحة من كل وجه ،
 والمادبة فاخرة الطعام والشراب ، والجماعة جذابة الحديث . وفي
 غرفة منعزلة التقي أليكسى ودوللى . فابتدت الأخيرة ضيفها

الكبير قائلة له وعلى فيها ابتسامة مشفقة : « يسرنى أنك حضرت ..
 فلتجلس هنا ، فإن لى معك حديثاً » .. فجلس بجانبها وهو يبتسم في
 تكلف ، وعلى وجهه تعبير ينم عن عدم المبالاة ، ثم أجابها بقوله :
 « إن هذا من حسن حظى ، ولا سيما أنى كنت معتزماً الاعتذار
 والتخلف ، لأنى مسافر غداً ! » ..

وكانت دوللى واثقة من براءة أنا ، فشحب وجهها ، وبدأت
 شفتها تختلجان غضباً لم رأى وجه أليكسى الجامد ، الخالى من
 الشعور ، ثم قالت له في عزم يائس وهي تواجهه بنظرة ثابتة :
 « أليكسى .. لقد سألتك أمس حين التقينا كيف حال « أنا » ،
 لكنك لم تجيب .. فإذا هنالك يا ترى ؟ » ..

— إنها فيما أعتقد بأتم خير !

— اغفر لى يا أليكسى هذا الفضول ، فليس من حق أن
 أسألك : لكنى أحب زوجتك حبي لشقيقى ، وأقدرها .. ومن
 ثم أرجو منك ، بل أتوسل إليك ، أن تصارحنى بما شاب العلاقة
 بينكما ؟ أى خطأ تنسبه إليها ؟

تجههم وجه أليكسى ، ونكس رأسه وكاد يغمض عينيه ، ثم
 قال : « أحسب أن زوجك حدثك عن مدى التطور الذى وصلت
 إليه العلاقات بينى وبينها » . فقالت له : « لكنى لست أصدق
 شيئاً من ذلك . لست أصدق البتة ! » . فقال في هدوء : « إن
 الإنسان لا يستطيع أن يكذب الحقائق يا دوللى ! » ..

ولكن ماذا فعلت هي .. ماذا فعلت بالضبط ؟
 - ضحكت بواجباتها ، وخانت زوجها .. هذا ما فعلته !
 - كلا ! هذا غير ممكن ! .. أنت لا بد مخطئة !
 ووضعت دوللى يديها على صدغيها وهي تتكلم ، وانغمضت
 عينيها ، فابتسم أليكسى في برود ، قاصداً أن يظهر لمحدثته ولنفسه ،
 مبلغ اقتناعه بما يقول .. لكن هذا الدفاع الحار عن زوجته ، وإن
 لم يزعر يقينه ، كان قد نكأ جرحه .. فبدأ يتكلم بحرارة أشد ،
 وهو يقول : « من الصعب أن يخطئ المرء حين تكون الزوجة
 نفسها هي التي صرحت له بخطيئتها ، وبأن ثمانية أعوام من حياتها ،
 وفلذة من كبدها ، كانت كلها خطأ جسيماً ، وبأنها تبغى أن تبدأ
 حياتها من جديد ! »

- « أنا » هي التي صرحت بخطيئتها ؟ لست أستطيع أن أصدق
 ذلك !

.. وعندئذ قال أليكسى وهو يواجه محدثته لأول مرة بنظرة
 مباشرة ، إلى وجهها الرقيق المضطرب : « ليتنى أستطيع أن أشك
 في الأمر .. فعندما كنت مرتاباً فيه كنت تفسأ ، لكن ذلك كان
 خيراً من حالى الآن . كانت عندى بقية من أمل ، أما الآن فلم يبق
 ثمة أمل على الإطلاق ! ومع ذلك فإزالت أرتاب في كل شيء ،
 إلى حد أنى أمقت ولدى ، وأحياناً أشك في أنه ابنى ! .. إلى شتى
 كل الشقاء ! »

حقاً ؟
 - نعم ، فلم يبق أمامى مخرج آخر !
 فقالت دوللى والدموع في عينيها : « لم يبق أمامك مخرج آخر !
 أوه ، لا تقل هذا ! » .. فقال : « إن أفضطع ما فى الكارثة التى من
 هذا النوع أن الإنسان لا يستطيع فيها - كما فى خسارة المال ، أو
 الموت - أن يحتمل مصيبتها فى سكينة ، وإنما لا بد له من أن يتخذ
 خطوة إيجابية يخرج بها من الوضع الذليل الذى وضع فيه ! »

- أفهم ذلك ، أفهمه جيداً .. ولكن ، انتظر قليلاً : أنت
 رجل مثدين .. فكر فيها ، وفيما عساه يكون من أمرها إذا نبذتها !
 - لقد فكرت فى ذلك ، فكرت فيه ملياً . هذا ما فعلته تماماً
 حين كاشفتنى بمذلتى . تركت كل شيء على حاله ، ومنحتها
 فرصة الرجوع عن فيها .. حاولت أن أنقذها ! ولكن ماذا كانت
 النتيجة ؟ أنها لم تعياً بمراعاة أبسط الأشياء .. فإذا فى وسعى أن
 أفعل ؟ !

- أى شيء .. ما عدا الطلاق .

- وما هو هذا الشيء ؟

— كلا ، هذا فظيع : أن لا تغدو زوجة لأحد : إنها سوف تهلك !

فقال أليكسى وهو يتركتفيه ويرفع حاجبيه : « وماذا أصنع ؟ » .. ثم أضاف وهو ينهض : « أنا شاكر لك عطفك واهتمامك ، لكنى يجب أن أنصرف الآن » ، فصاحت به هاتفة فى انزعاج : « كلا ، انتظر لحظة . لا تقض عليها . أعطها فرصة أخرى .. ولأحدثك عن نفسى : كنت متزوجة ، وخاننى زوجى ، ففكرت فى نوبة غضبي وغيرتى أن أدمر كل شيء .. لكنى عدت إلى صوابى فى اللحظة الأخيرة . ومن الذى هدانى وأقنننى ؟ إنها أنا » نفسها ! .. وهأنذا سعيدة بأولادى وبزوجى الذى تاب وندم على حماقته . وقد صفحت عنه ، وأنت ينبغى أن تصفح أيضاً ! » .

أصغى أليكسى إليها ، لكن كلماتها لم تؤثر فيه ، فقال بصوت صارخ مرتفع ، ينضح بالكرامة : « أنا أصفح ؟ كلا ! لست أستطيع ، ولا أريد .. بل أعتبر الصفح هنا غلطة كبرى . لقد بدلت كل شيء من أجل هذه المرأة ، لكنها نبذته جميعه وألقت به فى الوحل الذى نبتت منه ! .. وأنا لست رجلاً حقوداً ، وما كرهت فى حياتى إنساناً ، لكنى أكرهها هى الآن من كل قلبى ، ولا أستطيع أن أغفر لها الشر الجسيم الذى فعلته بى ! » .. فتأشده دوللى هامة ، مرددة وصية المسيح : « أحبوا أعداءكم ..

أحسنوا إلى مبغضكم ! » .. لكن أليكسى ابتسم فى استمزاز ، ثم أردف قائلاً : « قد يستطيع الإنسان أن يحب كارهه ، أما أن يحب المكروه ، فهذا مستحيل ! » .
ثم تمالك نفسه ، ونهض فودع دوللى .. وانصرف فى هدوء !

• • •

● على أثر نهوض المدعوين من مائدة الطعام أراد ليفين أن يخلو إلى كيتى ، فذهبها إلى حيث جلست إلى إحدى الموائد الخضراء تعبت بقطعة من الطباشير الملون .. وابتدراها قائلاً : « لقد طالما أردت أن أسألك سؤالاً واحداً » .. فرفعت إليه عينيها متسائلة ، وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة ، بينما تناول هو قطعة الطباشير وكتب بها هذه العبارة : « عندما قلت لى إن الأمر مستحيل ، هل كان قصدك أنه مستحيل وقتئذ فقط ، أم على الدوام ؟ » .

توردت وجنتاها خجلاً ، لكنها تماكنت نفسها بعد هنيهة وعادت الابتسامة إلى شفتيها ، ثم تناولت منه قطعة الطباشير وكتبت بحبيبة عن سؤاله : « كان قصدى يومئذ على الدوام » ، فلم أكن أستطيع أن أقول غير ذلك . أما الآن فالأمر مختلف ! » .. فقال لها معتبلاً : « إذن فالأمر غير مستحيل الآن ؟ ! » .. فأومأت برأسها موافقة . ثم تناولت قطعة الطباشير وهى تقول له : « اقرأ هذه العبارة » ، ثم كتبت : « هل فى وسعك أن تنسى ، وتصفح عما

حدث ؟ » ، فقال لها على الفور : « ليس عندى ما أنساه أو أضفح عنه ! » .

وحين آن أوان الانصراف ، كان الاثنان قد تبادلوا التفاهيم على كل ما يشغل بالهما .. فأكد هو أنه يحبها ، وأكدت هى أنها تحبه ، وأنها ستخبر أباه وأُمها بأنه سيزورهم فى صباح الغد !

ولم يتم ليفين ليلتها ! .. وفى الصباح الباكر خف إلى دارها فوجد باب الزائرين ما يزال مغلقاً ، فعاد أدراجة إلى فندقه وهو يتملى جمال الطبيعة فى البكور ، ويرقب الحمايم الجميلة وهى تهبط من أعشاشها إلى أرصفة الشوارع لتلتقط حبات الحنطة .. وقبيل الظهر استقل الشاب زحافة حملته إلى دار آل شرباتسكى ، حيث استقبله الخدم فى شوق ولطف ، وقد بدا فى نظراتهم المرحية أنهم « فهموا » ما هنالك ! .. ثم جلس ينتظر مشفقاً إقبال حبيبته التى ركز فيها كل سعادته ، بل حياته كلها .. وما لبثت أن أقبلت عليه فى خطى خفيفة طائرة ، فلم ير غير عينيها الصافيتين الصادقتين ، بشيع فيهما ذات الحب المبارك الذى يغمر قلبه هو .. ووقفت بجانبه ، وأراحت يديها على كتفيه فى خجل ونشوة ، فأحاطها بذراعيه .. وسرعان ما تلاقفت شفاههما فى قبلة تمت عن جيها المتبادل المكين .

وكانت هى أيضاً لم تتم ليلتها ، وبقيت تنتظره حتى الصباح لتخبره بأنها خاطبت أبويها فى الأمر فوافقا من فورهما مرحبين .

ثم جذبته من ذراعه وقالت له فى مرح كمرح الأطفال : « هيا بنا ، إن أُمى فى انتظارنا » . وحاول هو أن يقول شيئاً ، لكنه أشفق أن يفسد عاطفته بكلمة ! وأحسن أن دموع الفرح تتراحم فى عينيه ، فتناول يدها وطبع عليها قبلة ، ثم قال أخيراً بصوت مختلج : « أيمكن أن يكون هذا صحيحاً ؟ لست أصدق أن تحببى أيتها العزيزة الغالية » .. فابتسمت منتشية بعذوبة عبارته ونظرت إليه ، ثم أجابته مطمئنة :

— نعم ! نعم ! أُمها العزيز ، وإنى لسعيدة كل السعادة ؟

ثم قادته من ذراعه إلى أمها ، فقبلتهما والدموع فى عينيه ، وهفت بهما : « إذن فقد تفاهمتا ؟ إلى مسرورة يا كيتى . وأنت يا أبنى ، فلتحبيها على الدوام ! » . وقال الأب متظاهراً بعدم التأثر ، وإن لم يخف ليفين الدمع برطب عينيه : « إنك لم تضيقاً وقتاً فها أرى . لقد طالما تمتعت أنا هذه النتيجة ، حتى عندما توهمت هذه الحمقاء الصغيرة أنها .. » . فبادرت كيتى إلى وضع يدها على فكه حتى لا يتم عبارته . فابتسم وقال : « حسناً حسناً ، فلاصحت . إني لسعيد جداً .. أوه ، كم كنت غيباً ! » .. وقبل كيتى : قبل وجهها ، وبديها ، ثم وجهها مرة أخرى . ورسم علامة الصليب على صدرها ، فالتحت كيتى على يده الجافة المعروقة وطبعت عليها قبلة رقيقة شاكرة ! .

- ١٥ -

● عاد أليكسى إلى غرفته بالفندق فوجد في انتظاره برقية من «أنا» تقول فيها : «أنى أحتضر ! أرجو منك ، بل أترسل إليك أن تحضر ، كى أموت ميتة أسهل ، بعد صفحك !» .

وابتسم أليكسى في احتقار وهو يطوى البرقية ، وقال محدثاً نفسه : «إنها حيلة مفضوحة ، وأكذوبة لن تنطلى على ! .. ولكن ترى ما عرضها ؟ إن موعد وضعها طفلها قد اقترب ، فهل فاجأتها الساعة قبل أوانها ؟ وهل تبغى يجعلها هذه أن أعترف بأبوة المولود ، أم تراها تريد أن تساومنى كى أعدل عن الطلاق ؟ .. لكن هل هى تحتضر حقاً ؟ وهل جعلها شبح الموت تندم وتثوب ؟ لو أن ذلك كان صحيحاً ولم أستجب لدعوتها ، فإن هذا يعد غباء وقسوة منى !» .. ثم نادى خادمه «بيوترى» وقال له : «ادع لى عربية ، فأنى عائد توأ إلى بطرسبرج !» . لقد قرر أن يذهب ليرى زوجته ، فإن وجد الأمر خدعة عاد أدراجه من فورهِ ، وإن كانت مريضة وفى حالة خطرة حقاً ، وقد أرادت أن تراه قبل موتها ، صفح عنها . إن كانت ما تزال حية - أو شيع جنازتها فى موكب ملائم ، إذا وصل بعد فوات الأوان !

ولم يفكر طول الطريق فيما عساه أن يفعل بعد وصوله . وقد وصل به القطار إلى بطرسبرج وضباب البكور يغلف المدينة بغلالة تحجب معالم الأشياء ، ولا تدع غير أشباحها . وفيما كانت العربـة

تدرج به فى الطرقات المؤدية إلى داره ، لم يستطع منع نفسه من التفكير فى احتمال ألح على خاطره : «إن موتها يحل الموقف المعقد الذى بات يكتنف حياتهما !» .. وتناوبت أمام بصره أشباح الحوانيت المغلقة ، والمخابر ، والكناسين .. وخلال ذلك لم يكف عن التفكير فى الخطر الذى جرؤ - ولم يجرؤ ، فى الوقت عينه - على أن يتمناه ! . وفيما هو يجتاز مدخل البيت ، بعث عزمه الخائر من مرقده - فى أعماق ركن من رأسه - ونصبه أمامه مخلوقاً سوبياً ، ماثلاً للبيان ، ثم خاطبه قائلاً : «إن كان الأمر خدعة ، فاعتصم بالهدوء المنظوى على الاحتقار ، وارحل من حيث جئت . وإن كان الأمر حقيقة ، فافعل ما ينبغي فعله !» .

وفتح له الخارس الباب قبل أن يذق الجرس ، فسأله :

— كيف حال سيدتك ؟

— وضعت مولودها بالسلامة أمس !

فتوقف أليكسى كمن سمعت قدماه ، وشحب وجهه كالأموات ! لقد أدرك لم كان يمتنى موتها ! ، لكنه عاد فسأل الخادم : «وكيف حالها ؟» . فقال الخادم حزياً : «سيئة جداً يا سيدى ، وقد اجتمع الأطباء للتشاور فى أمرها أمس . ويوجد أحدهم عندها الآن !» .. وهنا شعر أليكسى بشيء من الارتياح لبقاء الأمل فى موتها ، ثم دلف إلى الردهة الداخلية . وحانت منه نظرة إلى المشجب فإذا عليه معطف عسكري .. فسأل الخادم : «من

هنا؟» ، فقال : « الطيب والقابلة .. والكونت فرونسكى ! » .
ولم يكن هو فى حاجة إلى أن يسمع هذا الجواب ، فضى
إلى مخدع زوجته . وفى الغرفة الخارجية الملحقة بالمخدع التى بالقابلة ،
فأخذت بذراعه وهمت له وهى تقوده نحو مخدع الوالدة : « حمداً
لله لكونك قد جئت . إنها تهذى باسمك بغير انقطاع ، ولا شيء
غير اسمك ! » . وسخا صوت الطيب ينادى من الداخل : « أسرعى
بالثلج فوراً ! » ، فضى أليكسى إلى مخدع زوجته .. وكان أول
من رآه قرب الباب غريمه « فرونسكى » ، جالساً على مقعد
منخفض وقد أخنى وجهه بين يديه وانخرط فى بكاء صامت ، فلما
سمع صوت الطيب نهض ليلبى طلبه ، وإذا فوجئ برؤية الزوج
عراه الاضطراب فغاص فى مقعده من جديد ودفن رأسه بين
كتفيه ، كأنما أراد أن يخفى عن ناظره .. ثم بذل مجهوداً حتى تمالك
نفسه فنهض وقال للزوج : « إنها تحتضر ، والأطباء يقولون : ليس
هناك أمل ! .. إني تحت رحمتك تماماً ، لكنى أرجو أن تدعى
هنا .. إني رهن تصرفك .. إني .. » .

وإذا رأى أليكسى دموع غريمه ، أحس بوادر تلك الفورة
العاطفية التى تنتابه لدى رؤية دموع الآخرين ومظاهر آلامهم ،
فأشاح بوجهه عن محدثه ومضى بدون أن يسمع بقية كلامه ، متجهاً
إلى فراش أنا ، وكانت هى فى تلك اللحظة تهمس بطلب شيء .
كانت راكدة على ظهرها وقد اتجهت بوجهها إلى جانبها ، وكانت

وجتاتها محتشتين بلون القرمز ، وعيناها تلمعان ، ويدها الصغيرتان
الشاحيتان تعبان بالخاف فتقبضان عليه وتقلضان ثم تنفجان ..
وقد أخذت تهمس بصوت خافت واضح ولهجة سريعة : « إني
أقصد أليكسى زوجى . إنه لن يرفض رجائى . ينبغي أن أنسى ،
إنه لا بد أن يصفح . ولكن لم يأت إنه طيب ، طيب إلى درجة
لا يعلمها هو ذاته ! .. آه يا إلهى ، أى عذاب هذا ؟ ! .. أعطونى
ماء ، أسرعوا ! أوه ، هذا سوف يضرها ، ابنتى الصغيرة ! ..
حسناً ، أعطوها إذن للمرضة . نعم ، أنا موافقة . هذا أفضل فى
الواقع . إنه سيأتى ، وسوف يؤله أن يراها .. أعطوها للمرضة ! » .

وقالت لها القابلة : « أنا .. لقد جاء ، هذا هو ! » .. فأجابها
وهى لا ترى زوجها : « هراء ! كلا ! أعطونى إياها ، أعطونى
صغيرتى .. إنه لم يأت بعد .. تقولون إنه لن يأتى ؟ إنكم لا تعرفونه .
لا أحد يعرفه غيرى ، وقد قاسيت طويلاً حتى عرفته على حقيقته .
إني أعرف عينه ، وقد ورث سريوشا عنهما نظراته ، لذلك
لا أطيق أن أراها . هل تناول سريوشا غذاءه ؟ أعلم أن الجميع
سوف ينسونه ، لكنه هو لن ينساه . يجب أن يتقل سريوشا إلى
الغرفة التى فى الزاوية ، وقولوا لـ « مارييت » أن تنام معه ! ..
وهنا وقعت عينها على أليكسى ، فأجفلت وارتدت فى فراشها
مذعورة .. ثم رفعت يديها إلى وجهها فى فرح كأنما لتدبراً عن
نفسها ضربة قاضية ! وأخيراً هتفت قائلة « لا ، لا .. لست خائفة

منه ، إلى خائفة من الموت . أليكسى ، تعال هنا ، إلى متعجلة ، لا وقت عندي أضيعة . لم يبق أمامي غير وقت قصير أحياء . سبتدا الحى حالا ولن أعود أفهم شيئا . لكنى الآن فى وعي ، أفهم كل شيء وأرى كل شيء ! » .

واكتسى وجه أليكسى المفضل بطابع التزع ، فتناول يدها وحاول أن يقول شيئا ، لكنه عجز عن أن ينطق به ، فاختلجت شفته السفلى ، وظل يصارع عاطفته - وهو ينظر إليها بين لحظة وأخرى - فيرى فى كل مرة عينها تحديقان فيه فى لطف ورقة بالغين لم يكن له عهد بهما من قبل : وما لبث أن خاطبته ، فى صوت متقطع ، قائلة : « انتظر لحظة . أنت لا تعرف . أمكث قليلا ، أمكث .. نعم ، نعم ، نعم . هذا ما أردت أن أقوله ، ولا تدهش له . إلى ما زلت كما كنت ، لكن هناك امرأة أخرى فى داخلي ، وأنا خائفة منها ، إنها أحببت ذلك الرجل ، وأنا حاولت أن أكرهك ، لكنى عجزت عن نسيانها .. إلى لست تلك المرأة .. أنا الآن على حقيقى . إلى الآن أحضر ، أعلم أنى ساموت . اسأله .. إلى أشعر .. انظر هنا ، ها هى الأثقال على قدمي ، على يدي ، على أصابعي . انظر كم هى ضخمة أصابعي ! .. لكن هذا كله لن يلبث أن ينقضى . شيء واحد أريده : اغفر لى ، اغفر لى تماما .. إلى مخطئة ، لكن الممرضة تقول لى .. الشهبدة المقدسة ، ماذا كان اسمها ؟ كانت أسوأ مني ، وأنا سأذهب إلى روما . هناك توجد



وقعت عليها على أليكسى ، فأجفلت وارتدت
فى فراشها مذعورة ..

أحراش ، وهناك لن أضيّق أحداً .. فقط سأخذ سريوشا والصغيرة
معى .. كلا ، إنك لا تستطيع أن تغفر لى ! أنا أعلم ، إنه شيء
لا يغفر ! .. كلا ، كلا ، اذهب بعيداً ، إليك غنى .. أنت
طيب أكثر مما ينبغي ! »

وأسكت بيده فى إحدى يديها الملتهتين من الحمى ، بينما
راحت تدفعه عنها باليد الأخرى ! .. وكان انفعال أليكسى العصبى
أخذاً فى الازدياد ، حتى بلغ درجة عجز معها عن مقاومته ، ثم
أحسن أن انفعاله تحول إلى سكونة مباركة منحته فجأة سعادة لم يكن
له عهد بها طيلة حياته ! .. لم يعد يشعر بأن أحكام الدين هى التى
تطالبه بأن يصفح عن أعدائه ويحبهم ، بل أحس أن الصفع والحب
يملاّن قلبه دون أن يفرضهما عليه عامل خارجى .. فجثا على ركبتيه
وأمسك يده « أنا » ، وألصق جبينه بذراعها المتقدة بحرارة الحمى ..
ثم راح ينشج باكياً ، كطفل صغير ! وأحاطت هى رأسه
بذراعها ، ثم زحفت بجسمها نحوه ورفعت عينها فى كبرياء وتحد ،
وقالت : « هذا هو . إنى أعرفه . والآن فلتصفحوا عني جميعكم ،
واحداً واحداً ، وأنت ، تذكر شيئاً واحداً : هو أنى لا أريد غير
الصفح ، ولا شيء غيره . لم لا يأتى هو ؟ » .. وأدارت عينها
نحو الباب ، نحو فرونسكى ، ثم أضافت : « تعال ، تعال . أعطه
يدك ! .. وأقبل فرونسكى إلى جوار الفراش ، فلما التقى بصره
بأنأ أخنى وجهه بين يديه ، فهتفت به : « اكشف وجهك ، انظر

إليه . إنه ملاك . أوه ، اكشف وجهك ، اكشف وجهك . أواه
يا أليكسى ، اكشف وجهه ! أريد أن أراه ! .. فأخذ أليكسى
يدى فرونسكى فى يديه وأبعدهما عن وجهه ، الذى كانت ترسم
عليه أبشع تعبيرات الذعر والعار ، وإذ ذاك ناشدت « أنا » زوجها
قائلة : « أعطه يدك . اصفح عنه ! .. قد أليكسى إليه يديه ،
دون أن يحاول قمع الدموع التى هطلت من عينيه ، واستطردت
هى تقول : « حمداً لله .. حمداً لله ! .. الآن صار كل شيء معداً .
لم يبق غير أن أمد ساقى قليلاً . هكذا ، هذا أفضل . ما أسوأ رسم
هذه الزهور ، إنها لا تشبه البنفسج فى شيء . يا إلهى ، يا إلهى ،
مى سينهى كل شيء ؟ أعطنى حقنة « مورفين » يا دكتور . أعطنى
حقنة مورفين . أوه ، يا إلهى .. يا إلهى ! .. ومضت تتأوه
وتتقلب فى الفراش . إنها حى النفس ، فيما قال الأطباء ، وهى
تنتهى بالموت فى تسع وتسعين حالة من كل مائة ! .. واستمرت
الحمى ، والهلذان ، والغيبوبة ، تتناوب على المريضة طيلة اليوم .
وفى منتصف الليل فقدت المريضة وعيها تماماً ، وضعف نبضها
حتى كاد لا يسمع .. وبدأت النهاية متوقعة !

وانصرف فرونسكى إلى بيته .. وفى الصباح عاد ليستفسر عن
الحالة ، فقال له أليكسى : « يحسن أن تبقى ، فقد تسأل عنك » ..
ثم قاده بنفسه إلى حجرة الزينة المملحة بالمخدع !
وفى اليوم الثالث تكرر الهلذان ، وفقدان الوعي ، وقال الأطباء

إن هناك بصيصاً من الأمل ! .. وفي ذلك اليوم توجه أليكسى إلى حجرة الزينة حيث جلس فرونسكى ، ثم أغلق الباب وجلس في مواجهته .. فابتدره هذا وقد توقع أن يفتحه الزوج في حل للموقف : « أليكسى ، أنا عاجز عن الكلام ، عاجز عن الفهم ، فجنبنى كل ذلك الآن . ومهما يكن الأمر قاسياً عليك فصديقى إنه أكثر فظاعة بالنسبة لى ! » .. وهم بالتهوض ، لكن أليكسى جذبته من يده وقال له « أتوسل إليك أن تصغى إلى ، فهذا ضرورى . يجب أن أوضح مشاعرى ، المشاعر التى أملت على تصرفائى وسوف تلمحها على ، كيلا تقع فى خطأ يتصل فى . أنت تعلم أننى اعتزمت الطلاق ، بل شرعت فى اتخاذ إجراءاته ، ولا أخفى عليك أنى حين بدأت السير فى هذا السبيل كنت فريسة لشك وشقاء مروعين ، تحلوفى الرغبة فى الانتقام لنفسى ، منك ومنها . وحين تلقيت برقيتها جئت إلى هنا تملكى هذه المشاعر نفسها ، بل أعترف بأنى كنت أتمنى موتها ! » .

وتردد برهة ، حائراً بين الإفضاء بحيلة مشاعره أو كتابتها ، ثم استطرد فقال : « لكنى رأيتها ، وصفحت عنها ! .. وأرشدتني سعادتى بالغفران إلى واجبى الذى ينبغى أن أؤديه . إنى أغفر غفراناً كاملاً ، بل إنى على استعداد لأن أدير خدى الآخر لمن صفعتنى ! وكل ما أصلى إلى الله من أجله هو ألا يترع منى بركة الغفران ! » ..

وتحجرت الدموع فى عينيه ، وأثرت نظراته البراقة الصافية فى نفس فرونسكى ، بينما استطرد هو فقال : « هذا هو موقى . وفى

استطاعتك أن تمرغنى فى الوحل ، وتجعلنى أضحوكة العالم بأسره ، لكنى لن أنبذها ، ولن أتوجه إليك يوماً بكلمة لوم ! إن واجبى واضح أمامى كالشمس ، ينبغى أن أبقي بجانبها ، وسأبقى .. فإذا أرادت أن تراك فسوف أخبرك برغبتها . أما الآن فأعتقد أنه يحسن بك أن تذهب بعيداً ! » ..

ونفض ، وقد قطعت غصته الكلمات فى حلقه ، ونفض فرونسكى فى أثره ، عاجزاً عن فهم مشاعر أليكسى ، وإن أحس أنها أرفع وأسمى من أن يستطيع التحليق إلى سماها .. ثم هبط سلم الدار ووقف عند مدخلها : لم يذكر إلا بصعوبة أين هو ؟ وإلى أين ينبغى أن يعضى ؟ .. أحس نفسه ذليلاً تماماً ، مجحلاً بالخزى والعار ، محروماً من كل أمل أو فرصة فى أن يستطيع غسل مذنبته ! .. بل أحس أن الأوضاع قد انقلبت . أحس ضيقه وزيفه هو ، وهو غريمه وصدقه ! .. وبدا أليكسى فى نظره رائعاً عظيماً ، حتى فى أساه ومحنه ، بقدر ما بدا هو ضيقاً حقيراً ، فى خداعه ! .. على أن هذا الإحساس بمذنبته أمام الرجل الذى كان هو يحتقره ظملاً ، من غير حق ، لم يكن غير عامل ضئيل من عوامل شقائه الحاضر . فهو الآن يحس أنه تمس ! إن عاطفته نحو أنا ، عادت أقوى منها فى أى يوم مضى ! - وكان قد ظن أنها بدأت نفتر ويعتريها البرود - لقد أدرك أنه فقد « أنا » إلى الأبد . فقد بدأ بعد أن رأى منها - فى مرضها - روحها ونفسها ، فبدا له أنه لم يجيبها حقاً قبل ذلك !

والآن وقد عرفها كما ينبغي أن تعرف ، وأحبها كما يليق أن تحب ،
ها هو يهان ويذل أمامها ، بل ها هو يفقدها إلى غير رجعة ، غير
تارك معها من نفسه إلا ذكرى مخزية ؟ !

وأفاق من خواطره الموحجة على صوت الحارس يسأله :
« أريد زحافة ياسيدي ؟ » ، فغمغم قائلاً : « نعم ، أريد زحافة ! » .
وحين بلغ بيته ، بعد ليال ثلاث لم يذق فيها النوم ، تمدد بملايه
فوق « كنبه » عريضة ، ووسد رأسه راحتيه ! لكم ثقل رأسه
الصور ، والذكريات ، والأفكار التي تتتابع على وعيه في حدة
وسرعة خارقتين ! .. وحين أوشك في لحظة من اللحظات أن يغيب
في إغفاءة مريحة شبيهة ، تنبه فجأة على فحيح خفيف يهمس في سمعه
ووعيه : « .. وفي استطاعتك ، أن تمرغني في الوحل ! » ..
وتمثل له أليكسي واقفاً أمامه ، و « أنا » بوجنتيها المصرجتين ،
وعينيها الزائغتين الملتبثتين ، ترمان زوجها بالحلب والرق والوله ! ..
ثم تمثل أليكسي وهو يمد يديه إلى راحتيه فيبعدهما عن وجهه ،
ليكشفه لآنا كما طلبت ! .. وتقلب على فراشه كمن يتقلب على
سمير . وهكذا أدرك أن لا أمل له البتة في أن يظفر في ليلته هذه
بنعاس ، أو نسيان ، فقفز جالساً على حافة الأريكة وهو يغمغم في
عصية : « ما هذا ؟ هل أوشك أن أفقد عقلي ؟ ربما ! ما الذي
يفقد الناس عقولهم ؟ ما الذي يغري الناس بإطلاق الرصاص على
أنفسهم ؟ هكذا ينتحر الإنسان ، كى ينجو بنفسه من المذلة ! » .

ومضى إلى الباب فأغلقه ، ثم مضى إلى منضدة فأخرج من
درجها مسدساً ، وتلفت حوله .. ثم استغرق في التفكير ، في
ذكريات سعادته التي فقدتها إلى الأبد ! .. وجعلت أفكاره تدور
وتدور حول تلك الدائرة من الذكريات والصور ، قد يده
بالمسدس إلى الناحية اليسرى من صدره ، وشدد قبضته عليه .. ثم
جذب الزناد !

ولم يسمع صوت الطلقة ، لكن ضربة عنيفة على صدره ألقت
على الأرض . وحاول أن يتشبث بحافة المنضدة ، تاركاً المسدس
يسقط من يده ، لكنه هوى برغم ذلك إلى أسفل ، فلم يحس بنفسه
إلا وهو جالس القرفصاء على أرض الغرفة ينظر إلى ما حوله في
دهشة . وتنبه من ذهوله على صوت خطوات خادمه يقبل مهرولاً ،
فبدل محاولة لكي يستيقظ من دواره . وإذ رأى الدم على السجادة
وعلى ذراعه ، أدرك أنه قد أطلق النار على نفسه ! .. وبرغم أن
المسدس كان إلى جواره فقد بقيت يده تبحث عنه فيما حوله ،
دون جدوى . ثم تجامل على نفسه وحاول أن يستند إلى جذعه كى
يوصل البحث ، لكنه فقد توازنه فسقط بعنف يتخبط في دمه !
وذعر الخادم إذ رأى سيده على هذه الصورة ، غارقاً في بركة
من النماء ! فهرع إلى الخارج ينشد إسعافاً ، تاركاً الجريح يتزف
دمه بدون توقف . ولم تمض ساعة حتى كان الخادم قد عاد ومعه
« فاريا » زوجة أخى سيده ، ثم وصل ثلاثة من الأطباء دعهم

«فأرأى» لإسعافه في وقت واحد ، فحمل الجريح إلى فراشه حيث بقيت زوجة أخيه ساهرة عليه تمرضه وتعني به !

- ١٦ -

● لم يكن أليكسى قد عرف قلبه على حقيقته ، حتى كان ذلك اللقاء الفاجع بينه وبين زوجته وهي على فراش الموت ، حيث ترك العنان - لأول مرة في حياته - لذلك الشعور بالإشفاق على المتألمين ، الذى كان قبل ذلك يعده ضعفاً مخزياً ، غير خلاق بالرجال ! .. فلما انتابته تلك الشفقة على زوجته ، والندم على كونه قد تمخى موتها ، والفرحة الغامرة بالغفران لها والصفح عن إثمها ، شعر من فوره بالخلاص من آلامه الخاصة ، وبسلام نفسى وسكينة روحية لم ينعم بهما قط من قبل ! .. شعر بأن الشيء الذى كان مبعث ألمه وعذابه قد بات مبعث نشوته الروحية .. وأن ما كان يبدو له غير قابل للحل - وهو في نوبة لومه وبغضه وتفكيره في الانتقام - قد أمسى بسيطاً واضحاً محلولاً من تلقاء ذاته ، حين صفح وأحب ! .. لكنه بمضى الزمن ازداد إدراكاً وشعوراً بأنه مهما يبدو الموقف الآن في نظره طبعياً ، فإن الظروف لن تسمح له بالبقاء على ذلك طويلاً ! شعر أن هناك ، بجانب القوة الروحية المباركة التى تسيطر على نفسه ، قوة أخرى وحشية تضارعها بل تزيد عليها سطوة ، هى التى تسيطر على حياته .. وأن هذه القوة الأخيرة لن تسمح له بأن ينعم طويلاً بذلك السلام المتواضع الذى



وحاول أن يتشبث بحافة المضطدة ، تاركاً المسدس يسقط من يده ، لكنه هوى ..

تاق إليه ، وأحس أن كل شخص ينظر إليه في عجب وتساؤل ، وأن موقفه صار في نظر الناس غير مفهوم ، وأن المجتمع ينظر منه شيئاً ما ! وفوق هذا كله ، أحس بمدى الزيف وعدم الاستقرار اللذين يلاسان صلاته بزوجته ! .. كان قد بدأ يلحظ - على أثر زوال خطر الموت عن زوجته - إنها تخافه ، ولا يبدو عليها الارتياح لوجوده ، فهي تتجنب مواجهته بنظراتها ، أو مواجهة نظراته ، وهي تظهر بمظهر من تريد أن تنفي إليه بشيء ، لكنها لا تجرؤ أن تفعل ! .. بل إنها تبدو كما لو كانت تتوقع منه شيئاً ، وترى في لوحة الغيب أن علاقتهما الحالية لا يمكن أن تستمر !

وقرب نهاية شهر فبراير حدث أن مرضت طفلة أنا - التي أطلقت عليها بدورها اسم « أنا » ! - فلما علم أليكسي بذلك في الصباح ، قبل خروجه إلى عمله ، أوصى باستدعاء الطبيب . وحين عاد من مكتبه ، نحو الساعة الرابعة بعد الظهر ، رأى في ردهة البيت خادماً في ثياب موشاة بالقصب يحمل معطفاً ثميناً من الفراء الأبيض ، فسأله : « من هنا ؟ » ، فأجاب الخادم : « الأميرة إليزابيتا فيدوروفنا تفرسكوى » - وكان ذلك هو الاسم الرسمي للأميرة « بتسي » ، صديقة أنا - فضابق أليكسي أن تنشفل أنا باستقبال صديقتها عن استدعاء الطبيب لفحص طفلتها المريضة ، ومن ثم توجه من فوره إلى غرفة المائدة ودق الجرس طالباً استدعاء الطبيب فوراً . ولم يأنس من نفسه ميلاً إلى رؤية أنا أو رؤية صديقتها

بتسي ، لكنه خشي أن تفسر زوجته مسلكه تفسيراً مبالغاً فيه ، ففضى إلى غرقها راعماً . وحين اقترب من الباب - المفتوح - لم يملك نفسه من أن يسمع حديثاً لم يقصد أن يسمعه . كانت بتسي تقول لزوجته :

- لو لم يذهب بعيداً ، على أثر مرضك ، لاستطعت أن أفهم حكمة لجوابك ، وجوابه أيضاً . لكن زوجك ينبغي أن يسمو بنفسه عن هذا !

- ليس زوجي هو الذي لا يريد ذلك ، بل أنا التي لست أريده .. فلا تقولي هذا !

- لكنك ينبغي أن تهتمى بتوديع رجل أطلق النار على نفسه من أجلك !

- بل إن هذا هو نفسه ما يعملي أحجم عن رؤيته !
ووقف أليكسي مأخوذاً ، وود الرجوع من حيث أتى ، لولا أنه رأى في ذلك ما لا يشرفه ، فتكلف السعال وواصل سيره إلى داخل الحجرة ، حيث كانت « أنا » جالسة على مقعد مريح ، فلم تكذب تراه حتى انطفأ كل تعبير في وجهها ، كما دتها كلها رآته ، ونظرت إلى بتسي في شيء من عدم الارتياح . أما هذه فكانت جالسة إلى جوارها وقد ارتدت أفخر أزياء الموسم ، فلما رأت أليكسي حيته بابتسامة ساخرة وهي تحنى رأسها ، ثم قالت متكلفة الدهشة : « آه ، لكم يسر في أنك جئت ، فإنك لم تعد تظهر في أي

مجتمع . منذ متى لم أرك ؟ منذ مرض «أنا» ! وقد سمعت بما عانيت
من قلق على حياتها . حقاً إنك لزوج مثالي ! » .

فانحنى أليكسى لتحيتها في برود ، ثم قبل يد زوجته وسأل
عن حالها ، فأجابت وهي تتجنب نظراته : « اعتقد أني أحسن
حالا ! » .

— لكن لولئك يبدو كلون المحمومة ؟

فتدخلت بتسى في الحديث قائلة : « الواقع أننا نثرنا كثيراً ،
وربما تعبت هي من الكلام . إنها أنانية من جانبي ، ويحسن أن
أنصرف الآن ! » .. ونهضت ، فاحمر وجه «أنا» فجأة وتشبث
بيدها قائلة في إلحاح : « كلا ! بل أتوسل إليك أن تبقى قليلا . أن
لدى ما أريد أن أقوله لك . كلا ! بل لك أنت يا أليكسى ، فأني
ما عدت أبغى — ولا أستطيع — أن أكتفم عنك شيئاً ! كانت بتسى
تقول لي إن الكونت فرونسكى يريد الحضور ليودعنا قبل رحيله
إلى (طشقند) ، فقلت لها إنى لا أستطيع استقباله ! » .

فتدخلت الأميرة مصححة قولها : « بل قلت يا عزيزتى إن
الأمر يتوقف على أليكسى ! » .. فقالت أنا : « أوه ، كلا !
لا أستطيع استقباله . وأى موضوع يمكن أن ؟ .. بالاختصار لست
أريد مقابلته ! » .. وهنا تقدم أليكسى ليتناول يدها ، فكادت
تجفل وتترجم ، لولا أن بذل مجهوداً ، فتركت يدها له . وأردف
هو قائلاً : « أنا شاكر لك ثقتك ، ولكن .. » ، وتوقف في شيء

من الارتباك والضيق ، حائراً بين كتمان مشاعره الحقيقية المنطوية
على الحب والغفران ، وبين المواجهة بها أمام الأميرة ، التي تمثل
حلقة الاتصال بينه وبين المجتمع !

وتداركت الأميرة الموقف ، فقالت وهي تنهض فتقبل «أنا»
في وجنتها : « حسناً ، إلى اللقاء يا عزيزتى ! » . وحين صحبها
أليكسى إلى الباب ، توقفت وقالت له وهي تشد على يده مرة
أخرى في حرارة : « أليكسى .. إنك حقاً رجل نبيل ، وأنا امرأة
محايدة ، لكني أحبها وأحترمك إلى الحد الذى يحطنى أجرو فأتوجه
إليك بالنصح : استقبله في بيتك . إن فرونسكى نموذج للشرف ،
ثم إنه راحل إلى طشقند .. » .

فأجابها أليكسى وهو يرفع حاجبيه اعتداداً بكرامته ، بحكم
العادة ، وإن لم ينطو موقفه في الأشهر الأخيرة على شيء من الكرامة :
« أشكرك يا سيدتى على عطفك ونصحتك ، أما رغبة زوجتى في
استقبال أى إنسان أو عدم استقباله فهذا أمر متروك لها وحدها ! »
ثم ودع بتسى عند الباب وعاد إلى زوجته ، ففاجأها وهي تحنى أثر
دموع في عينيها ، لكنه تجاهل ذلك قائلاً لها : « أكرر شكرى لك
من أجل ثقتك بي ، كما أشكرك على قرارك ، فأنا بدورى أرى أنه
ما دام الكونت فرونسكى يعتزم الرحيل فليس ثمة ضرورة لحضوره ..
وعلى أية حال فإذا .. » . فقاطعت «أنا» في انفعال لم تقو على قعه :
« لكنى قلت ذلك فعلاً ، فما معنى تكراره ؟ » ، وشردت برهة

تحدث نفسها في سخرية : « ليس ثمة ضرورة لأن يأتي رجل كى
يودع المرأة التي يحبها ، والتي دمر حياته من أجلها ! المرأة التي
لا تقوى على الحياة بعيداً عنه . ليس ثمة ضرورة البتة ! » ثم
ضغطت شفتيها وخفضت عينيها المحترقتين إلى يدي زوجها ،
بغروقهما النافرة ، وكان يفركهما في عصبية .. وأضافت وقد
استردت هدوءها : « فلتكف عن التحدث في هذا الموضوع الآن ! »
- لقد تركت الأمر لتقديرك ، ويسرنى أن أرى ..

- إن رغبتى تتفق مع رغبتك ؟ !

- نعم .. وإن تدخل الأميرة في دقائق هذه المسائل العائلية
الشائكة هو أمر غير مرغوب فيه ، ولا سيما أنها هي بالذات ..
- لست أصدق حرفاً من كل ما يقال عنها ، وأنا أعلم أنها
تجبن حقاً !

فتنهت أليكسى ولم يجب ، بينما بدا في حركات « أنا » وهي
تعبت بطرف قبصها أنها تنوق إلى الخلاص من وجوده الذي يثقل
على صدرها .. فقال لها ، مغيراً موضوع الحديث : « لقد أرسلت
في طلب الطبيب ، فإن الصغيرة ليست على ما يرام ، ويبدو أن
المرضعة ليس لديها اللبن الكافي لإرضاعها .. »

- لم لا تدعوني أضعها ؟ لقد طلبت ذلك فحلتم بيني وبينها ..
والآن ألام على ذلك !

- لست ألوئك ..

- بل إنك تلومنى ! يا إلهى ، لماذا لم أمت ؟
وأجهشت بالبكاء ، ثم تماكنت نفسها وقالت : « اغفر لى أن
أعصابى مضطربة . إنى أتجنى عليك ، ولكن بريك اذهب الآن ! »
.. فغادر الغرفة محدثاً نفسه : « كلا ، لا يمكن أن يستمر الأمر على
هذا المتوال ! » : إنه لم يلمس من قبل بعض ما يلمسه اليوم من
حرج موقفه في أعين المجتمع ، وكرهية زوجته له ! .. وإنه ليرى
بوضوح أن الناس جميعاً ، وزوجته ، ينتظرون منه شيئاً ما .. أما
ما هو هذا الشيء ، فهذا ما يعجز عن فهمه !

...

● لم تكذ الأميرة بتسى تبلغ الباب الخارجى حتى لقيها عنده
سنية. إن أولبولونسكى ، وكان قادماً لزبارة شقيقته ، فوقفا برهة
يتحدثان في أمرها . وقالت بتسى : « إنه يقتلها . هذا مستحيل ،
مستحيل ! »

- يسرنى أنك ترين مثل ما أرى . وهذا ما جعلنى أحضر إلى
بطرسبرج لأراها !

- إن المدينة بأسرها تتحدث بهذا الأمر . موقف « مستحيل » !
.. إنها تذبل رويداً رويداً كل يوم ، وهو لا يستطيع أن يفهم أنها
امرأة حاسة لا تستطيع تجاهل مشاعرها .. واحد من أمرين :
إما أن يدعه يأخذها بعيداً ، ويتصرف في حزم ونشاط ، وإما أن
يمنحها الطلاق .. أما هذا الوضع فلن يؤدى إلا إلى قتلها !

— نعم ، نعم ، هذا صحيح .. وهذا ما جئت من أجله !

— حسناً ، فليوفقك الله !

ثم مضت الأميرة إلى الخارج ، بينما مضى ستيفان إلى مخدع شقيقته ، فوجد لها غارقة في دموعها ! وأثر فيه حزنها فألها مطلقاً عن حالها ، وكيف قضت يومها ، فقالت له : « على أسوأ حال من اليأس .. اليوم وجميع الأيام الماضية ، والأيام المقبلة ! » .. فقال : « أعتقد أنك تستسلمين للتشاؤم . يجب أن تقاومي ، وتعتشى نفسك وتواجهي الحياة .. أعلم أن هذا عسير ولكن .. » .

— يقولون إن النساء يحبن في الرجال حتى رذائلهم .. وأنا أكره فيه فضائله ! لست أطيق العيش معه . أتفهمني ؟ إن رؤيته وحدها تحدث في نفوسنا . لا أستطيع أن أعيش معه ! لكن ماذا أفعل ؟ لقد كنت شقية ، وكنت أعتقد أن الإنسان لا يمكن أن يكون أكثر شقاء مما كنت ، لكن الحالة الفظيعة التي أجتازها الآن تفوق كل ما تصورت ! أتصدق أني أكرهه برغم علمي بأنه رجل طيب ، بل رجل رائع ، وأنني لا أساوي أصعباً من أصابعه ؟ .. لأنني أكرهه بسبب كرمه ، ولا أرى أمياً سيلاً غير ..

وكادت تقول : « الموت » .. لولا أن قطع شقيقها كلامها قائلاً : « إنك مريضة مرهقة الأعصاب . وأنت تغالين مغالاة شنيعة في أمر هو أهون كثير أمامطين ! » ثم ابتسم ستيفان ، ولو فعلها شخص غيره لعد ابتسامه في موقف كهذا قسوة جارحة ، لكن

ابتسامه ستيفان كانت من العذوبة والنعومة بحيث تداوى ولا تخرج ، وكأنها بلسم لطيف الوقع . وسرعان ما أحست « أنا » بهذا الشعور عينه ، فقالت وقد خفت حدة انفعالها : « كلا يا ستيفان .. إنني ضائعة ، ضائعة ، بل أسوأ من ضائعة ! .. إنني مثل وتر مشدود يوشك أن ينقطع . وسوف تكون نهايته مخيفة ! »

— فلنحاول أن نرخي شيئاً فشيئاً .. فليس ثمة مأزق لا مهرب منه !

— لقد فكرت وفكرت طويلاً في مخرج ، فلم أجد غير حل واحد هو ..

ومرة أخرى أدرك من عينها المذعورتين أن المخرج الذي نعتبه هو الموت ، فحال بينها وبين أن تفصح عنه ، بأن قطع كلامها بقوله : « هذا هراء ! لاصفي إلى : إنك لا تستطيعين أن ترى موقفك مثلما أراه أنا ، فدعيني أصارحك برأيي .. » . وابتسم مرة ابتسامته الشبية بلبس ملطف . ثم أردف : « دعيني أبداً من حيث بدأت المشكلة . لقد تزوجت من رجل يكبرك بعشرين عاماً . تزوجته عن غير حب ، بدون أن تعرفي ما هو الحب وكيف يكون ! .. وكانت هذه غلطة . فلنعترف بالأمر الواقع .. » .

— بل غلطة فظيعة !

— دعيني أتم كلامي : ثم حدث أنك — لسوء الحظ — أصبت بحب رجل آخر غير زوجك ، وعلم الأخير بالأمر وصفح عنك .

والسؤال الذى يواجهنا الآن هو : هل فى مقدورك مواصلة العيش مع زوجك ؟ وهل تريد ذلك ؟ وهل يريد هو ؟

— لست أدرى .. لست أدرى !

— لكنك قلت بلسانك : إنك عاجزة عن احتمال ذلك !

— كلا ، لم أقل هذا . أنا أنكر ذلك .. ولست أستطيع أن

أقرر شيئاً . لست أدرى شيئاً فى هذا الشأن !

— ولكن دعينا ..

— إنك لا تفهمين ؟ أحس كأتى راقدة فى هاوية ، لست

أقوى على الخلاص منها !

— لا بأس ، فى وسعنا أن نلقى إليك فى القاع بشئ تشبهين

به ، ثم تجذبك إلى السطح . إنى أفهمك تماماً . أفهم أنك لا تجرؤين

على تحمل مسؤولية الإفصاح عن رغباتك ومشاعرك !

— لست أريد شيئاً ، لست أريد شيئاً غير أن أستريح من

كل هذا !

— لكنه يرى هذا ويعرفه ، ولا تحسب أن الأمر لا يثقل عليه

مثلاً يثقل عليك . كلا كما تعلم .. لكن ما النتيجة ؟ .. ليس هناك

غير الطلاق حلاً يكفل حل هذه المشكلة المستعصية !

وهكذا أفصح ستيفان عن رأيه فى الموضوع ، ثم نظر إليها

نظرة ترقب ذات معنى .. لكنها لم تجب ، فاستطرد قائلاً : « لكم

أنا مشفق عليك ! ولكم يسعدنى لو استطعت أن أجعل لك مخرجاً من

مازفك . كلا ! لا تنطق بكلمة ، فإله يشهد أنى أنكم بوحى من

شعورى الصادق .. إنى ذاهب لأقابله !

ونظرت « أنا » إليه بعينين حالمتين مشرقيتين ، ولم تقل شيئاً !

• • •

● ومضى ستيفان إلى غرفة أليكسى وقد ارتسم على وجهه

التعبير الصارم الذى يتخذه حين يجلس إلى مقعد الرئاسة فى عمله ،

وكان أليكسى يذرع الغرفة ذاهباً آيماً وقد عقد يديه خلف ظهره

واستغرق فى التفكير . كان يفكر فى الموضوع نفسه الذى كان

ستيفان يتحدث فيه إلى « أنا » ! وإذا رأى ستيفان على عيانه غلام

الضيق « المؤدب » بلقائه ، ابتدره قائلاً : « أرجو ألا أكون قد

أزعجتك ؟ »

— كلا .. هل تريد شيئاً ؟

— نعم ، أردت .. أردت .. نعم ، أردت أن أتحدث إليك ..

وأرجو أن تثق مقدماً فى جبهى لشقيقى ، وإعجابى المخلص

— واحترامى — لك !

وقف أليكسى بلا حراك ، ولم يجب بحرف ، بينما تابع ستيفان

كلامه قائلاً : « لقد صح عرسى على أن أتحدث إليك فى شأن أختى

وموقفكما المتبادل .. فابتسم أليكسى فى أسى ، ودون أن يعلق

بكلمة مضى إلى المنضدة فتناول من فوقها خطاباً ناقصاً ، قدمه إلى

ستيفان وهو يقول : « إنى أفكر بلا انقطاع فى الأمر ذاته . وهاك

ما بدأت أكتبه إليها ، تحت تأثير اقتناعي بأنني أستطيع التغيير عنه بالكتابة أكثر من الإنسان ، ما دام وجودي يثيرها ! »

تناول ستيفان الخطاب ، وقرأ فيه : « أرى أن وجودي بات يضايقك ويزعجك . وبرغم ما ينطوي عليه هذا من إيلاام لي ، فإنه الأمر الواقع ، الذي لا مراء فيه ، وأنا لست ألوملك . بل يشهد الله أنني حين رأيته أثناء مرضك قرزت مخلصاً أن أنسى كل ما كان بيننا كي نبدأ معاً حياة جديدة ! .. وما أنا بنادم - ولا سأندم - على ما فعلت ، لكنني أردت به شيئاً واحداً : هو خيرك . خير روحك ونفسك ! والآن يبدو لي بوضوح أنني لم أصل إلى تبغيتي ! .. فصارحيني أنت بما عساه أن يمنحك السعادة الحقّة وسكينة النفس . وإلى أضغ نفسي رهن مشيتك تماماً ، وأعتقد أنني أستطيع أن أركن إلى حسن تقديرك لما هو صواب .. »

وإذ فرغ ستيفان من قراءة الخطاب أعاده إلى أليكسي ، وهو لا يدرى ماذا يقول . ثم سادت فترة صمت ثقيلة ، قطعها أليكسي بقوله : « هذا ما أردت أن أقوله لها ! » ثم أشاح بوجهه . فأجابه ستيفان بصوت مختلج : « نعم ، نعم .. » ، وحنقته عبراته فلم يكمل عبارته . وحين تمالك نفسه استطرد فقال : « نعم ، إلى أفهمك » . فقاطعه أليكسي قائلاً : « بودي لو أعرف ماذا تبغي هي ؟ ! »

— أخشى أن تكون هي نفسها عاجزة عن فهم موقفها . إنها لا تصلح حكماً في الموضوع ، فقد سمحها كرمك . ولو أنها قرأت

هذا الخطاب لما استطاعت أن تقول ، أو تفعل ، شيئاً .. سوى أن تنكس رأسها أكثر مما تنكسه أمامك !

— وما العمل إذن ؟ كيف أعرف رغباتها الحقيقية ؟
— إذا سمحت لي بإبداء رأيي ، فأنا أعتقد أن عليك أنت أن توضح فوراً الخطوات التي تراها ضرورية لإنهاء الموقف !
— إذن فأنت ترى أن الموقف ينبغي أن ينهى ؟ ولكن كيف ؟
لست أرى مخرجاً ممكناً !

— هناك مخرج من كل مأزق . لقد فكرت ذات يوم في أن تطلب الطلاق ، فإذا كنت مقتنعاً الآن بأن ليس في وسعكما أن تعيشا معاً سعيدين ..

— السعادة مسألة نسبية ، يختلف فهم الناس لها . ولكن افترض معي أنني سأوافق على أي حل ، ولا أبغى شيئاً خاصاً .. فما هو المخرج الذي تراه ؟

— رأيي الشخصي أنها لن تصرح برغبتها الحقيقية ، لكنها قد تكون راغبة في وقف علاقتكما المشتركة وذكرياتكما المتصلة بها . والمهم في موقف كهذا — في نظري — هو اتخاذ مسلك جديد لكل منكما نحو الآخر .. وهذا لا يمكن أن يستمر إلا على أساس من حرية الطرفين ..

فقاطعه أليكسي مجئلاً : « أنت تعني الطلاق إذن ؟ »
— نعم . تخيل إلى أن الطلاق هو أسلم مخرج ممكن في مثل

موقفكما ، وإلا فأى مخرج سواه يستطيع أن يلجأ إليه زوجان يجدان حياتهما معاً مستحيلة ؟ .. إنه أمر شائع الحدوث .

وتهد أليكسى ، وأعض عينه .. بينما أردف ستيفان : « وإذا لم يكن أحد الطرفين راغباً في إنشاء علاقة جديدة مع ثالث ، فالأمر يقود غاية في البساطة » .. وبقى أليكسى صامئاً ، مفكراً : إن هذا الذى يعتبره ستيفان غاية في البساطة قد جال بخاطره ألف مرة ، وقتله بحثاً ، فوجده مستحيلاً ! إن شعوره بكرامته ، واحترامه للدين وأحكامه ، يمنعانه من أن ياصق بنفسه تهمة « الزنا » كذباً وافتعالا ، وبالأحرى يمنعانه من إلصاقها بزوجته - التى صفع عنها وأحبها - وتعريضها لأن تضبط متلبسة ، وتستهدف للخرى والمار .. بل لقد بدا له الطلاق مستحيلاً ، لاعتبارات لا تقل عن ذلك أهمية : فإذا يكون من أمر ابنه ، في حالة الطلاق ؟ إنه لن يتركه طبعاً في حضانة أمه ، حيث ينشأ في كنف أسرة غير شرعية وبين أخوة غير أشقاء .. فهل يأخذه في حضناته ؟ إن هذا يكون لإجراء انتقامياً لا يريد أن يقدم عليه ! على أن أهم عامل كان يجعل أليكسى يرى الطلاق مخرجاً مستحيلاً هو أنه بموافقته عليه إنما يلزم حياة « أنا » تدميراً كاملاً ، كما قالت له « دولى » بحق .. بل إنه بذلك يتزع من وجوده آخر حلقة تربطه بالحياة : الأطفال الذين أحبهم ! .. ويتزع من وجودها هى آخر حلقة تبقيا في الطريق المستقيم ، بحكم القانون الدينى الذى يحرم على المطلقة أن

تتزوج ، مابقى مطلقها على قيد الحياة . ومن ثم سوف تضطر أنا إلى أن ترتبط مع فرونسكى برباط غير شرعى ، فلا يمضى عام أو نحوه حتى ينبذها ويزهد فيها ، وإذا ذاك ترتبى في أحضان آخر ، وهكذا يكون مصيرها الدمار ، ويكون هو المسئول عن هلاكها ! .. إذن فالطلاق ليس أمراً غاية في البساطة كما يزعم شقيقها ! وانتزعه من أفكاره صوت هذا يستطرد قائلاً : « بقى أمر الشروط التى تشترطها كى تمنحها الطلاق ، وهى لا تطلب شيئاً في صدد ذلك . لا تجرؤ أن تطالبك بشيء ، وإنما تترك الأمر كله لكرمك ! » .

— يا إلهى ، يا إلهى ! ماذا فعلت كى أستحق هذا ؟

وأخفى أليكسى وجهه بين يديه وقد مرت بخاطره المخازى التى يعرض نفسه لها لو تحمل عن زوجته تهمة الزنا ، وحدث نفسه مردداً قول المسيح : « من لطمك على خدك الأيمن ، فأدر له الخد الأيسر أيضاً .. ومن انتزع منك جزءاً من رداثك ، فأعطه ثيابك كلها .. » ، وعندئذ صاح أليكسى في حشجة أليمة : « نعم ، نعم ، سوف أتحمل الخزي بدلا منها ، وأتحلى حتى عن ولدى ، ولكن .. » ، واستدار كى لا يرى ستيفان وجهه ، ومضى فجلس على مقعد إلى جوار النافذة ، وقد غمر قلبه شعور بالمرارة والعار .. فبدا التأثر في وجه ستيفان ، وقال : « أليكسى ، صدقتى ! إنها تقدر كرمك ومروءتك . ولكن يبدو أنها كانت إرادة الله : إنها نهاية تعة ، وكارثة لا شك فيها ، لكن المرء يذنب أن يتقبلها

كأمر واقع . ولسوف أبذل قصارى جهدى كى أساعد كلاكما
في هذه المحنة ! » .

ثم ودع أليكسى وانصرف !

• • •

• كان الجرح الذى أصيب به فرونسكى من طلقة المسدس
جرحاً خطراً . وإن لم يلمس القلب ، فليت بتأرجح أياماً بين الحياة
والموت .. وحين استرد قدرته على الكلام ، همس لزوجته شقيقه
قائلاً وهو ينظر إليها جاداً : « فاريبا ! لقد أطلقت الرصاص على
نفسى بدون قصد ، فرجائى إليك ألا ترددى هذا الموضوع ، وأن
تقولى ذلك لكل من يسألك ، وإلا كان الأمر مثاراً للسخرية ! » ..
فقالت فاريبا وهى تظل في عينيه الصافيتين وتبسم مقبضة : « شكراً
لله . إنك لا تحس ألماً ! » ، فأشار إلى صدره وقال : « هنا أحس
بعض الألم » .. فقالت : « إذن دعنى أغير لك الضمادات ! » .
وحين فرغت من مهمتها عاد يقول لها : « لست أهذى ، ولكنى
أعنى ما أقول ! فأرجو ألا يلفظ أحد بأنى أصبت نفسى عامداً ! » .
- لا أحد يلفظ بهذا . وكل ما نرجوه ألا تصيب نفسك
« بدون قصد » مرة أخرى !

- كلا لن أفعل ، ولكن ليت لإصابتى كانت ..

وابتسم في كآبة .. ولكنه برغم هذا كله ما كاد يتأمل للشقاء
حتى أحس أنه تخلص على الأقل من جانب واحد من جوانب يؤسه

وشقائه . إذ غسل بقعته العار والمذلة اللذين استشرهما من قبل ،
وبات يستطيع أن يفكر في غريمه أليكسى بشيء من الهدوء ، وأن
يواجه غيره من الرجال بدون خجل أو خزى ، وأن يعود إلى حياته
السابقة بالتدريج ! .. شيء واحد عجز عن أن يتزغى من قلبه ،
برغم طول كفاحه من أجل ذلك ، هو أسفه المورر على فقد « أنا »
إلى الأبد ! لقد كفر عن إثمه في حق الزوج ، وصار خليقاً به أن
يهجرها . ولا يعود إلى الوقوف حائلاً دون توبتها وندمها ، ورجوعها
إلى زوجها ! .. وقد استقر عزمه على أن يتخذ هذا الموقف ،
دون أن ينسى أساءه من أجل فقدانه حبها ، أو ينسى تلك اللحظات
من السعادة التى لم يحسن تقديرها في أوانها ، والتي تطارده الآن
بكل سحرها وروعها !

وحين دبر له رؤساؤه عملاً في (طشقند) لم يبد أدنى تردد أو
اعتراض . ولكنه كان كلما اقترب موعد الرحيل ، تقاوم إحساسه
بمرارة التضحية التى بذلها من أجل ما يعتقد أنه واجبه ! .. وفيما
هو يعد العدة للسفر ، ويزور مودعاً أخلص أصدقائه ، ساوره
جنين طاغ إلى أن يرى « أنا » مرة أخيرة ، ثم يدفن نفسه « حياً »
في متفاه ، فهمس بهذه الفكرة في أذن « بنسى » ، وتولت هذه
نقلها إلى مسامع أنا .. ثم عادت تحمل له جواباً بالنفى ! .. وحدث
فرونسكى نفسه ، معزياً : « لعل هذا أفضل ، فقد كانت نزوة
ضعف خليقة بأن تبعد ما تبقى من قواى وعزيمتى ! » :

لكن بتسى عادت إليه في صباح اليوم التالي تقول إنها سمعت من « ستيفان أو برونسكي » بأنها قاطعاً بأن أليكسي وافق على الطلاق ، ومن ثم بات في استطاعة فرونسكي أن يرى « أنا » ! ودون أن يكلف نفسه عناء انتظار خروج بتسى من مسكنه ، أو يسأل عن الموعد الذي يستطيع أن يرى فيه « أنا » ، أو عن مكان وجود زوجها في الوقت الحالي ، هرع إلى الخارج ووجهته منزل آل كاريتين ، ناسياً كل إقراراته وعهوده مع نفسه ! .. ولما بلغ الدار وثب يصعد سلمها علواً ، بغير انتظار أو استئذان ، ثم اقتحم مخدع « أنا » ! وبغير أن يتلفت ليرى هل في الغرفة غيرها أم لا ، ألقى ذراعيه حولها وراح يغطي وجهها ، ويديها ، وعنقها ، بالقبيلات ! وكانت « أنا » قد أعدت نفسها لهذا اللقاء ، وفكرت فيما عساها تقوله له فيه .. لكنها لم تفلح في أن تقول مما أعدته حرفاً ، ففقد استغرقها عاطفته الجارفة الكاحلة . وعبثاً حاولت أن تهدئه ، أو تهدئ نفسها ، فإن أوان ذلك كان قد فات .. وأصابها انفعاله بعمواه ، فاختلفت شفتاها ، وظلت برهة لا تقوى على الكلام ! وأخيراً قالت وهي تضغط يديه فوق صدرها :

— نعم ، لقد قهرتني .. وإني لك !

— كان لا بد أن يحدث ذلك .. وما دمتنا على قيد الحياة فلا مفر من أن نكون معاً .. الآن أوقن وأعتقد بذلك !

— هذا صحيح .. لكن هناك شيئاً رهيباً ما زال في الطريق !

— سوف يتقضى كله ، سوف يتقضى ! وسوف نسعد غاية السعادة معاً . إن حبنا سيقوى — إن كان ثمة مزيد لقوته — بتأثير ذلك الشيء الرهيب نفسه !

وكانت قد أخذت رأسه بين يديها وعانقته ، فرفع وجهه إليها وقد انفرجت أسنانه الجميلة عن ابتسامة ، لم تستطع إلا أن تستجيب لها ، لا بتأثير كلماته بل بتأثير الحب السافر في عينيه .. ثم تناولت يده وجعلت تربت بها خديها البارين ، فهمس لها وهو يحديق في عينها : « لست أعرفك بهذا الشعر القصير . لقد غلوت أجمل مما كنت . ولكأنك غلام وسيم . ولكن ما أشد شحوب وجهك ! »

— نعم ، إني ضعيفة .. ضعيفة جداً !

— فلنرحل إلى إيطاليا .. وسوف تستردين قوتك وصحتك .

— أيمكن حقاً أن نكون بمثابة زوج وزوجة ، وحيدين ؟

— بل إن الذي يبدو غريباً في نظري ألا نكون كذلك !

— ستيفان يقول إن زوجي وافق على كل شيء ، لكنني

لا أستطيع أن أقبل كرمه وإحسانه .. لست أريد طلاقاً الآن . وإن

كنت لا أدري ماذا يعترزم بشأن ابننا « سريوشا » !

— لا تتحدثي في شيء من هذا الآن ، بل لا تفكرى فيه !

— أوه ، لماذا لم أمت ! كان ذلك أفضل ..

وانخلدت على وجنتيها دموع ضامته ، لكنها حاولت أن

تبتسم ، كي لا تجرحه ! .. وحتى تلك الساعة كان فرونسكي

يعتبر التخلي عن المهمة التي انتدب لها في « طشقند » - على إغرائها وخطورتها - أمراً مخزياً ، بل ومستحيلاً .. لكنه الآن ، دون أي تردد أو تدبر ، تخل عنها ! .. وإذ لاحظ في دوائر القيادة العليا استياء من مسلكه وانتقاداً له ، استقال من فوره من الجيش ! ولم ينقض شهر حتى كان أليكسي قد ترك وحده مع ابنه سريوشا في داره ببطرسبرج .. بينما رحلت أنا وفرونسكي إلى الخارج ، دون أن يحصلنا على طلاق لها من زوجها ، بل لقد نبذا كل تفكير في ذلك الطلاق !

الفصل الخامس

- ١٧ -

● لم ير ليفين خطيبته كيتي في يوم عرسهما - جرياً على مقتضيات التقاليد الروسية - بل تناول غداءه في فندقه وتبعه ثلاثة من أصدقائه العزاب ، وكانت جلسة مريحة تخللها الضحك والنكات. وبعد الغداء تفرق الجميع تاهباً لارتداء الثياب المناسبة لحضور الزفاف فلما خلا ليفين إلى نفسه وتذكر أحاديث أصدقائه في تلك الجلسة ، راح يفكر فيما رددوه عن الزواج والقيود التي زعموا أنها تكبل الزوج فتفقد حريته ، وساءل نفسه : « أحق هذا ؟ » ، ولكنه ما لبث أن ابتسم ساخراً مستكراً .. إن السعادة ليست وفقاً على المتحررين من تلك القيود ، بل السعادة الحققة إنما تكون في الحب ، وفي مشاركة الحبيب لمحبه أمانته وأفكاره ، أي في تجريد نفسه من كل حرية 1 .. وهنا همس في أعماقه صوت غامض مفاجئ : « ولكن ، هل أعرف أنا رغباتها ، وآراءها ، ومشاعرها ؟ » . وسرعان ما غاضت الابتسامة من وجهه ، واستغرق في التفكير . وفجأة دهمه شعور غريب ، هو مزيج من الرعب والشك في كل شيء ، فسأل نفسه : « من أدراي أنها تحبني ؟ ألا يحتمل أنها إنما تتزوجني لأنها تريد الزواج ذاته ؟ ولعلها لم تتبين بعد حقيقة شعورها

هذا ، لكنها حين تفق من نشوة الزواج قد تدرك أنها لا تحبني ، ولا تستطيع أن تحبني ! » .

وتناجعت على ذهنه أمثال هذه الأفكار ، وأدهشه أن عاوده فجأة شعوره بالغيرة من فرونسكى ، كما كان الأمر منذ عام كامل ، حين رآها ترنو إليه في إعجاب ! .. وخيل إليه أنها لم تصارحه بكل شيء ، فقفز من مكانه تاهضاً وهو يقول لنفسه في بأس : « كلا ! لا يمكن أن يستمر هذا . سأذهب إليها ، سأسألها .. سأقول لها للمرة الأخيرة : « ما زلنا غير مقيدين بأى شيء » ، فهل يحسن أن تبقى كذلك ؟ » .. نعم ، إن هذا أفضل من التعاسة الدائمة في ظلال الخيانة والعار ! .. وفي غمرة اليأس الذى ملأ قلبه ، والغضب المرير على الرجال جميعاً ، وعلى نفسه ، وعليها .. غادر الفندق قاصداً بيتها !

ولما عاد إلى الفندق كان قد سكن زووعه ، فوجد في انتظاره أخاه ، ودوللى - شقيقة كيتى - وزوجها ستيفان ، وقد ارتدوا ملابس الليل وانهمكوا في إعداد ما تبقى من معدات وإجراءات كثيرة معقدة . وعندما حان الوقت كى يرتدى العريس سترته الرسمية تبين أن خادمه نسى أن يحضر له قبضاً نظيفاً ، فوصل إلى الكنيسة متأخراً عن مواعده بوقت طويل ، وكان المدعوون يملأون جنباتها ، والأضواء الباهرة تفسر سناها على وجوه الحسان ، وأشتتها تنعكس على حلين المتلألئة على الصدور والتجور .. وحين تمت

مراسم الزفاف الدينية ، قبل العريس شفتى عروسه الباسيتين وأعطاهم ذراعاً ، ثم راحا يتقبلان التهنئات وأطيب التمنيات ! .. وبعد العشاء رحل العروسان في الليلة نفسها ليقضيا شهر العسل في الريف !

أما الحبيبان « فرونسكى وأنا » فقد أقاما - بعد عودتهما إلى بطرسبرج - في فندق من أفخم فنادق المدينة : هو في الطابق الأسفل ، وهى وطفلتها ومريبتها وخادمتها في جناح من أربع غرف بالطابق العلوى . وفي يوم ووصلها مضى فرونسكى إلى بيت شقيقته ، حيث وجد أمه قد قدمت من موسكو لأمر يتعلق بأمر لاكها ، فحجته وزوجة أخيه تحيتهما المألوفة ، وسألناه عن رحلته ، دون أن تشير ابحرف إلى صلته بأنا .. وفي الصباح التالى ذهب الشقيق الأكبر ليرى فرونسكى ، وسأله عن « أنا » ، فذكر هذا في صراحة أنه يعتبر صلته بها بمثابة زواج ، وأنه يأمل أن يدير أمر إتمام الطلاق ثم يتزوجها بعد ذلك .. ورجاه أن يبلغ زوجته وأمه رغبته في أن يعاملا « أنا » خلال هذه الفترة كما لو كانت زوجته ! .. ثم أضاف فرونسكى : « إذا لم يقر الناس هذا الوضع فلن أعبأ ، ولكن إذا كان أقربائى يريدون الاحتفاظ بصلتهم الودية معى فعليهم أن يرعوا هذه الصلة فيما يتصل بزواجى ! » .

وتلقى شقيقه الأكبر هذا الرأى بالاحترام الذى تعود أن يلقى به آراء فرونسكى ، ثم قال : « ليس عندى اعتراض على هذا الأمر . والمجتمع وحده هو صاحب الحق الأول في الحكم عليه ! » . ثم

خرج مع أخيه ليزورا أنا في جناحها بالطابق العلوى ، وحرص فرونسكى على أن يخاطبها أمامه في شيء من التحفظ ، ثم تحدث الثلاثة في أمر رحيل أنا إلى ضيعة فرونسكى لنقيم راحة من الزمن !

● كان فرونسكى خيراً بتقاليد المجتمع ، لكنه مع هذا أخطأ فهم الموقف الذى سبقه المجتمع منه ومن « أنا » ، فلم يدرك أن جميع الأبواب سوف تغلق في وجههما ، بل خيل إليه أن تطور الزمن وشيوع روح العصر الحديث قد بدلا آراء الناس في صدد العلاقات غير المشروعة كملاقته بأنا .. وراح يحدث نفسه : « طبيعى أن « أنا » لن تستقبل في حفلات البلاط ومناسباته الرسمية لكن أصدقاءنا الخلقاء يستطيعون أن ينظروا إلى الأمر نظرة أخرى ! » .. على أنه لم يلبث أن تبين خطأ ما ذهب إليه ، فأبواب المجتمع بقيت تفتح في وجهه هو ، لكنها بدت مغلقة في وجه « أنا » ! وكما هو الشأن في « لعبة القط والفار » كانت الأيدي فيها يختص به ترفع لغير تحتها ، ثم تهبط لتسد الطريق أمام « أنا » ! ..

وكانت الأميرة « بتسى » ابنة عمه ، أولى سيدات المجتمع الرفيع اللواتى رآهن فرونسكى بعد ذلك ، فحيته مرحبة قائلة : « ها قد عدت أخيراً ! كيف حال أنا ؟ وأين تقطنان الآن ؟ أعتمد أنكما قضيتا شهر العسل في روما ! » ، ولاحظ فرونسكى أن حماسة بتسى انطفاأت حين علمت أن إجراءات الطلاق لم تتخذ بعد ،

فقد قالت : « إن الناس سوف يرحبوننى بالأحجار إذا زرت « أنا » ، لكنى سوف أذهب لزيارتها حتما ! » .

وقد ذهبت لزيارتها في اليوم ذاته ، لكن لمجتها لم تكن مثلها في الماضى ، فقد تهاوت بشجاعتها التى أغرتها بالزيارة ، ورغبت إلى « أنا » في أن تقدر إخلاصها في صداقتها ! ولم تمكث أكثر من عشر دقائق ، ثم رثرت خلالها بأهم شائعات المجتمع ، ثم قالت لها وهى تتأهب للانصراف : « لم تخبرينى بموعد إتمام الطلاق ؟ قد أكون أنا مستعدة لتحدى آراء الناس ، لكن الآخرين سوف يديرون لك أكتافهم في برود ، حتى يتم زواجكما ! » . وقبل أن تنصرف قالت لها : « أنت راحلة يوم الجمعة ، أليس كذلك ؟ إلى آسفة لأننى لن أتمكن من لقائك قبل ذلك ! » .

وكان ينبغى لفرونسكى أن يفهم من لمجة بتسى ما سوف يلقيه « وأنا » من سواها ، ولكنه رأى أن يبذل محاولة أخرى داخل نطاق أسرته . ولم يكن يستطيع أن يركن في هذا الصدد إلى أمه ، فهى رغم إعجابها الشديد بأنا يوم لقاها الأول ، لم تكن مستعدة لأن تعاملها معاملة طيبة ، لاعتقادها بأنها أثلفت مستقبله ! .. وكان يعلق أملا كبيراً على زوجة أخيه ، معتقداً أنها لن ترحم « أنا » بالأحجار ، بل ستذهب في بساطة لتزورها ، وتستقبلها في بيتها ! ففى في اليوم التالى لوصوله إلى « فاريا » ، وصارحها مباشرة بغرضه . فأجابته قائلة : « أنت تعلم منزلتك عندى ، ولانى لعل

استعداد لأن أفعل كل ما يرضيك ، لكنى لا أستطيع أن أخدمك أو أخدم « أنا » فى هذا الشأن . وأرجو ألا تفهم من هذا أنى أدينها .. كلا ! فإز أننى كنت مكانها لفعلت ما فعلته ، لكن المرء ينبغى أن يسمى الأشياء بأسمائها . أنت تريدنى أن أذهب لأزورها ، وأدعواها إلى زيارتى هنا ، وأعيد اعتبارها فى المجتمع ، ولكن أرجو أن تقدر موقفى حين أقول لك : إلى لا أستطيع أن أفعل ذلك ، فإن فى بنات يوشكن أن يلفن سن الزواج ، وواجب يقتضى أن أجارى المجتمع ، من أجل زوجى ! .. وعلى أية حال فإنى على استعداد لزيارة أنا ، ولكن أرجو أن تفهم هى من تلقاء نفسها أننى لن أستطيع استقبالها فى بيتى ، ذلك لأننى فى هذه الحالة لا بد أن أحرص على ألا تلتقى فى بيتى بأحد ممن ينظرون إلى الأمور نظرة مخالفة ، وهذا من شأنه أن يخرجها ويطعنها فى الصميم .. إلى عاجزة عن أن أقبلها من عثرتها ! ..

.. فقال فرونسكى فى اكتئاب وهو ينهض بائساً من إقناعها بتغيير قرارها : « لهذه المناسبة يهمنى أن تعلمى إلى لا أعتبرها ساقطة أكثر من مئات النساء اللواتى تستقبلين فى بيتك ! .. » فقالت له فى هدوء : « فرونسكى ، لا تغضب لصراحتى . إلى غير ملومة ! .. » فقال : « لست غاضباً ، ولكنى آسف لشيء واحد ، هو أن ذلك يضطرنى إلى قصم عرى صداقتنا ، أو إضعافها

فى القليل . ولعلك تفهمين أن الأمر بالنسبة لى أيضاً لا يمكن أن يكون غير ذلك ! ..

ثم ودعها وانصرف .. !

وهكذا أدرك فرونسكى أن لا فائدة من أية محاولة أخرى يبذلها فى هذا السبيل ، وأن عليه أن يقضى الأيام القليلة الباقية فى بطرسبرج كما لو كان يعيش فى مدينة غريبة ، يتجنب كل لون من ألوان الصلة مع أفراد جماعتهم القديمة ، بغية عدم التعرض للمضايقات وأنواع المذلة التى لا يستطيع بطبعه أن يتحملها ! .. وكان من أقسى الملابس التى تكتنف موقفه فى بطرسبرج أنه صار يلتقى فى كل مكان بغريمه أليكسى ، أو يسمع اسمه فى مختلف المناسبات . وزاد فى قلقه أنه بدأ يلحظ على « أنا » أعراضاً وأطواراً غريبة ، عجز عن فهمها أو تحليلها ! كانت تبدو أحياناً شديدة التعلق والشفغ به ، وأحياناً أخرى باردة العاطفة ثائرة الأعصاب ، عيقة الغور .. ولم يبد أنها لاحظت المذلة التى سممت حياته ، والتى لا شك أنها كانت أشد إبلاماً لأعصابها المرهقة !

- ١٨ -

● كان من أهم الدوافع التى حلت « أنا » على العودة من إيطاليا إلى روسيا ، شوقها إلى رؤية ابنها ! ومنذ اليوم الذى غادرت فيه إيطاليا ، لم تكف صورته عن مطاردة خيالها ، فلما اقتربت من بطرسبرج تضاعفت لهفتها ، بحيث ألهمها عن التفكير فى الوسيلة التى

لوعرض على الزوج لكان عند خلقه النبيل ، وأنى أن يرفض طلبها ولكن الوسيط الذى حمل الخطاب عاد إليها يحمل ما هو أقتى من أى رد تصورته ! لم يكن هناك أى رد على الإطلاق ! .. وأحست « أنا » عندئذ أنها قد أذلت وأهينت إلى حد لم تتصور أن تبلغه فى يوم من الأيام ! .. لكنها أدركت - إلى ذلك - أن الكوننة ليديا كانت ، من وجهة نظرها الخاصة ، على صواب ! وضاعف من حدة عذابها أنها ألقت نفسها مضطرة إلى أن تتحمل هذا العذاب وحدها ، فى صمت ، ودون تلمز - ! ففى لم تشارك فيه فرونسكى لعلمها أن رؤية الأم لابنها تبدو فى نظره أمراً لا تكاد تكون له أهمية رغم أنه كان السبب المباشر فى محبتها العميقة ! بل كان برود لهجته كلما أشارت إلى ابنها يجعلها تشعر بأنها بدأت تكرهه ! ولم يكن ثمة ما تخشاه أشد من هذه النتيجة . ومن أجل ذلك صارت تحرص على أن تخفى عنه كل ما يتصل بابنها !

وفكرت أخيراً فى أن تكتب إلى زوجها ! .. وفيها هى تصوغ عبارات الخطاب فى أناة ، جاءها خطاب من الكوننة ليديا إيفانوفنا . ولئن كان صحت الكوننة فى المرة الأولى قد ألمها وأحرجها ، فإن ما قرأته بين السطور فى خطابها هذه المرة قد حيرها وأحققها أضعافاً مضاعفة ! فجعلت تحدث نفسها : « إنهم بهذا البرود واصطناع الشرف الزائف يريدون إهانتى وتعذيب إبنى » لكننى لن أستسلم لهذا . إن ليديا أسوأ خلقاً منى . أنا لا أكذب على

تمكنها من لقائه . لقد بدا لها أمراً طبيعياً - غاية فى البساطة - أن ترى ابنها ، ما دامت تقيم معه فى مدينة واحدة ! لكنها لم تكد تصل إلى المدينة ، حتى صدمت فجأة بالموقف الذى اتخذته المجتمع إزاءها ، وبدأت صعوبة لقائها لابنها تلوح لخاطرها بوضوح يزداد يوماً بعد يوم ! .. حتى بدأ الانزعاج يساورها فى اليوم الثالث ، حين أحست أنها لم تقترب من هدفها خطوة واحدة ، بل ابتعدت خطوات ! .. فجعلت تستعرض الحلول جميعاً واحداً بعد واحد : هل تذهب رأساً إلى بيته ، حيث يعيش مع أبيه ؟ كلا ! فليس من حقها أن تفعل ذلك ، وقد يحال بينها وبين الدخول ، وتوجه إليها الإهانات ! إذن فلتكتب إلى أبيه - زوجها - خطاباً ، ولكن التفكير فى هذا الحل يورثها الشعور بمدى شقاها ، وهى لا تستطيع أن تنعم بسكينة النفس إلا إذا كفت عن التفكير فى زوجها تماماً ! .. لم يبق إذن إلا أن تنتظر ابنها خارج البيت والمدرسة لتشيع نهما إلى رؤيته ذاهباً آلياً ! لكن هذا لا يكفيها ، فلقد طالما أعدت نفسها لهذا اللقاء ، أعدت الكثير لتقوله له فى هذه المناسبة ، ومنت ذراعها بعناقه ، وفيها بتقبيله ، بحيث يصعب عليها أن تقنع بما دون ذلك ؟ ! ووصل إلى سمعها أن ثمة صلة وثيقة تربط زوجها بالكوننة ليديا إيفانوفنا ، فكتبت إليها خطاباً . كلفتها كتابته جهداً وألماً عظيمين ، وتعمدت أن تقول فيه : « إن الإذن لها فى رؤية ابنها يتوقف على كرم أليكسى ! » .. فقد كانت تعلم يقيناً أن الخطاب

الأفل ! .. وقررت أن تمضي في اليوم التالي - يوم عيد ميلاد سريوشا - إلى منزل أبيه حيث ترشو الخدم أو تخدعهم بأية وسيلة كي تلقى ابنها وتريل الأثر السيئ الذي يريد القوم إدخاله في روعه نحوها !

وغادرت الفندق من فورها ، قاصدة إلى أحد محال بيع لعب الأطفال ، واشترت بعضها لتحملها معها إلى ابنها . ثم عكفت بعد ذلك على تدبير خطة « الهجوم » : إنها سوف تذهب متنكرة إلى بيت زوجها في الساعة الثامنة صباحاً ، قبل أن ينهض من فراشه ، وستمضي إلى جناح ابنها دون أن ترفع نقابها ، زاعمة أنها مبعوثة من أحد أقرباء الصبي لتهنئته بعيد ميلاده ، وتترك إلى جوار فراشه ما تحمل من لعب ودي !

وفي هذا الموعد ، كانت « أنا » تهبط من الزحافة التي استأجرتها ، لدى باب منزلها القديم ! وكان مساعد الحارس غلاماً جديداً لا تعرفه ، فلما فتح لها الباب دست في يده ورقة مالية قيمتها ثلاث روبيات وقالت له : « أريد رؤية سريوشا . لكنه أوقفها عند الباب الزجاجي الداخلي ومضى ليدعو رئيسه ، فلما جاء هذا قالت له وهي ما تزال متنكرة : « إني قادمة من عند الأمير سكورودوموف لمقابلة سريوشا .. فأجابها قائلاً : « إن الصبي لم ينهض من فراشه بعد . هل تنكرمين بانتظاره هنا ؟ .. لكن الأم المتلهفة للقاء ابنها لم تع ما يقول . إن منظر ردهة البيت

الذي عاشت فيه تسع سنوات أنعش في وعيها ذكريات - عذبة وألمية معاً - أخذت تتوالى على لوحة خيالها دون رحمة ! وفي أثناء ذلك كان الحارس قد مد يده ليتناول معطفها ، وإذا حانت منه نظرة إلى وجهها عرفها - برغم النقاب - فأنحنى لها صامتاً ، وقال في احترام :

— تفضل بالدخول ياسيدتي !

وحاولت أن تقول شيئاً ، لكن صوتها أنى أن يطاوعها ! .. فرمقت الحارس المسن بنظرة خجلى متوسلة ، وانجهت إلى السلم تبغى الصعود .. فلحق بها هائناً متلعثماً : « إن معلّمه معه .. أقصد أنه ربما لا يكون قد ارتدى ثيابه . سوف أخبره أولاً ! .. لكنها استمرت تصعد درجات السلم المألوفة لها دون أن تعي ما يقول .. فهرع لحظة وعاد يقول : « إنه قد استيقظ لقوره .. فأجابته وهي تواصل اتجاهها نحو الغرفة : « دعني أدخل ، واذهب أنت ! .. كان الصبي جالساً في فراشه ، ما يزال يتمطي ويتعاب ، وفي اللحظة التي انطبقت فيها شفتاه ارتسمت عليهما ابتسامة عذبة يخالفها النعاس ، ثم ارتمى على ظهره وغلب النوم من جديد .. فهمست له أمه وهي تدنو منه دون أن تحدث جلبة : « سريوشا . وخيل إليها وهي تتألم أنه قد تغير كثيراً عما كان حين تركته . استطالت قامته ، ونحل عوده ، لكن رأسه ، وشفتيه ، ورقبته الناعمة ، وكتفيه الصغيرتين ، باقية كلها كما عهدتها ! .. وعادت



فنام بين ذراعها ! وراحت (أنا) تنأمله
في شراة ونهم ..

تهمس في أذنه في رفق : « سريوشا » ، فرفع الصغير جذعه على مرفقه وأدار رأسه هنا وهناك ، كما لو كان يبحث عن شيء ، ثم فتح عينيه .. وفي بطنه وتناقل نظر إلى أمه الواقفة بلا حراك أمامه ، يضع ثوان ، ثم ابتسم فجأة ابتسامة ملائكية وارتقى بين ذراعيها وقد أنمض عينيه ! فهتفت لاهثة الأنفاس وهي تنحني على جسمه الصغير وتضمه إلى صدرها : « سريوشا ، ابني الحبيب ! .. »
فهتف هو وقد استراح لضمتها الحنون : « أماه ! .. » ثم ألقى ذراعيه الصغيرتين على كتفيها وهو ما يزال يبتسم ويغالب النعاس ، ومضى يحك وجهه في رقبته وكتفيها ، بتلك العذوبة الدافئة التي لا يعرفها غير الأطفال ! .. ثم قال وهو يفتح عينيه آخر الأمر :
« كنت أعلم أنك ستأتين يوم عيد ميلادي .. سأنهض حالا » . وإذا قال ذلك غلبه النعاس مرة أخرى فنام بين ذراعيها ! وراحت « أنا » تنأمله في شراة ونهم . رأت كيف تغير في غيبتها ، فخفقها دموع التأثر والأسى ! وفي أثناء ذلك فتح الصبي عينيه مرة أخرى وسألها :
« لم تبكين يا أماه ؟ » . وإذا عجزت عن أن تجد صوتها لتجيبه ، صاح بها في صوت بللته دموع الانزعاج : « أماه ، لماذا تبكين ؟ »
فأجابته وقد حبست دمعتها وأشاحت بوجهها عنه : « لن أبكي ثانية يا بني .. إلى أبكي من فرحتي .. منذ زمن طويل لم أرك ! .. لكنني لن أبكي ثانية ، لن أبكي ! »

ثم أردفت وهي تجلس على مقعد مجاور لفرشه : « تعال ، آن

عزمه على أن يؤدي واجبه المألوف ، قضى إلى الباب وفتحته ..
لكن عناق الأم والطفل ، وحديثهما وضحكاتهما المتبادلة ، جعلته
بغير رأيه ، فهز رأسه وتهدب .. وهو يغلق الباب - هامساً لنفسه :
« سأنتظر عشر دقائق أخرى » .. وكفكف الدموع التي انحدرت
على خديه !

.. وكان نبأ حضور « أنا » قد انتشر بين الخدم ، فأشفقوا
جميعاً من أن يدخل سيدهم غرفة ابنه في الساعة التاسعة ، كما ألف
أن يفعل ، فبالتقى فيها بزوجته ! .. وصح عزمهم على أن يحولوا
دون ذلك ما أمكنهم ، فقالت مربية الصبي تحدث خدام أليكسى
الخاص : « اذهب أنت فاشغل السيد بأى شيء يعوقه عن الذهاب
إلى غرفة ابنه .. ربما أهرع أنا إلى الغرفة فأخرج منها السيدة بأية
طريقة ! .. يا له من مأزق ! » .

وحين دخلت المربية الغرفة ، كان سريوشا يقصص على أمه
كيف كان يلعب فوق إحدى الزحافات ، فانزلق منها وانقلب على
جنبه ثلاث مرات .. وكانت « أنا » تصفى إلى رنين صوته ،
وتأمل وجهه والتعبيرات التي تتوالى عليه ، وهى تلمس يده فى
حنان ! .. لكنها لم تكن تتابع كلامه أو تفهم ما يقول ، فقد كان
يقلقها التفكير فى وجوب انصرافها فى الوقت المناسب ، قبل أن
تلتقى بزوجها ؟ ولكن كيف تذهب وتفترق من جديد عن ابنها ،
وهى لم تكده لقاؤه ؟ .. وسمعت خطوات مساعدا الحارس وهو يذنو .

أن تليس ثيابك . كيف كنت تلبسها بعدى ؟ كيف ؟ ! » ،
وحاولت أن تفيض فى الكلام ببساطة وتمرر لكنها لم تستطع ،
فأشاحت بوجهها مرة أخرى ! .. بينما مضى الصبي يترثر قائلاً :
« لم أعد آخذ حماماً بارداً . بابا لا يوافق .. أوه ، إنك تجلسين فوق
ثيابي ! » ، وضحك فى انشراح ، فنظرت إليه وابتسمت ، وإذا
ذاك ارتمنى على صدرها مازحاً وهو يصيح فرحاً : « أماه ،
حبيبتي ! » ثم أضاف وهو يخلع عنها قبعها : « لست أريد هذه
بعد .. وإذا رأها أقرب إلى طبيعتها بغير قبعة ، اندفع يقبلها
ويعانقها من جديد !

— ولكن ماذا قالوا لك عني ؟ لعلك حسبتي قد مت ؟ !

— لم أصدق ذلك أبداً !

— حقاً يا حبيبى ؟

— كنت أعرف .. كنت أعرف أنك ستأتين !

واختطف يدها التى كانت تمشط شعره .. فضغط راحتها على

شفته . وقبلها !

● وكان مساعد الحارس قد استنبح من مسلك « أنا » عند
دخولها أنها « الزوجة التى هجرت زوجها » - كما قيل له عندما
التحق بخدمة البيت بعد رحيلها - فلما حانت العاعة التى ألف فيها أن
يعين الصبي على ارتداء ثيابه ، تردد حائراً ماذا يفعل ، ثم استقر

من الباب ، ويسعل منبهاً .. كما سمعت وقع خطوات المربية وهي تقرب .. لكنها ظلت جالسة في مكانها وكأنها قد استجالت إلى مثال من حجر ، عاجزة عن أن تتكلم أو تنهض .. حتى أقبلت عليها المربية تقبل يديها ، وكنتفها ، هاتفة في شوق : « سيدتي العزيزة ! لقد أرسلك الله إلى الصبي يوم عيد ميلاده . إنك لم تتغيري البتة ! » .
— أهذه أنت ؟ لم أكن أعلم أنك باقية هنا !

— لست أقيم هنا . لقد تركت العمل هنا لأعيش مع ابنتي . لكنني جئت اليوم فقط من أجل عيد ميلاد سريوشا . أوه يا سيدتي العزيزة !

وغلها التأثر فانفجرت باكياً ، وعادت تقبل يدي سيدتها من جديد .. بينما راح الصبي يقفز فوق الفراش وهو ممسك بيدها يد أمه ، ويسرا يد مربيته ، وقد أشرق البشر في عينيه وابتناسمه .. وأثرت فيه رقة عاطفة المربية نحو أمه ، فهتفت نشوان : « أماه ! .. إنها تأتي كثيراً لتراني ، وحين تأتي .. » ، لكنه توقف ، وقد لاحظ أن المربية تهمس لأمه في أذنها بعبارة ما ، وأن وجهها تغير فجأة ، وبدأ فيه مزيج من الرعب والفرع والوجل ! .. ثم توجهت أمه نحوه قائلة : « يا حبيبي ! .. ولم تقو على أن تقول « وداعاً » . لكن التعبير الذي ارتسم على وجهها قالها ففهم الصبي .. ثم أردفت قائلة : « إنك لن تنساني يا حبيبي ؟ أليس .. ؟ » ، لكنها عجزت عن إكمال عبارتها ! ولكم جالت بخاطرها فيما بعد عبارات كان

ينبغي أن تقولها للصبي وهي تودعه ، لكنها الآن لم تدرك ماذا تقول ، ولم تستطع أن تقول شيئاً .. وإن كان سريوشا قد فهم كل ما أرادت أن تقوله له : فهم أنها شقية ميتسة ، وأنها تحبه .. بل فهم حتى ما همست به المربية ، فقد التقطت أذنه هذه الكلمات : « دائماً في الساعة التاسعة » ، فأدرك أنها تعني بها أباه ، وأن أباه وأمه ينبغي ألا يلتقيا ! .. كل هذا فهمه : لم يبدو الرعب والخزي على وجه أمه ؟ .. إنها لم تخطئ في شيء ، لكنها خائفة وخجلى من شيء ! .. وقد ود لو يلقى عليها سؤالا يريحه من شكوكه ، لكنه لم يجرؤ ! .. وراها تسعة مكتئبة ، وأشفق عليها ، فالتصق بها في صمت وهمس : « لا تذهبي الآن .. إنه لن يأتي خلا ! » .

فأبعدته الأم قليلاً لتقرأ في وجهه ما يحول بخاطره ، وتفكر فيما عساه أن يجيب به .. وسرعان ما أدركت أنه يعني بكلامه أباه ، بل قرأت في وجهه أنه يريد أن يسألها كيف تكون نظراته إلى أبيه ، وماذا يعتقد فيه ؟ فقالت له ضارعة : « سريوشا يا حبيبي .. أحبيه ! إنه أفضل ، وأكثر عطفاً ، مني .. وقد أسأت أنا إليه .. وحين تكبر سوف تستطيع أن تحكم ! » .. فصاح الصبي يائساً ، من خلال دموعه : « لا يوجد من هو أفضل منك ! » ، ثم تشبث بكنتفها والتصق بها بكل قوته ، ويداها ترتعشان من الانفعال ! فهتفت « أنا » في مثل ضعفه وصبيانته : « يا حبيبي ، يا صغيري الغالي ! » ، وفي تلك اللحظة فتح الباب ، ودخل منه مساعد

الحارس . وسمع قرب الباب الآخر وقع أقدام تصعد السلم ، فهمست المربية في وجل : « إنه قادم ! » ثم أعطت « أنا » قبعتها ! ، بينما غاص سريوشا في فراشه وأجهش بالبكاء ، وقد أخنى وجهه بين يديه .. فأزاحت « أنا » يديه وقبلت وجهه الندي بالدموع مرة أخرى ، ثم أسرع نحو الباب .. في الوقت الذي أقبل فيه زوجها ، فالتقيا على عتبة الباب .. وإذا رآها أليكسي توقف وحنى رأسه لها بالتحية !

وبرغم ما ذكرته للصغير منذ لحظات بضدد أفضلية أبيه عنها ، في الطبية والرقعة ، فإن النظرة السريعة التي رمقتها بها الآن كانت تنطوى على النفور والكراهية له ، والغيرة منه على ابنها ! .. وبحركة سريعة أرخت نقابها على وجهها ثم هرعت خارجة من الغرفة وهي تكاد تعدو ، حاملة معها طرد الدمى والمدايا التي ابتاعتها لابنها في اليوم السابق ، وقد نسبت في اضطرابها أن تحل رباطها وتعطيها للصبى .. !

● لم تكن « أنا » - برغم اشتياقها إلى رؤية ابنها ، وطول تدبيرها أمر لقائه ، ولإعدادها نفسها لهذا اللقاء - تتوقع تأثرها برؤيته كل هذا التأثير العميق ؟ فلما عادت إلى جناحها المنعزل بالفندق لبثت فترة طويلة شاردة الذهن تفكر في حالها ، وتحدث نفسها وهي جالسة في مقعد مريح بجوار المدفأة ، دون أن تخلع حتى

قبعتها : « لقد انتهى كل شيء .. وها أنا ذا عدت وحيدة من جديد ! »

وبعد قليل عادت المربية الإيطالية التي خلبتها معها من رحلتها ، بعد أن خرجت بالطفلة للزفة بعض الوقت ، وأعطت الطفلة لأُمها . فلما رأت الصغيرة ، الممتلئة الجسم ، أمها ، مدت إليها يديها الصغيرتين البدينتين ، وبابتسامة عذبة من فيها الخالي من الأسنان بدأت تعبت بحواشي ثوبها المطرزة المقواة بالنشاء ، فتحدثت من احتكاك أصابعها بها أصواتاً خشنة طريفة كان مستحيلاً على من يسمعها ألا يبتسم ويقبل الطفلة ، ويداعبها .. وقد فعلت « أنا » كل ذلك ، وأخذتها بين ذراعيها وجعلتها ترقص ، وقبلت خدها الصغير اللدن ومرققيها الصغيرين العاريين .. لكنها أدركت وهي ترى الطفلة ، أن الشعور الذي تحسه نحوها لا يمكن أن يسمى حباً بالقياس إلى ما تحسه نحو سريوشا ! كل شيء في هذه الطفلة جذاب ، ولكن حبها لها ليس عميق الجذور في قلبها كما هو شأن حبها لطفلها الأول ، الذي تركزت فيه - برغم نفورها من أبيه - كل عواطفها التي لم تجد لها من قبل متنفساً ! لقد ولدت طفلتها الجديدة في أسوأ الظروف وآلها ، فلم تجد من العناية والحلب جزءاً من مائة مما أريق على سريوشا ، الذي أضحي الآن ذا شخصية مستقلة محبوبة ، يفهم أمه ويحبها ويشاقق إليها .. والذي انتزع منها إلى الأبد - لاجسماً فقط - بل جسماً وروحاً - وبات لإصلاح هذه الحال من المحال !

● وإذ بلغت «أنا» هذه المرحلة من تفكيرها ، أعادت طفلتها إلى مربيتها وصرفتها ، ثم فتحت علبة صغيرة كانت تخوى على صورة لسريوشا حين كان في مثل سن الطفلة الجديدة ، وبعد أن تأملتها لحظة قامت فخلعت قبعها وتناولت من أحد الأدراج «ألبوما» يخوى صور الصبي في مختلف مراحل طفولته ، ثم أخرجتها كلها من الألبوم كي تقارن بينها .. لكن صورة منها - هي أحدث وأجل صورة له - استعصت على أصابعها إذ التصقت بالصورة المجاورة لها ، وكانت الأخيرة لفرونسكى ، أخذت له في روما أخيراً .. فلم يكده بصر «أنا» يقع عليها حتى انثال إلى ذهابها فجأة خاطر غريب : أنه هو سبب تعاسها الحالية ! ولم تكن قد فكرت فيه لحظة منذ بداية الصباح ، أما وقد صادقت الآن وجه عشيقها المكتمل الرجولة ، المألوف لديها والغالى عليها ، فقد أحست فورة حب مفاجئة تنتابها نحوه ! وسألت نفسها : «أين هو ؟ كيف يتركنى وحلى أقامى كل هذا الشقاء ؟» .. ولم تملك إلا أن تحتضن هذا الخاطر المنطوى على اللوم والتوبيخ ، ناسية أنها كتبت عن فرونسكى كل ما يختص بابنها !

وأرسلت تدعوه إلى أن يصعد إليها من فوره .. وليست تنتظره بقلب واجف ، مرعدة لنفسها الصيغة التى سوف تفضى إليه فيها بكل شيء ، وعبارات الحب التى تتوقع أن يواسيها بها ! .. لكن الرسول عاد إليها يقول : أن عند الكونت فرونسكى زائر هو

الأمير «ياشفين» الذى وصل الآن إلى بطرسبرج ، ولكنه سيصعد إليها حالاً برغم ذلك . وهو يسألها إن كانت تسمح له بأن يحضر ضيفه معه ؟ . وعادت «أنا» تحدث نفسها : «إنه لن يأتى وحده ، برغم أنه لم يرنى منذ ظهر أمس ، وإنما سيأتى ومعه ضيفه ، وهكذا لن أستطيع أن أفضى إليه بكل شيء ! .. وداهما خاطر غريب : «ماذا لو كان قد كف عن أن يحبها ؟ ! .. وباسترجاع حوادث الأيام القليلة الماضية بدا لها أنها تجد في كل شيء تأكيداً لهذا الخاطر الرهيب : فهو لم يتناول العشاء في الفندق مساء أمس ، وهو قبل ذلك قد أصر على أن يتخذ لنفسه جناحاً منفصلاً مستقلاً في الفندق . ثم ها هو الآن لا يحضر إليها وحده ، كأنما يتجنب لقاءها على انفراد ! .. ومضت تحدث نفسها : «كان ينبغي له أن يصارحنى بذلك ! يجب أن أعرف الأمر على حقيقته ، فلو عرفته لتبينت ما ينبغي أن أفعله ! .. ولم تستطع أن تصور لنفسها الموقف الذى تمسى فيه إذا اقتنعت بتحول قلبه عنها ! وأحست عقب التفكير في هذا الاحتمال بأنها توشك أن تتردى في هاوية اليأس .. فدقت الجرس لخادمتها ومضت إلى حجرة الزينة لترتدى أفخر ثيابها وتعد شعرها أجمل إعداد ، وكأنما أرادت أن توقه في غرامها من جديد إذا صبح أن حبه لها بدأ يعتريه الفتور !

ثم سمعت الجرس يدق ، ففقت إلى حجرة الاستقبال .. لكن عينها التقيا بالأمير ياشفين أولاً ، أما فرونسكى فكان يتأمل صور

سروش التي نسبتها متأثرة على المنضدة ، ولم يبد عليه أنه يتعجل مقابلتها ! وقالت « أنا » ترحب بالضيف وهي تضع يدها الصغيرة في يده الضخمة : « لقد التقينا من قبل ، في ميدان السباق خلال الموسم الماضي » ، ثم انتزعت من يد فرونسكى — بحركة سريعة — صور ابنها ، قائلة له وهي ترفقه بنظرة ذات معنى من عينيها الحادتين : « أعطني إياها ! » .

وبعد أن تحدث الثلاثة في شئون السباق وغيرها من الأمور فترة من الوقت — لاحظت « أنا » خلالها أن فرونسكى كان يكثر من النظر إلى ساعته ! — نهض الأمير مستأذناً في الانصراف ، متسائلاً عما إذا كانت تعتزم البقاء طويلاً في بطرسبرج ؟ فأجابته مترددة ، وهي تنظر إلى فرونسكى : « كلا .. فيما أعتقد » ، فقال الأمير : « إذن نلتقي ثانية ؟ » ، فقالت : « تعال لتناول العشاء هنا معنا . إن الطعام عندنا ليس ممتازاً ، لكنك سوف ترى فرونسكى على الأقل . إنه لا يشاق إلى أحد من زملائه القدامى في الجيش مثلاً يشاق إليك ! » .. فقال : « حسناً .. يسرني أن أحضر ! » . ثم صافحها وانصرف ، فسألت فرونسكى : « أذهب أنت أيضاً ؟ » . فأجابها : « الواقع أنى تأخرت عن موعدى ! » . ثم صاح بالأمير الذي سبقه : « اذهب أنت ، وسوف ألتحق بك بعد لحظة ! » وأمسكت « أنا » يده ، وبقيت تحلق في وجهه صامتة . وتكد ذهناً بحثاً عن عبارة تستطيع بها إغراءه بالبقاء ! .. وأخيراً قالت

له : « انتظر لحظة ، هناك شيء أود أن أقوله لك . هل كنت مصيبة في دعوة الأمير إلى العشاء ؟ » . فأجابها فرونسكى بعد أن قبل يدها وابتم لها ابتسامة صافية أظهرت أسنانه الناصعة : « لقد أحسنت صنعاً .. » ، فاستطردت وهي تضغط يده بين راحتيها : — فرونسكى ، ألم يتغير شعورك نحوى ؟ أنى تعسة جداً هنا ، فتنى تسافر ! ؟

— قرياً ، قرياً .. إنك لا تعلمين مبلغ ضيقى أنا بنظام معيشتنا هنا !

وحسب يده من يدها ، فقالت له بلهجة تحد ، وهي تمضى عنه :

— حسناً .. اذهب !

• • •

• حينما عاد فرونسكى إلى الفندق ، لم تكن « أنا » هناك ! .. وقيل له إن سيدة جاءت لزيارتها ثم خرجتا معاً ، فجعل يحدث نفسه : « عجباً ! ما معنى خروجهما على هذا النحو ، دون أن تترك لى رسالة عن وجهتها ؟ وما معنى تأخرها إلى هذه الساعة ؟ ! بل ما معنى خروجها بلا علم منى ؟ وتلك النظرة الغريبة المنفصلة التي بدت في عينيها ، واللهجة الحادة التي خاطبتني بها ، وهي تنتزع صور ابنها من يدى أمام « ياشفين » ؟ »

وانتهى فرونسكى من تفكيره إلى وجوب مفاتحتها في الأمر

بصرحة ، فجلس ينتظرها في حجرة استقبالتها .. لكن « أنا » لم تعد وحدها ، بل كانت معها عمتها العانس العجوز الأميرة أوبلونسكي ، وكانت هي الزائرة التي حضرت وأخذت « أنا » معها مندساعات ! .. وبدأ على « أنا » أنها تلاحظ قلق فرونسكي ونظراته المتسائلة ، فضت تتحدث في مرح عن تفاصيل جولاتها مع عمتها بين المناجر لشراء بعض الحاجيات . ورأى فرونسكي في عينيها اللامعتين ، وحركاتها العصبية ، ولهجتها السريعة في الكلام ، أنها تخفي شيئاً ! فكتم قلبه وانزعاجه على مضض ، ريثما أعد الخدم العدة كي يتناول الأربعة العشاء معاً . وفيما هم يتأهبون للجلوس حول المائدة ، أقبل رسول من قبل الأميرة بتسبي يحمل رسالة منها إلى « أنا » تعتذر فيها عن تخلفها عن الحضور لزيارتها ، ثم ترجو منها أن تذهب إليها في موعد حددته .. فقالت « أنا » للرسول وهي تبسم ابتسامة واهنة :

— يؤسفني أني لن أستطيع الذهاب في هذا الموعد !

فقال الرسول : « إن هذا يسوء الأميرة ولا شك ! »

فقالت : « وهو يسوؤني أيضاً ! » . وسكنت . فعاد الرسول

يقول : « لعلكم ذاهبون لسباح (بائي) في الأوبرا ؟ » ، فقالت :

« بائي ؟ لم تكن لدى هذه الفكرة ، ولكن لا مانع عندي من الذهاب

إذا وجدت مقصورة في الأوبرا » ، فقال : « إذا شئت في وسعي

الحصول لك على مقصورة هناك ! » .. فقالت : « أكون شاكرة

لك . هل لك أن تتناول العشاء معنا ؟ »

ووجد فرونسكي نفسه في حيرة تامة أمام تصرفات « أنا » ، وساءل نفسه في غيظ مكبوت عما دعاها إلى دعوة الأميرة « أوبلونسكي » للعشاء ، ثم استبقاها رسول بتسبي للعشاء معهم أيضاً ، فضلاً عن تفكيرها في الذهاب إلى الأوبرا ، حيث ينتظر أن تلتقي هناك بجميع أفراد بيتها الذين تقتضيها الحكمة أن تتجنبهم ! .. ونظر فرونسكي إليها نظرة فيها كل تساؤل هذا ، فما كان جوابها إلا أن حذجته بنظرها المتحدية ، التي تجمع بين المرح واليأس ، والتي لم يفهم مغزاها على الإطلاق ! وحين حضر الأمير « ياشفين » وجلس الخمسة إلى المائدة ، كانت « أنا » بادية المرح والانطلاق ، تكاد تغازل « ياشفين » تارة ، وتغازل الرسول صديق بتسبي تارة أخرى ! .. فلما نهضوا عن المائدة مضى صديق بتسبي ليحصل لأنا على تذكرة الدخول إلى الأوبرا ، بينما هبط ياشفين مع فرونسكي إلى حجرته بالطابق الأسفل كي يدخنا ويتحدثا فيما بينهما من شئون . وحين صعد فرونسكي إلى جناح « أنا » بعد حين وجدها قد ارتدت ثوباً فاخراً من ثياب السهرة — كانت قد ابتاعته من باريس — عارى الصدر ، مصنوعاً من الحرير الشفاف والقطيفة .. وحلت رأسها بغطاء من الدانتلا البيضاء الثمينة ، فبدأ جالها الرائع في أبهى صورته ! فقال لها متعمداً ألا ينظر إليها :

— أذهبة أنت حقاً إلى الأوبرا ؟

— ولم تسألني بهذا الانزعاج ؟ .. لم لا أذهب ؟ !

فأجابها متجهما : « حقاً .. ليس ثمة سبب على الإطلاق ! » ..
على أنها تعمدت أن تتجاهل السخرية البادية في لهجته ، وقالت
وهي تتناول قفازها الطويل المعطر : « هذا ما أراه أنا أيضاً ! » ..
وعندئذ صاح بها ضارعا ، كما فعل زوجها يوماً :

— « أنا » ، بحق السماء ماذا دهاك ؟ !

— لست أفهم ماذا تعنى !

— ألا تعلمين ما في ذهابك من مجازفة ؟ !

— لست ذاهبة وحدي ، ستكون الأميرة معي !

فهز كتفيه في حيرة ويأس ، ثم أردف قائلاً : « هل تقصدين
أنك لا تعلمين أن .. » .. فقطعت كلامه صائحة : « لست أبالي !
لست أبالي ! أنتي لست آسفة على ما فعلت ! كلا ! كلا ! ..
ولو أنني وجدت في الظروف ذاتها مرة أخرى ما نصرفت إلا تصرفي
هذا نفسه ! » .. ثم أردفت قائلة ، دون أن تترك له فرصة للكلام :
« فرونسكي .. إن كل ما يهمني — كليتنا — لا يعدو أمراً واحداً ،
هو : هل يجب كل منا الآخر أم لا ؟ أما الناس فلست في حاجة إلى
أن نعبأ بأرائهم . لم لا أذهب ؟ أنتي أحببك ، وإذا لم يكن شعورك
قد تبدل فلست أبالي بأي شيء ! لم تتجنب النظر إلى ؟ » ..

ونظر إليها .. فأخذت عيناه يجال محياها ، وأناقة ثيابها
وزيبتها ، ولكن تصرفها على ذلك النحو بقي يحز في نفسه ، فقال
لها في ضراعة ورقة ، وإن بدا الفتور في عينيه : « أنت تعلمين أن

شعوري نحوك لا يمكن أن يتغير ، لكنني أرجو ، بل أتوسل
إليك .. » .. ولم تسمع هي كلماته ، إذ شغلها التفكير في الفتور
البادي في عينيه ، فقطعت كلامه قائلة : « وأنا أرجو أن توضح
لي لم ينبغي ألا أذهب ! » ..

— لأن ذهابك قد يسبب لك ..

وتردد .. فأردفت هي : « لست أفهم .. أن » باشسفين :
ليس بالرجل الذي يثير الريب ، والأميرة ليست أسوأ من
الأخريات ! .. أوه ، ها هي قد اردت ثياب السهرة وعادت ! »

.. . .

● حينما لحق فرونسكي بأنا في الأوبرا ، كانت الأتوار قد
أضيت فتلاً وهجها من مئات الشمعدانات والثريات ، والتفت
حاسة النظارة في عاصفة من التصفيق المدوي ، إعجاباً بالمغنية
الأولى ، التي انحنت ترد لم التحية وتبسم وهي تتلقى عشرات من
باقات الأزهار التي انهارت عليها من كل صوب ! .. على أن
فرونسكي لم يلق باله إلى هذه المظاهرة المألوفة ، وجعل يلير
بصره فيما حوله : كانت هناك المجموعة عينها من النساء ، بصحبة
المجموعة عينها من الرجال ، التي ألف أن يراها في مثل هذه
المناسبات ! .. ولم يكن بصره قد وقع بعد على « أنا » ، لكنه
عرف — من اتجاه النظارات — أين تجلس ، فتعمد أن يتجنب
الالتفات إلى ناحيتها ! وأحس شيئاً من الارتياح حين تبين تخلف

أليكنسى عن الحضور إلى المسرح في هذه الليلة . ثم تناول المنظار الكبير وراح يجبله في حذر في كل اتجاه .. وفجأة لمح رأس « أنا » الجميل الأثني ، وقد رفعت على فمها ابتسامة ساحرة ، وأشرق وجهها داخل إطار الدانتلا البيضاء . كانت في المقصورة الخامسة ، على قيد عشرين خطوة منه ، جالسة في مقبلة المقصورة تحدث إلى ياشفين ! وذكّرته هيبتها بليلة رآها في الحلقة الراقصة في موسكو ، لكن نظراته إلى جمالها تغيرت كثيراً عنها في المرة الأولى ، وفقدت عنصر الغموض والفضول . وبرغم أن هذا الجلال قد إزداد بهاء وحدة ، فقد بدا لعينيه وكأنه اكتسب طابع الأذى والخطر ! وحين أدار فرونسكى منظاره ناحية المقصورة مرة أخرى رأى الأميرة تضحك ضحكاً متكلفاً وقد احمر وجهها ، وراحت تلتقي نظرات منقطعة إلى المقصورة المجاورة ، بينما حرصت « أنا » على تجنب النظر في ذلك الاتجاه ، واتخذت وجه ياشفين ذلك التعبير المألوف منه كلما خسر مالا في القمار ، وكان بدوره لا يفتأ يختلس النظرات إلى المقصورة المجاورة !

كانت تجلس في تلك المقصورة أسرة « كارتاسوف » ، التي يعرف فرونسكى أفرادها ، ويعلم أن « أنا » تعرفهم كذلك معرفة وثيقة . وكانت السيدة — مدام كارتاسوف — قد نهضت وأعطت ظهرها لأنا ، بينما وقف زوجها — وهو رجل يدين أصلع — يعاونها على ارتداء معطفها . وكانت تتكلم في حدة ، وقد شحب وجهها

وبدا عليه الغضب ، في حين أخذت زوجها يهدى من تأثيرها وتلفت بين حين وآخر إلى ناحية « أنا » . فلما خرجت زوجته تلكاً بعدها برهة ، كأنما يحاول أن تلتقي عيناه بعيني « أنا » ، كى ينحنى لها محمياً .. لكن هذه حرصت فيما يبدو على تجاهله ، فخرج آخر الأمر بدون أن يلقي إليها بالنحية .. وبقيت المقصورة شاغرة !

لم يستطع فرونسكى أن يفهم على وجه الدقة ما حدث بين أسرة كارتاسوف وبين أنا ، لكنه استنتج مما لاحظته أن شيئاً يتطوى على إهانة لها قد وقع ، ولا سيما بعد ما رأى وجه أنا يختلج ، وأنها تحاول قمع اختلاجها جاهدة .. على أنها أفلحت على وجه العموم في الاحتفاظ بشباتها المتكلف وإخفاء انفعالها عن كل من لا يعرف طبيعتها أوثق المعرفة ، بحيث لم يكن ليدور في خلد من يراها إلا أن يعجب بحسنها الباهر ، دون أن يخالجه أدنى ريب في أنها تعاني في تلك اللحظات ما يعانيه المضارب في بورصة المال !

وانتاب فرونسكى حمى من الفضول والاهفة على معرفة ما حدث ، فنهض متجهاً إلى مقصورة أخيه . وفي الطريق التي بزوجة أخيه « قاريا » ، فصافحته ، وابتدرته قائلة في انفعال لم يلحظه عليها من قبل : « إنها ضعة وحفارة كريهة ! ما كان يليق بدمام كارتاسوف أن تفعل ذلك . إن مدام كارنينا .. »

— ولكن ما الذى حدث ؟ لست أعرف شيئاً على الإطلاق !

— ماذا ؟ ألم تسمع ؟

— كلا ! إني آخر شخص يمكن أن تبلغ إليه هذه الأخبار !
 — ليس أحقر في رأي من هذه « المدام كارناسوف » !
 — ولكن ما الذي فعلته ؟
 — لقد قصص على زوجي أنها أهانت مدام كارنينا ! كان زوجها قد بدأ يتجاذب أطراف الحديث مع « أنا » من مقصورته ، فنارت نائفة زوجته وتنفوخت بعبارة ماسة بأنا ، بصوت مسموع ، ثم غادرت المسرح على الفور ! وفيما كان فرونسكى يتحدث مع زوجة أخيه ، جاءه رسول من قبل أمه يدعوه إليها — وكانت في مقصورة أخيه الأكبر — فضى إليها ، وابتدرته قائلة في تهكم :
 « لقد انتظرنا حضورك طول الوقت ، لكنك كنت غافداً عن الأنظار ! »

— مساء الخير يا أماء ، ها أنذا قد جئت !
 — لم لا تذهب لمغازلة مدام كارنينا ؟ إنها أكثر فتنة وافتناً للأنظار من المغنية « باقى » !
 — أرى ، لقد سألتك ألا تحدثينى في هذا الموضوع مطلقاً !
 — لست أقول غير ما تلوكة الألسنة كلها !
 ولم يجب فرونسكى ، بل بادر إلى الخروج وهو يحس بالدم يغلى في عروقه . وبأنه ينبغي أن يفعل شيئاً ، لكنه لا يدري ما هو ! إن قلبه مغمم غضباً على أنها لأنها وضعت نفسها ووضعته في مثل هذا الموقف الشائك ، لكن قلبه مغمم بالشفقة عليها أيضاً ! ..

ومضى رأساً إلى مقصورتها ، فانحنى لها ، ووقف ليصافح الذين معها .. فابتدرته هى قائلة في تهكم : « أنك جئت متأخراً ، فقد فاتتك أروع أغنية ! »

— أنى لست خبيراً بالموسيقى على أى حال !
 — مثل الأمير « ياشفين » ، إن من رأيه أن « باقى » تغنى بصوت أعلى مما ينبغي !
 .. ثم أطمئت الأنوار ، فعاد فرونسكى إلى مقعده . لكنه لاحظ في منتصف الفصل الثانى أن مقصورة « أنا » قد خلت منها ، فهرع خارجاً أثناء التمثيل ، غير مبال بصهبة الاستياء وطلب الصمت التى لاحقه بها بعض النظارة لتعكيره سكون القاعة ! .. وحين بلغ الفندق وجد « أنا » قد سبقته إليه ، ورآها جالسة على أحد المقاعد دون أن تخلع شيئاً من ثيابها ، وقد شرد بصرها في الفضاء . فلما دخل ، التفتت إليه ، ثم عادت إلى وضعها السابق .. فصاح بها :
 « أنا ! .. » وإذ ذاك نهضت ، وأجابته ودموع اليأس والكراهية تبلبل صوته :

— أنت ، أنت المسئول عن كل ما حدث !
 — لقد رجوت منك ، توصلت إليك ألا تذهبي .. كنت أعلم أن السهرة سوف تكون غير سارة !
 — غير سارة ؟ بل قطيعة ، لن أنساها ما حييت . لقد سمعتها تقول بأعلى صوته : « إن من العار أن تجلس بجانب .. ! »

— ثرثرة امرأة حقاء ! ولكن ما كان أغناك عن تعريض نفسك لمثلها ، وتحدى الناس جميعاً !

— إنى أمقت هدوءك ! ما كان ينبغى أن تقودنى إلى هذه النتيجة . لو أنك أحببتى !

— أنا ؟ ! ما دخل موضوع حبنى فى هذا الشأن ؟

— لو أنك أحببتى كما أحبك .. لو أنك تعذبت مثلى !

ونظرت إليه نظرة أسي ولوعة .. فرئى لحالها ، وإن بقى غاضباً من تصرفها ، ثم اضطر — كى يهدىء من ثائرتها — إلى أن يؤكد لها حبه ، ويكرر أدلته عليه .. ولم يوجه إليها أية كلمة لوم أو تأنيب ! .. على أن توكيده حبه — الذى بدا له أمراً مبتدلاً ، خجل من النطق به — نزل على قلبها برداً وسلاماً .. ولم تمض برهة قصيرة حتى هدأت ثائرتها !

وفى الصباح كانا قد تصالحا تماماً ، فحزما أمتتهما وشدا رحالهما عائدين إلى الريف !

الفصل السادس

— ١٩ —

• كانت دوللى وأطفالها يقضون الصيف فى ضيعة ليفين — زوج شقيقها كيتى — حين بلغها نبأ قدوم أنا وفرونسكى إلى ضيعة الأخير ، لقضاء أسابيع . وبرغم بعد الشقة بين الضيعتين ، قررت دوللى أن تذهب لتزور أنا ، ولتظهر لها أن عواطفها نحوها لم تتغير ، تبعاً لتغير موقفها ونظرة المجتمع إليها ! وكانت دوللى تعلم بتوتر العلاقات بين ليفين وكيتى من جهة ، وبين فرونسكى وأنا من جهة أخرى ، وذلك منذ استشار أنا بفرونسكى وعدوله من أجلها عن خطبة كيتى .. ومن هنا لم نشأ دوللى أن تستعير عربية ليفين ، ذات الجياد الأربعة ، كى تقلها إلى حيث تقطن أنا ، وآثرت أن تستأجر عربية من إحدى حظائر القرية ! لكن ليفين ما كاد يعلم بالامر حتى أصر على أن تذهب فى عربته ، مؤكداً أنه لا يمانع البتة فى زيارتها لمتزل فرونسكى !

وحين وصلت دوللى ، بعد أن استغرقت الرحلة نهراً كاملاً ، استقبلتها أنا مرحبة ، وبادرتها قائلة : « إنك تنظرين إلى وتعجبن ، كيف أستطيع أن أكون سعيدة فى وضعى الحالى ؟ .. لكنى فى الواقع — وإن أخرجتنى أن أعترف بذلك — سعيدة كل السعادة ! إن شيئاً أشبه بالسحر قد حدث لى . وكما تحسبن بالراحة والغبطة

حين تستيقظين من كابوس مرعب زهيب ، كذلك أحسست أنا حين استيقظت من حياة التعاسة والخوف التي كنت أحيها ..
وها أنذا الآن .. ولا سبيل منذ حضرنا إلى هنا - أستمتع بسعادة كاملة ! .. وصحت ، وهي تنظر إلى ضيفتها وتبتسم في خجل ..
فايتمت دوللي بدورها وأجابتها ، في لهجة جاءت برغمها أبرد مما أرادتها :

- لكم يسرني أن أسمع منك ذلك . لماذا لم تكتبي إلى ؟
- لماذا ؟ لأنني لم أجد الشجاعة الكافية . إنك تتناسين موقفي !

- معي أنا لا تجد الشجاعة ؟ ليتك علمت كيف كنت ..
لأنني أرى ..

ولم تتم عبارتها ، إذ شعرت بأنه قد فات أوان التعبير عن أفكارها ، وفي أثناء تردها سألتها أنا :

- كيف ترين موقفي ؟ .. وماذا تعتقدين في صده ؟
- لست أعتقد شيئاً سوى أنني كنت دائماً - وما أزال -
أحبك ، وإذا أحب الإنسان شخصاً فإنه يحبه كما هو في الواقع ،
لا كما ينبغي أن يكون !

وحولت أنا عينيها عن وجه صديقتها ، وأرخت أجنفانها وقد بدا عليها التردد ، كما لو كانت تحاول التعمق في المعنى الحقيقي الكامل لكلام صديقتها ! وإذا انتهت إلى تفسيره كما بدا لها ، عادت

تنظر إليها وتقول : « أيا كان رأيك ، فأنا سعيدة بحضورك لزيارتي وأشكر لك هذه العاطفة النبيلة ! » .. ورأت دوللي الدموع تطفو على عين صديقتها ، فضغطت يدها في صمت .. وعندئذ استدارت أنا إليها متسائلة : « هل في استطاعتك البقاء هنا بعض الوقت ؟ يوماً واحداً مثلاً ؟ أحسب ذلك مستحيلاً ! » .

- لقد وعدت بالعودة مباشرة . ثم هناك الأطفال ..
- لا .. لا يا عزيزتي دوللي ! على أي حال سوف نرى ..
تعالى معي ، تعالى !

ثم قادتها إلى غرفة الضيافة الأنيقة ، وقالت لها وهي تجلس بجانبها : « كم أنا سعيدة يا عزيزتي . حدثيني عن كل أمورك .. كيف حال ابتك اللطيفة « تانيا » ، أحسبها غدت صبية كبيرة الآن ؟ » .

- نعم ، وطويلة القامة جداً . لقد قضينا أياماً ممتعة في ضيافة ليقين .

- آه لو كنت أعلم أنك لا تضميرين لي احتقاراً ، لدعوتكم جميعاً إلى قضاء أيام عندنا . إن ستيفان صديق قديم لقرونسكي !
واضطجع وجه أنا فجأة بحمرة الخجل ، من إشارتها إلى عشيقها .. فأجابت دوللي في ارتباك : « نعم ، لكننا جميعاً .. » ..
وحين لاحظت أنها تردها ، قاطعتها وهي تقبلها مرة أخرى :
« يبدو أن فرحتي تجعلني أهذى بترهات .. الشيء المهم في الأمر

كله يا عزيزتى أنى جدم مقبلة بزيارتك ، لكنك لم تذكرى لى حتى الآن : ماذا تعتقدين فى ؟ لشد ما يشوقنى أن أعرف ! وإنه ليسرنى أن ترينى كما أنا ، على حقيقى . لنى لا أبغى غير أن أعيش ، ولا أودى أحداً غير نفسى ! — فلست أملك حق إبداء الغير ! — لكن هذا موضوع شائك ، وسوف نتكلم فيه بالتفصيل فيما بعد ! .

وكان موعد العشاء ما يزال باقياً عليه حوالى ساعتين ، فاقترح فرونسكى على أنا أن يأخذا ضيفتهما إلى نزهة فى الحديقة يستقلون بعدها زورقاً للثترة فى النهر .. وسرعان ما نفذ هذا الاقتراح . وقد أعجبت دوللى بكل شئ رآته ، ولا سيما بشخصية فرونسكى ، ومزجه الطبعى ، وبساطته المحبة ، فحدثها نفسها غير مرة قائلة :

« نعم ، إنه رجل ظريف حقاً ، وطيب » وكم من مرة حاولت وهى تراقبه أن تضع نفسها موضع أنا وتنظر إليه من هذه الزاوية ، فكانت فى كل مرة تلتبس لأنا العذر فى كونها أحبت ! .. وفيما كانوا يتجولون فى الحديقة ، انتهز فرونسكى فرصة انشغال « أنا » بتفقد الجياد فى حظائرها ، وهمس لدوللى وهو يرمقها بعينين صاحكتين : « هناك شئ أحب أن أقوله لك : إنك صديقه لأنا ، وهى شديدة الشغف بك » فهل لك أن تساعدنى فى إقناعها بأمر ، من الخير لها أن تقتنع به ؟ .. ثم سار بجوار ضيفته صامتاً بعض الوقت ، وعاد فأردف : « إنك وحدك — دون صديقات أنا القديمات — التى حضرت لزيارتنا ! لكنى واثق بأنك لم تفعلى

ذلك لأنك تعتبرين موقفنا طبيعياً لا غبار عليه ، بل لأنك تفهمين كل المضاعب التى تكتنف هذا الموقف ، وما زلت تحبين « أنا » وترغبين فى مساعدتها .. أليس كذلك ؟ »

— أوه ، نعم .. ولكن ..

— كلا ، ما من شخص يشعر بحرج موقف « أنا » فى حدة وتعمق مثلاً أشعر به أنا ! وإذا منحنى شرف الافتراض بأنى أملك قلباً بين جوانحى ، فلا شك أنك تفهمين جيداً أنى أنا المشغول عن هذا الوضع الأليم ، وهذا ما يزيدنى شعوراً به !

— أفهم قصدك . ولكن لأنك تعتبر نفسك مشغولاً ، فأنت فيما أعتقد تغالى فى الأمر ، وإن كنت مقتنعة بحرج موقف « أنا » لزاء المجتمع ؟ !

— بل إنه الجحيم بعينه ! وليس فى استطاعتك تصور آلام نفسية أظلم مما قاسته « أنا » فى بطرسبرج خلال الأسابيع الأخيرة ! — هذا صحيح ، ولكن ما دمنا لا نشعران هنا بحنين أو شوق إلى المجتمع ..

— المجتمع ؟ كيف يمكن أن أشتاق إليه ؟

— إنك حتى الآن — وربما إلى الأبد — سعيد وساكن النفس . وما أراه من « أنا » يحملنى على الاعتقاد بأنها هى الأخرى سعيدة ، سعيدة جداً ! لقد قالت هى ذلك بلسانها !

— نعم ، نعم .. أعلم أنها قد انتعشت الآن ، بعد كل ما قاسته ،

وأنا سعيدة .. سعيدة في الحاضر ! لكنني .. لكنني أخشى ما ينتظرنا في المستقبل ، فهل يمكن أن تدوم هذه السعادة ؟ .. لست الآن بصدد تقدير ما انطوى عليه تصرفنا من صواب أو خطأ ، فإن هذا لن يغير شيئاً من الحقيقة الواقعة : وهي أننا غير مرتبطين معاً برابط مشترك مدى الحياة ! .. ورغم أنه تربطنا جميع وشائج الحب التي تقدسها - فقد أنجبنا طفلاً ، وربما تنجب أطفالاً آخرين ! - إلا أن القانون ، وشئى ملازمات موقفنا ، تضع في طريقنا آلافاً من العقبات والعوائق التي لا تراها أنا ، ولا تريد أن تراها ! .. في حين أنني لا أملك إلا أن أرى هذه العقبات .. من ذلك مثلاً أن ابنتي هي بحكم القانون ابنة أليكسي وليست ابنتي ، وأنا لا أستطيع تحمل هذا الزيف ! .. وغداً قد يولد لنا ولد - هو ابني أنا - لكنه بدوره سوف يحسب قانوناً ابن أليكسي ، فلا يرث اسمي ولا أملاكى ! .. ومهما كن سعيداً في حياتنا الخاصة ، ومهما نرزق بأطفال ، قلن تكون بيننا رابطة حقيقية - ولعلك تقدرين مرارة هذا الوضع ! - ولقد حاولت أن أكلم « أنا » في هذا الموضوع ، فكان ذكره يثيرها دائماً ! إنها لا تفهم الموقف كما ينبغي ، بل إنني لا أستطيع التحدث إليها بصراحة في شأنه ! .. ثم انظرى إلى الأمر من ناحية أخرى : إنني سعيد حقاً بحبها ، لكنني ينبغي أن أجد لي عملاً أشغل فيه وقتي وجهدي . وقد وجدت هذا العمل ، وأنا فخورة به وأعتبره أنبل من وظائف زملائي القدامى في

الجيش والبلاط . إنني أعمل هنا وقد استقر في المقام في مكانى المناسب ، وأنا سعيد قانع ، ولست في حاجة إلى شيء آخر يكمل سعادتنا . إنني أحب عملي هنا ، والواقع أنه ..

ولاحظت دوللي أن فرونسكى اعتراه اضطراب ، وأنه يجاهد لكي يقضى إليها بدخيلة نفسه .. لكنه تمالك جأشه بعد حين واستطرد : « غير أن العامل الأهم في الأمر كله هو أنني أريد أن أشعر وأقتنع عن يقين - وأنا أعمل - بأن عملي لن يموت بموتى ، وبأنه سيكون لي وريثة يخلفونى .. وهذا ما يتقصى الآن .. فبربك تدبرى موقف رجل يعلم أن أطفاله ، وأطفال المرأة التي يحبها ، لن يتسبوا إليه .. بل لابد من انتسابهم إلى شخص آخر يحميهم ولا يعنى بهم أو يقيم لهم وزناً ! .. إنه لأمر فظيع ! » .

ثم أطرق وقد غلبه التأثر .. فقالت له دوللي : « هذا كله صحيح ومفهوم ، ولكن ماذا تستطيع « أنا » أن تفعل ؟ .. فأجابها فرونسكى : « هذا يؤدي بي إلى هدف كلاسي : تستطيع « أنا » أن تفعل الكثير ، والأمر يتوقف عليها دون سواها .. فحتى لو تقدمنا للقيصر بطلب إقرار شرعية نسب الأطفال ، فإن الطلاق يظل أمراً لا بد منه .. وهذا يتوقف على رغبة « أنا » ! فقد وافق زوجها على الطلاق - وكان لزوجك فضل إقناعه بذلك - وهو لن يمانع فيه الآن فيما أعتقد ، فكل ما يحتاج الأمر إليه أن تكتب « أنا » خطاباً بهذا المعنى . صحيح أن مطالبته بإياها بهذا الخطاب فيها

شيء من القسوة - وإني لأقدر العذاب الذي تسببه لأنا كتابة خطاب كهذا ! - لكن المسألة من الأهمية بحيث لا يبقى مفر من التجاوز عن الاعتبارات العاطفية ، سيما وأن الأمر يتوقف عليه سعادة أنا وسعادة أطفالها - ولن أتحدث عن نفسي ، رغم الآلام التي أقاسيها من جراء محاولتي إقناعها بأن تكتب إليه ، وتطلب منه الطلاق ! »

فأجاب دوللي كالحالمة ، وهي تذكر حديثها الأخير مع أليكسي : « بكل تأكيد .. بكل تأكيد ! » .. بينما استطراد فرونسكي يناشدها : « في استطاعتك أن تستخذي نفوذك عندها ، لتجعلها تكتب إليه .. فإني لا أرغب - بل لعل لا أقوى - على أن أتحدث إليها في هذا الشأن ! » .. فقالت دوللي : « حسن جداً ، سوف أحدثها في الأمر . ولكن كيف لا تفكر هي فيه ، من تلقاء نفسها ؟ » .. ثم شردت لحظة ، وعادت تكرر ، جواباً على نظرة الشكر التي بدت في عينيه : « نعم ، بلا شك .. من أجل أنا نفسي ، ومن أجلها هي ، سأحدثها في الأمر ! »

...

● كانت دوللي تنهياً للمضي إلى فراشها ، حين دخلت « أنا » عليها مرتدية ثياب النوم : وكانت « أنا » قد شرعت أكثر من مرة - خلال النهار - في التحدث إلى صديققتها عن أمورها الخاصة ، لكنها كانت تتوقف في كل مرة قائلة لنفسها : « فيما بعد ، حين

نخاو إلى أنفسنا ، سوف نتحدث في كل شيء .. فإن عندي الكثير الذي أود أن أفصح به إليها » .. على أنها بعد أن خلت إليها في هذه الساعة المتأخرة من الليل ، لم تدر كيف تبدأ الحديث ، فجلست إلى جوار النافذة تنظر إلى دوللي ، وتستعرض في مخيلتها كل ما اخترته من موضوعات خاصة كانت تبغي أن تفضي بها إليها ، فلم تجد بينها ما يصح الإفشاء به ! لقد خيل إليها الآن أن كل شيء قد قيل واستنفذ بحثاً ! .. فأثرت أن تفتح الحديث من باب آخر . قالت وهي تنهد : « ما أنباء كيتي ؟ . صارحيني القول يا دوللي ، أليست غاضبة مني ؟ » .

- غاضبة ؟ . أوه ، كلا !

- لكنها ولا شك تكرهني .. تحقرني ؟

- كلا ! لكنك تعلمين أن هذه الأشياء لا تغفر بسهولة !

- نعم ، أعلم ذلك . لكنني لم أكن الملوثة . ومن المعلوم في هذا الأمر ؟ وما معنى اللوم في صدد شيء كهذا ؟ هل كان يمكن أن يحدث غير ما حدث ؟ ماذا ترين أنت ؟ هل كان يمكن ألا تصبحي أنت زوجة لستيفان ؟

- في الواقع ، أنا لست أدرى ! وهذا ما أريد أن أعرفه منك .

- حسناً ، لكننا لم ننته بعد من حديث كيتي ، أهي سعيدة ؟

يقولون إن زوجها رجل ظريف ..

زارتنى فى بطرسبرج كانت « بئسى تفرسكوى » التى تعرفين أنها أحقر امرأة وجدت على سطح الأرض . لقد خانت زوجها مع « توشكينش » على أخط صورة يمكن تصورها ! .. فهل تعلمين ماذا قالت لى ؟ إنها لا تريد أن تكون لها صلة بى ما دام موقفى غير سليم ! .. والآن ، ماذا قال لك فرونسكى عنى ؟

— إنه قلق عليك ، وعلى نفسه . قد تقولين : إن هذه أنانية .. لكنها أنانية مشروعة ونبيلة . إنه يريد أول كل شىء أن يقرر شرعية نسب ابنته ، وأن يصير زوجاً لك ، له عليك حقوق الزوج القانونية !

— إن أية زوجة بل أية امرأة لا يمكن أن تكون خاضعة له مثلى فى موقفى الحاضر !

— لكنه لا يريد أن تشقى أنت وتعذبى ..

— هذا مستحيل ! .. ثم ماذا يريد أيضاً ؟

— يريد أن يكون لأطفالكما اسم ينتسبون إليه !

— أى أطفال ؟

— ابنته « آنى » ، وأولئك الذين سوف ينجبون ..

— لا داعى لأن يشغل ذهنه بالتفكير فى هذا الموضوع ، فلن يكون لى أطفال آخرون !

— كيف تجزمين بذلك ؟

— أجزم لأنى لا أريد أطفالاً بعد الآن !

— إنه أكثر من ظريف ، بل لست أعرف رجلاً أفضل منه على الإطلاق !

— لكم يسرى ذلك !

— ولكن دعينا من هذا وحدثينا عن نفسك ، فأمامنا أشياء كثيرة نناقش فيها . وقد كان لى حديث طويل فى هذا الشأن مع .. فرونسكى !

— أعرف فيم تحدثنا .. لكنى أردت أن أسألك أولاً عن رأيك فى .. فى حياتى ؟

— وكيف أستطيع أن أقطع فى هذا برأى سريع ؟ فى الواقع لست أدرى ..

— بل صارحينى برأيك على أى حال .. ولكن ينبغي ألا تنسى أنك تريننا فى الصيف ، وأنت الآن معنا ولسنا وحيدين .. أما يوم جئنا فقد كنا فى الربيع ، نعيش وحلداً ، وسوف نعود فنفسدو وحيدين .. ولست أطمع فى شىء أفضل من هذا . ولكن ماذا قال لك هو حين تحدث إليك ؟

— قال ما أحب أنا أيضاً أن أقوله ، وفى وسعى أن أنوب عنه فى الحديث بسهولة ، فى صدد الحديث عن استعدادك لأن تصححى موقفك .. أعنى أن تتزوجا !

— تعنين أن أحصل على الطلاق ؟ .. أنتى لست زاهدة فى هذه النتيجة ، وليس أدل على ذلك من أن المرأة الوحيدة التى

ولاذلحت « أنا » على وجه دوللى علامم الفضول والعجب ،
والذعر الساذج ، لم تملك إلا أن تبسم وتبادر إلى إيضاح كلامها
قائلة : « لقد صارحنى الطبيب بعد مرضى بأنى لن أرزق أطفالاً
آخرين ! » .

— إذن فهذا أدعى إلى أن تصححنى موقفك ما استطعت !

— نعم ، ما استطعت !

— لعلك لا تعنين أن حصولك على الطلاق أمر مستحيل .. فقد
قبل لى إن زوجك وافق على الطلاق !

— دوللى ، لست أريد الإفاضة فى هذا الموضوع !

— إذن فلن نفيض فيه . كل ما أريد أن أقوله إنك تتظرين إلى
الأمور نظرة متشائمة .

— دوللى ، ألا ترين حرج موقفى ؟ لى أحاول أن أتجاهل
الأمر تماماً لو استطعت !

— لكنى أعتقد أنك ينبغى ألا تفعلى .. ينبغى أن تبدلى كل
ما فى وسعك .

— وماذا فى وسعى ؟ لا شيء . تطالبين لى أن أتزوج من
فرونسكى ، وتحسين أئى لا أفكر فى هذا الأمر ؟ !

وصعد الدم إلى وجهها ، ثم نهضت فتمطت وزفرت زفرة
حرى من قلب مثقل ، ثم راحت تذرع المكان ذهاباً وجيئة وهى
تستطرد : « لى أفكر فيه ، وألوم نفسى على تفكيرى فيه ! إن

هذا التفكير قد يفقدنى عقلى . نعم ، يفقدنى عقلى ! .. فكلمنا فكرت
فيه أجلى لا أستطيع النوم بغير « المورفين » ! .. ولكن دعينا من
ذلك ، ولنتكلم فى هدوء . يقولون لى : الطلاق ! .. وأول جواب
لى على هذا : أنه لن يمنحنى الطلاق ! إنه الآن خاضع لتأثير الكوننة
ليديا إيفانوفنا !

انتصبت دوللى فى جلستها ، وأدارت رأسها تتبع « أنا » حيثما
راحت ، بوجه يبين فيه الإشفاق والتألم لصديقها .. ثم قالت فى
هدوء ونعومة :

— فى وسعك أن تحاولى على الأقل !

— افرضى أئى حاولت .. فإذا يعنى هذا ؟ يعنى أن أذل نفسى
كى أكتب إليه ، أنا التى أكرهه ، مسجلة على نفسى أئى قد أئمت
فى حقه ، وأنه نبيل غفور ! .. ثم افرضى أئى حاولت ذلك ، فإذا
تكون النتيجة ؟ إما أن أثلقى رفضاً مهيناً ، أو قبولاً مذلاً ! .. على
أنا لو سلمنا جدلاً بأئى تلقيت منه رداً بالقبول .. فإذا يكون من
أمر ابنى ؟ .. إنهم لن يعطونى آياه . وسينشأ طاوياً قلبه على الاحتقار
لى ، مثل أبيه الذى هجرته ! .. أترين ؟ .. لى أحب « سريوشا »
و « فرونسكى » ، بالتساوى فيما أعتقد .. أحب كلاهما أكثر
مما أحب نفسى !

ثم أقبلت فوققت فى مواجهة دوللى وقد عقدت يديها على
صدرها ، وأردفت : « هذان هما المخلوقان اللذان أحبهما ، لكن

كل واحد منهما يطرد الآخر من حياتي ! .. ليس في وسعي أن أحصل عليهما معاً ، وإن كان ذلك كل ما أتمناه . ولما كنت لا أستطيع الحصول عليه ، فليس يهمني بعد ذلك شيء آخر من شئون دنياي .. لست أعبأ بأى شيء فيها على الإطلاق ، وليكن ما يكون ! لذلك لست أطيع ، ولا أريد ، أن أتحدث في هذا الموضوع .. فبربك لا تلومني ! إنك بقلبك النقي لا تستطيعين أن تفهمي العذاب الذي أفاسيه ! .. ثم أقبلت فجلست إلى جوار ؟ دولي ، وحدثت في وجهها ، ثم تناولت يدها قائلة : « فيم تفكرين ماذا ترين في ؟ لا تحقريني ، فليست أستحق الاحتقار .. إني ، بكل بساطة ، شقية تعة .. ولئن كانت في الدنيا امرأة واحدة شقية تعة فهي أنا ! »

ثم أجهشت بالبكاء ، وخرجت من غرفة ضيقها لا تلوى على شيء ! .. وحين وصلت إلى غرفتها تناولت قنحاً فقطرت فيه بضع قطرات من دواء كان أهم محتوياته « المورفين » . وبعد أن جرعت جلس ساكنة بعض الوقت ، ثم مضت إلى فراشها وقد تحسنت حالتها النفسية إلى حد ما !

وفي الصباح ، وبرغم احتجاجات أنا وفرونسكي ، استقلت دولي العربية التي أحضرتها ، عائدة أدراجها إلى ضيقة « ليقين » زوج شقيقها كيتي ..

- ٢٠ -

● قضى « فرونسكي » و « أنا » الصيف كله وجانباً من الشتاء في الريف ، يعيشان في مثل الظروف التي لمستها دولي خلال زيارتها لها ، دون أن يتخذا أية خطوة إيجابية في سبيل الطلاق المنشود ، أو يختلطا بأحد من الناس .. فلما حل الخريف بدأ سأمنا حياة العزلة ويفكران في تغييرها ، على صورة ما .. وصادف أن حل في أكتوبر موعد الانتخابات المحلية في منطقة (كامستسكي) ، حيث تقع أملاك فرونسكي وأبولونسكي وليقين وغيرهم ، وكانت الانتخابات المذكورة حدثاً استرعى عناية الجماهير وأحاديثها في كل مكان ، فتوافد الناس من أجلها من موسكو وبطرسبرج كي يشتركوا في معيشتها .. فلما فاتح فرونسكي أنا برغبته في الاشتراك في المعركة ، لتأييد أحد المرشحين من أصحاب الفضل عليه ، عارضت في سفره ووقعت بينهما مشادة تركت أثرًا سيئاً في نفسي كليهما . ثم حان موعد رحيله إلى الإقليم الذي يجري فيه الانتخاب ، فدخل على أنا وهو يتوجس شراً ، ويعد نفسه لمشادة أخرى ، لكنها قابلت نياً سفره بهدوء غير متوقع ، واكتفت بسؤاله عن موعد عودته ، وهي تبسم ابتسامة من ترمع في نفسها أمراً ! .. وتجاهل هو ذلك ، تجنباً للاشتباك في معركة أخرى ، محاولاً أن يقنع نفسه بأن استسلامها ما هو إلا نتيجة تعقلها وزجوعها إلى رشدتها .. فاكنتي بأن قال لها : « أرجو ألا تنصايقي أثناء فترة غيابي ! » ،

فأجابته : « كلا ! إن أتضايق : لقد تلقيت أمس في البريد طائفة من الكتب الجديدة ، وسأعكف على مطالعتها ! » . وبعد أن تبادلوا قبلات الوداع ، خرج فرونسكى وهو يحدث نفسه : « إنى أستطيع التفريط من أجلها في كل شيء ، ما عدا استقلالى الشخصى ! » .. ولكنه لم يشأ الاعتراف لنفسه بأن من أهم العوامل التى أغرته بالمشاركة في الحركة الانتخابية شعوره بالسأم من حياته في الريف ، ثم رغبته في أن يظهر لأنا حرصه على صيانة حقه في الاستقلال !

وفي اليوم السادس لرحلته ، أقام فرونسكى مأدبة تكريم لمرشحه الذى فاز في الانتخاب . وبعد أن أكل المدعوون وشربوا وقضوا وقتاً طيباً ، فوجئ الداعي بخادمه الخاص يدخل عليه حاملاً خطاباً أحضره رسول خاص من الريف ! وأدرك فرونسكى قبل أن يطلع على الخطاب أنه من أنا ، وأنها تلومه فيه لأنه لم يعد في نهاية الأيام الخمسة التى حددها لغيته ! واستنتج أن خطابه الذى أرسله إليها في اليوم السابق موضحاً فيه ظروف تأخيرها لم يصل إليها بعد .

وكان الخطاب كما توقع ، لكن اللهجة التى كتبت بها ضابقتها ، فقد قالت له : « إن الطفلة آنى » مريضة جداً ، ويخشى الطبيب على حياتها ، الأمر الذى يكاد يفقدنى عقل ! وقد انتظرتك أول أمس ، وما أنذا أكتب إليك هذا الخطاب لأعرف أين أنت وماذا تفعل . لقد فكرت في الذهاب إليك بنفسى ، لكنى خشيت أن

نستاء من ذلك . أرسل إلى رداً كى أعرف ما يتبعنى أن أفعل ! .. وساءل نفسه حائراً : « الطفلة في خطر ، والأم تفكر في الحضور ! » الطفلة في خطر ، وأنها تكتب إلى أبيها بهذه اللهجة العدائية ؟ .. أى تناقض هذا ؟ ! .. وأحسن - للمرة الأولى - أن كاهله لم يعد يقوى على حمل الأثقال التى يراكمها عليه حب أنا ! لكنه لم يجد مفرأ من العودة إليها ، فاستقل أول قطار في تلك الليلة ، عائداً إليها ، وكأنه عائد إلى سجن !

وكانت « أنا » قد أحست - قبيل رحيل « فرونسكى » ، وعلى أثر المشادة الأولى - أن تكرار المناقشات الحامية بينهما كلما فكر هو في السفر لن ينتج غير إطفاء شعلة حبه لها ، بدلا من إضرام لهيبها ، فقررت أن تبذل كل ما في وسعها كى تتألف نفسها لتتحمل الفراق بجأش ثابت . لكن النظرة الباردة القاسية التى تسلح بها وهو داخل عليها لبودعها قبيل سفره قد جرحتها ، وقبل أن يخرج كانت سكينه نفسها التى استنجدت بها قد ترعزت وانهارت ! .. وحين خلت لنفسها بعد ذلك ، واستعادت ذكرى تلك النظرة التى عبرت عن اعتداده بحقه في الحرية ، انتهت إلى حيث كانت تنهى عقب كل أزمة نفسية من هذا النوع : أحست مدى « مذلتها » في حياتها معه ، وأخذت تحدث نفسها قائلة : « إن له الحق في أن يذهب وقتما يحلو له ، وحيثما يريد . يذهب ويتركنى ! بل إن له هو كل الحق ، وليس لى أنا أى حق ! وما تلك النظرة الباردة التى رمقنى بها إلا

بداية عدم الاكتراث ، الذى هو أول نذر انطفاء الحب !

وبرغم يقينها بأن « برودا » ما من ناحيته بدأ يظهر ويتفاهم ، فلأنها لم تكن تملك أن تفعل شيئاً ! لم يكن في وسعها أن تغير صلتها به ، وكما هو الأمر دائماً ، كان الحب والفتنة هما السلاحان الوحيدان اللذان تستطيع بهما أن تحتفظ به . ومن ثم صارت تشغل نفسها بشتى وسائل التسلية خلال النهار ، وتلجأ إلى « المورفين » في الليل ، كى تحقق الفكرة الرهيبة التى لا تفتأ تراودها : فكرة ما عساه أن يحدث لو أنه كف يوماً عن حبها ، وتحول قلبه عنها ! .. وإزاء خطورة الاحتمال ، استقر عزمها على أن تسعى إلى تطليق زوجها والاقتران به هو ، عند أول فرصة تسنح لذلك !

وقضت الأيام الخمسة بعد رحيله ، وليس ثمة ما يخفف من عذابها غير التهام الكتب التى جاءتها ، كتاباً بعد كتاب ، والخروج للشئى بين المزارع والمقاول بصحبة إحدى صديقاتها .. فلما حل اليوم السادس ولم يعد ، شعرت بعجزها المطلق عن طرد الأفكار السوداء من رأسها . ثم حدث أن مرضت الطفلة فجأة ، ولكن انشغالها برعايتها لم يحول أفكارها عن اتجاهها السابق ، ولا سيما أن المرض لم يكن خطيراً . فلما حل مساء بلغ انزعاج « أنا » وقلقها لطول غيبة فرونسكى حداً جعلها تقرر السفر فوراً للحاق به ! لكنها حين أمنت الفكر فى الأمر انتهت إلى إثبات كتابة ذلك الخطاب الجاف الذى تسلمه فرونسكى خلال مأدبته الانتماخية ! .. ودون

أن تعتمد إلى مراجعة الخطاب بعد كتابته أرسلته من فورها مع رسول خاص . وفى الصباح التالى تسلمت رسالته التى برر فيها تأخره ، فأسفت على تعجلها بالكتابة إليه . وخشيت أن يحجبها حين يعود بمثل تلك النظرة الباردة القاسية التى ودعها بها ، ولا سيما حين يعلم أن مرض الطفلة لم يكن خطيراً !

وهنا لم يسع « أنا » إلا أن تعترف لنفسها بأنها غدت حملاً على كاهل فرونسكى ، وأن خطابها سيلجئه إلى التخلّى عن حريته كارهاً كى يعود إليها ! .. لكنها برغم ذلك لم تملك نفسها من أن تسر لقرب عودته ، وبأنه سيكون إلى جانبها بعد حين ! وكانت جالسة فى غرفة الاستقبال إلى جوار مصباح تقرأ كتاباً جديداً للفيلسوف « تين » ، وتصفى لصفير الريح فى الخارج ، وهى تتوقع وصول العربة التى تقله فى أية لحظة .. وكمن مرة خيل إليها أنها سمعت صوت العجلات ، ثم تبينت خطأها ! وأخيراً سمعت الصوت المنشود ، يتلوّه صياح الحوذى وضجيج الخدم فى مدخل الدار ، فنهضت واقفة وقد صعد الدم إلى وجهها . خشيت لحظة اللقاء كما نخشى الخطر الداهم ، لتلايقابلها بذلك التعبير الذى يتم عن الاستياء ، وتلك النظرة الباردة ! .. سيما وأن الطفلة قد تماثلت للشفاء فى اليومين الأخيرين ! وأحست بمقد على الصغيرة الخبيثة التى بدأت صحتها تتحسن منذ كتبت إلى أبيها .. ثم انتقلت بتفكيرها إليه هو ، إنه هنا ، بلحمه ودمه .. بيديه ، وعينه !

.. وسمعت صوته ، فنسيت كل شيء وجرت تهبط الدرجات
عدواً نحوه ، فرحة مرحبة ، وسألتها مشفقاً وهو في أسفل السلم :
« كيف حال آني ؟ » .

— أوه ، إنها في تحسن ..

— وأنت ؟

فأخذت يده بين يديها وجذبتهما إلى خصرها ، دون أن تحول
بصرها عنه .. فقال وقد فهم جوابها : « هذا يسرنى » . ومضى
يتفرس فيها ، في برود : في شعرها ، وثوبها — الذي أدرك أنها قد
ارتدته خصيصاً من أجله ! — كان كل شيء فيها جذاباً ، ولكن
كم من مرة نغم على تلك الجاذبية التي تفتته ؟ ! .. واستقر على وجهه
ذلك التعبير الجارح المتحجر الذي طالما خشنته ، فحدثت نفسها :
« لا بأس ، يكفي أنه معي . وما دام معي فهو لا يستطيع ، ولا يجرؤ
أن يكف عن حيي ! » .

وقضى الاثنان السهرة في مزح ، وعرفت « أنا » كيف ترضى
غروره فهدت له بأسئلتها السيل إلى التحدث عن نجاحه الانتخابي ،
وحدثته عن كل شيء يهمه أن يتحدث فيه .. لكنها لم تكذب تخلو
إليه في موطن الليل ، وتوقن من استردادها زمام السيطرة عليه ،
حتى حنت إلى إزالة التأثير السيئ لتلك النظرة الباردة التي قابلها
بها جزاء على خطاياها .. فسألته : « صارحني القول ، هل ضايقت
خطائي ؟ وهل شككت في صدقه ؟ » : وبمجرد إلقائها السؤال



« لا بأس يكفي أنه معي . وما دام معي فهو لا يستطيع ،
ولا يجرؤ أن يكف عن حيي ... »

أحسنت أنه مهما كانت حرارة شعوره نحوها فإنه لم يغفر لها ذلك..
وقد حقق جوابه ظناً ، إذ قال : « نعم » ، فقد كان غريب اللهجة..
في بدايته تتحدثين عن مرض الصغيرة ، وفي نهايته تفكرين في
الحقاق في ! »

— كان الأمران صدقاً !

— أوه ، لست أشك في ذلك !

— بل أنت تشك .. إنك متضائق فما أرى !

— كلا ! كل ما يضائقني حقاً أنك تظهرين أحياناً بمظهر غير
الراغبة في الاعتراف بأن هناك واجبات .. ولكن يحسن بنا ألا نتكلم
في هذا الأمر !

— ولم لا نفعل ؟

— إن أموراً ذات أهمية حقيقية قد تلوح في الأفق أحياناً !
فالآن مثلاً ، أراي مضطراً إلى السفر إلى موسكو لتدبير بيت لنا ..
أوه يا أنا ! لم تتورين لأنفك الأمور ؟ ألا تعلمين أنني لا أستطيع
العيش من غيرك ؟

— إذا كنت تنوي السفر ، فهذا يعني أنك قد سئمت هذه
الحياة . نعم ، إنك ستخذ خطة جميع الرجال : تأتي لتقضي يوماً
واحداً ثم ترحل من جديد !

— هذه قبوة منك : إنني على استعداد لأن أضحي
بحياتي كلها ..

— إذا ذهبت إلى موسكو فسأذهب معك ، لن أبقى هنا !
إما أن نعيش معاً ، وإما أن .. !

— أنت تعلمين أن حياتنا المشتركة هي أمنيتي الوحيدة ،
ولكن في سبيل ذلك ..

— يجب أن نحصل على الطلاق ؟ حسناً ! سأكتب إليه في هذا
الشأن ، فلست أطبق الاستمرار على هذا المنوال . لكنني سأذهب
معك إلى موسكو !

— إنك تتكلمين باللهجة التهديد ، في حين أنني لا أعتني شيئاً قدر
ما أعتني ألا نفترق قط !

نطق بهذه العبارة وهو يبتسم ، وقد لمعت في عينيه ، لا نظرة
باردة فحسب ، وإنما نظرة الحقد التي تصدر من رجل اضطهد إلى
الحد الذي جعله قاسي القلب ! .. وقد لاحظت هي النظرة وفهمت
معناها . كانت النظرة تقول لها : « إذا كان الأمر كذلك ، فهي
مصيبة فادحة ! » ولم تستطع أنا أن تنسى شعورها في تلك اللحظة حتى
آخر أيامها !

وعلى أثر هذا النقاش كتبت « أنا » إلى زوجها تسأله الطلاق !
وقرب نهاية نوفمبر صحبت فرونسكي إلى موسكو ، حيث ظلت
تنتظر كل يوم جواباً من أليكسي ، يتلوه الطلاق .. وفي ظل هذه
الأمنية ، اتخذ العشيقان لنفسهما مسكناً مشتركاً ، عاشا فيه علانية
كزوج وزوجة !

لقد وعدتها منذ زمن أن أقدم ليفين إليها . أين كنت ترمع أن تقضى
الأمسية يا ليفين ؟ » .

— لم أكن أقصد مكاناً معيناً ، فلنذهب إذا أردت !

ولكن لم تكده عربة ستيفان تدرج بهما فوق أرض الطريق ،
حتى بدأ ليفين يسائل نفسه عما إذا كان قد أحسن صنعاً بقبوله
زيارة « أنا » ، وعما قد تراه زوجته في شأن هذه الزيارة ؟ وكأتما
أدرك ستيفان ما يفكر فيه صديقه ، فانتزعه من أفكاره بقوله :
« لكم أنا مسرور بأنك سترها . لقد طالما تمنيت دولى ذلك . وبرغم
كون « أنا » أختى فإنى لا أتردد في القول بأنها امرأة رائعة . لكنك
ستراها بنفسك ، وإن يكن ذلك في ظرف من أسوأ ظروفها . إن
موقفها — الآن بصفة خاصة — مؤلم للغاية ! »

— ولم كان ذلك « الآن بصفة خاصة ؟ »

— لأننا نفاوض زوجها هذه الأيام في شأن الطلاق . وقد
وافق عليه ، لكن هناك صعوبات تتعلق بحضانة الطفل . وبسبب
هذه الصعوبات لم تنته المفاوضات الدائرة منذ ثلاثة أشهر إلى نتيجة
حاسمة حتى الآن ! ومتى حصلت أنا على الطلاق فسوف تتزوج
من فرونسكى ، ما أخفف هذه الإجراءات التقليدية التى لا يؤمن
بها أحد ! أنها تحول بين الناس وبين ترتيب حياتهم على الوضع
الذى يريجههم . على أن موقفها سوف يبرأ من الشوائب بعد الزواج ،
بحيث يغدو مثل موقى ، وموقفك ..

الفصل السابع

— ٢١ —

● اقترب موعد وضع « كيتى » مولودها الأول ، فانتقلت
الأميرة إلى موسكو لتكون الولادة ووليدتها في رعاية الأطباء ، وبقيّة
الأهل والصحاب . وهناك في موسكو التقت كيتى ذات مساء
— في منزل إحدى سيدات المجتمع — بخطيبها السابق فرونسكى .
وكان هذا أول لقاء بينهما بعد أن هجرها فجأة ، متأثراً بسحر أنا
كارتينا ! — على أنها مع هذا تمالكت أعصابها ، ولم يبد منها ما ينم
عن تأثرها بذكريات حبها القديم ، أو حنقها عليه بسبب فعلته
تلك ! .. وذات مساء آخر التقى ليفين في أحد الأندية بفرونسكى
وستيفان ، وجلس الثلاثة يتحدثون ، فأظهر ليفين من التسامح
وضبط النفس مع منافسه القديم في كيتى مثل ما أظهرت هذه معه .
وفي أثناء الحديث قال ستيفان محدثاً فرونسكى : « هل تعلم أن ليفين
لم ير « أنا » قط حتى الآن ؟ لقد خطر لى أن أذهب إلى منزلكم لأعرفه
بها . هيا بنا نذهب يا ليفين ! » .. فقال فرونسكى متسائلاً :
« حقاً ؟ أنها سوف ترحب بمعرفتك ؟ وقد كان بودى لو أذهب كما
الآن ، لولا اضطرارى إلى البقاء هنا لمنع « ياشفين » من التمدادى في
اللعب والخسارة ! » .. وعندئذ تناول ستيفان ذراع ليفين قائلاً :
« إذن فلنذهب نحن إليها . إنها في البيت ، أليس كذلك ؟ حسناً ؟

... وما هي الصعوبات التي تعترض تسوية الموقف ؟

— أوه ، إنها قصة طويلة ومملة : فند حضور أنا إلى موسكو قبل ثلاثة أشهر وهي ملازمة دارها في انتظار الطلاق ، لا تزور أحدا ولا يزورها أحد ، غير زوجتي « دولي » .. فهي لا تقبل أن يعتبر الناس زياراتهم لها « فضلا » منهم وعظماً ! وحتى صديقتها الأميرة الحمقاء قد تخلت عنها الآن ، وإن أي امرأة أخرى في مكانها ما كانت لتجد في نفسها غنى عن الناس ، لكنك ستري كيف رتب « أنا » حياتها بحيث تلائم الوضع المؤقت ، وستري مقدار هدوئها وترفعها !

— لكن معها طفلة فيما سمعت ، ولا شك أن العناية بها تشغل كل وقتها ؟

— يبدو أنك تنظر إلى كل امرأة باعتبارها أنثى فقط ، لا يشغلها غير زوجها وأطفالها ؟ كلا ! إنها تنشىء ابنتها تنشئة مثالية فيما اعتقد ، دون أن تثير ضجيجاً حولها . لكن أهم ما يشغلها الآن أنها تؤلف كتاباً للأطفال ! .. أراك تبسم بحرية ، ولكن دعني أؤكد لك أنها قرأت الكتاب لي وأعطيني مسوداته فحملتها إلى الناشر « فوركيف » — وهو مؤلف في الوقت نفسه — فشهد بأنه عمل أدبي رائع ! ليس معنى ذلك أنها مؤلفة محترفة ، وإنما هي امرأة ذات قلب ، قبل كل شيء ! .. لكنك ستراها بنفسك .

وعندها الآن فتاة إنجليزية تساعدنا وتؤنس وحدتها ، كما أنها تعني بشئون أسرة الفتاة كلها ..

— تعني من قبيل البر والعمل الخيري ! ؟

— لم تنظر إلى كل شيء بهذا الظن السيء ؟ .. بل إنها تعني بهم بدافع الحنان الصادر من القلب . لانهم أسرة مدرب إنجليزي للخياد يعمل عند فرونسكي ، وقد آدمن الخمر وأهمل أهله إهمالاً قاسياً ، فأشفقت عليهم أنا وأخذت الابنة كي تعيش معها . وستراها الآن بنفسك ..

وكانت العربة التي تقل الرجلين قد بلغت مدخل الدار التي نقيم بها « أنا » فهبطا منها وطرقا ستيقان الباب .. فلما فتحه أحد الخدم دخل هذا ، يتبعه ليقين ، دون أن يسأله عما إذا كانت سيدته في البيت أم لا . وفيما هو يعبر الردهة ساءل ليقين نفسه متوجساً : هل أخطأ بمحضره أم أصاب ؟ وحين صادفته امرأة كبيرة نظر إلى صورته فيها ، فراحه احمرار وجهه .. لكنه أحسن عن يقين أنه ليس مخموراً ! ثم تبع صديقه إلى السلم المفروشة ببساط سميك : وفي الطابق العلوى صادفهما خادم آخر اتحنى لستيقان في احترام ، شأن من يعرفه ، فسأله هذا عن برقة سيدته .. فأجابه الخادم : « إنه مسيو فوركيف » .

— وأين هما ؟

— في غرفة المكتب .

فضى الرجلان نحوها ، عبر غرفة المائدة ، وخين أشرفا عليها
لمح ليفين في مواجهته ، على جدار الحجرة ، صورة زيتية رائعة
ينصب عليها ضوء مصباح قوى معلق فوقها . كانت الصورة لأنا ،
رسمها لها في إيطاليا ، بالحجم الطبيعي ، الرسام « ميكاييلوف » ..
فنظر ليفين إلى اللوحة ولم يستطع أن يسترد بصره منها ، حتى لقد
نسى أين هو ولم يسمع حرفاً مما قيل . لم تكن اللوحة صورة خرساء ،
بل كانت تبسؤ فيها امرأة حية فاتنة ، ذات شعر أسود مجعد ،
وذراعين عاريتين ، وكفتين ناصعتين ، وابتسامة تفكير وتأمل
على الشفتين .. تنظر إليه في نعومة واعتزاز ، من عيني خلبناه
وحيرناه ! وكان الاعتبار الوحيد الذى يكذب كونها امرأة تخلق
فيها الحياة ، أنها كانت أجمل وأروع من كل جمال وروعة يمكن
أن يكونا لامرأة على قيد الحياة ! .. وأفاق ليفين من ذهوله على
صوت قريب منه يخاطبه بقوله : « شرفتنا ! » ولم يكن سوى
صوت المرأة بعينها التى كان يتأمل صورتها في إعجاب ذاهل ، وقد
خفت إلى لقائه من وراء « البارافان » الذى يشطر الفرقة إلى شطرين.
ورآها ليفين في ضوء مصباح المكتب الباهت ترتدى ثوباً أزرق
قاتماً في غير الوضع الذى تتخذه في الصورة ، وبغير التعبير الذى
يرسم فيها على وجهها ، ولكن بالجمال الكامل نفسه الذى صورته
ننان في لوحته ، نقلا عن الفنان الأعلى الذى أبدع الأصل !
كانت قد نهضت للقائه غير مخفية سرورها برؤيته . ومن الباقية

المادثة التى مدت إليه بها يدها الصغيرة الأنيقة ، وقدمت له بها
« فوركيف » ناشر كتابها ، وسكرتيرتها الإنجليزية الباقعة ، استطاع
ليفين أن يتبين « اتيكيت » سيدة مجتمعة من الطراز الرفيع ، طبيعة
في حركاتها ، مالكة لحواسها ! .. وأردفت تكرر مرجحة هسهده
الكلمات التى اتخذت على شفيتها مغزى خاصاً في أذن ليفين :
« إني مغتبطة بزيارتك . لقد عرفتك وأعجبت بك منذ زمن ،
سواء خلال صداقتك لأخى ستيفان أو صلتى بزواجك .. لقد
عرفتها فترة وجيزة لكنها تركت في نفسى مثل أثر الزهرة العطرة ،
حتى ليصعب على أن أتصورها توشك أن تغدو أمأ ! » .

كانت تتكلم في يسر وهلواء ، وهى تنقل بصرها بين ضيفها
وبين أخيها ، فأحس ليفين أنه قد وقع من نفسها موقعاً حسناً ، بل
شعر على الفور بجزء من البساطة والبهجة ، وكأنه في بيته ، بل كأنه
عرفها منذ الطفولة ! .. ثم مدت يدها إلى صندوق سجائر صغير على
هيئة سلحفاة ، فتناولت منه سيجارة أشعلتها في غير كلفة ، بينما
كان شقيقها يسألها : « كيف حالك اليوم ؟ بماذا تشعرين ؟ » .

— أوه ! لا شيء .. سوى الأعصاب ، كالعادة !

ولمح ستيفان ليفين يلتهم الصورة بعينه ، فسأله معلقاً :
« أليست لوحة ممتازة حقاً ؟ »

— بل إني لم أر أجمل منها !

وتدخل الناشر في الحديث قائلاً : « إن مطابقتها للأصل أمر

يلفت النظر ! .. فنقل ليفين بصره من الصورة إلى الأصل ، فأضاء وجه أنا بريق خاص ، حين أحست بعينيته تستقران على محياها ! .. وتشعب الحديث ، ووجد ليفين متعة كبرى في أن يتحدث وينصت إلى حديث هذه المرأة ، أما هي فكانت تتكلم في براعة غير متكلفة ، وعدم مبالاة ، غاضة من أهمية آرائها ، مقيمة أكبر الوزن لآراء محدثها ! وانتقل النقاش إلى الاتجاهات الجديدة في الفن ، فقال ليفين : « إن الفرسيين يؤثرون العودة إلى المذهب الواقعي ، ويرون في الصراحة والبعد عن الكذب والنفاق لوناً من الشعر » .. وأعجبت « أنا » بهذا القول ، فأضاء وجهها على الفور بإشراق نوراني ، وأضافت قائلة : « إن هذه التزعة الواقعية تنطبق على الأدب كما تنطبق على الفن » . ثم مثلت لذلك بقصص « زولا » و « دوديه » ، فحدث ليفين نفسه قائلاً : « يا لها من امرأة ! » . ونسى نفسه قلبت يرمق - في إصرار - وجهها الجميل المعبر ، دون أن يسمع حرفاً مما تقول ! .. وفي أثناء الحديث انحنت على أخيها تسر إليه بشيء ، وقد عكرت وجهها الذي كان صافياً منذ لحظة صحابة مفاجئة . وارتسم في نظرتها فضول غريب ، وغضب ، وكبرياء .. لكن ذلك كله لم يدم غير لحظة ، أرخت على أثرها أجفانها ، كأنما يجهد نفسها في تذكر شيء ، ثم قالت معتذرة : « لكن هذا لا يهم أحداً منكم » ، ثم استدارت إلى سكرتيرتها قائلة بالإنجليزية : « هل لك أن تأمرى بإعداد الشاي في حجرة الاستقبال ؟ »

فنهضت الفتاة ومضت .. وإذ ذاك سأل ستيفان شقيقته : « كيف تسير الفتاة في دروسها وامتحاناتها ؟ » ، فأجابته : « على نحو رائع ! .. إنها فتاة موهوبة وشخصية غنية » .
- سوف ينتهي بك الأمر إلى أن تحبها أكثر من حبك لابنتك !
- ليس في الحب درجات ، تقاس بالأكثر والأقل ، وإنما فيه ألوان مختلفة .. والصواب أني أحب ابنتي لوناً من الحب ، وأحب هذه الفتاة لوناً آخر منه !

ونظرت مرة أخرى إلى ليفين ، وقالت له ابتسامتها ونظرتها أنها إنما تدل على هذه الآراء من أجله هو ، كما تظهر بتقديره لذكائها ، وقد وثقت من أول وهلة بأن كلامهما يفهم الآخر ويعجب به ، كل الفهم ، وكل الإعجاب ! .. ورأى ليفين في « أنا » شخصية جذابة تمتاز - إلى جانب جمالها وذكائها وجلالها - بفضيلة أخرى هي الصدق ! فلما نزل حديثها لم تحرص على أن تخفى عنه مرارة موقفها . وفي مناسبة ما تنهدت ، واتخذ وجهها طابعاً صارماً ، جعلها تبدو كأنها تحولت إلى تمثال من حجر ! والعجيب أنها بدت عند ذلك أفتح جمالاً وأشد جاذبية ، رغم أن ذلك التعبير الجديد كان مخالفاً لكل المخالفة للتعبير الأول المشرق بالسعادة ، والخالق للسعادة ، الذي سجله الرسام في صورتها ! .. ولم يملك ليفين نفسه - وهو ينقل بصره خلسة بينها وبين الصورة ، من أن يحس في أعماقه عطفاً عليها ورثاء لجمالها ، لم يكن يحسب نفسه قديراً على الشعور

بهما نحو امرأة غريبة عنه ! .. وحين سألت ضيفها أن يسبقها إلى الصالون ، ربما تخلو إلى شقيقها بضع دقائق ، ساءل ليفين نفسه في اهتمام : « لا بد أنهما يتحدثان عن الطلاق ، وعن فرونسكى وكيف يقضى أوقاته في النادي ، وربما عني أنا ؟ » .. وبلغ من انتشاله بما عساها أن تحدث فيه أخاها أنه لم يكذب يسمع حرفاً مما قاله جليسه الناشر في شأن القصة التي ألقتها « أنا » للأطفال !

وفي أثناء تناول الشاي استؤنف بين الأربعة ما انقطع من حديث شائق ، في شتى الموضوعات . وكان ليفين يتتبع بذهنه الأحاديث الجارية دون أن يكف لحظة عن تأمل جمال أنا والإعجاب بذكائها ، وثقافتها ، وصراحتها ، وعمق شعورها .. فكان يصغى ، ويتكلم ، ويفكر في حياتها الخاصة ، محاولاً أن يصور لنفسه مشاعرها .. وبرغم أنه كان قد قسا في حكمه عليها قبل أن يعرفها ، فإنه وجد نفسه الآن يبرر مسلكها وتصرفاتها بسلسلة من الحجج المنطقية الغريبة ، بل شعر بأنه يرثي لحالها ، مشفقاً من أن يكون فرونسكى عاجزاً عن فهم نفسياتها على حقيقتها ! .. وحين نهض ستيفان لينصرف ، في الساعة الحادية عشرة من ذلك المساء ، خيل إلى ليفين أنه لم يقض مع أنا غير فترة قصيرة ، لكنه اضطر إلى أن ينهض بدوره ، أسفاً ! .. وحين مده يده إلى أنا مصافحاً ، قالت له وهي تحتفظ بيده في راحتها برهة ، وترمقه بنظرة ظافرة : « كم أنا سعيدة بتعارفنا » .. ثم أطلقت يده وأرخت أجنافها في نصف

إغماضة ، وهي تستطرد : « أبلغ زوجتك أنني أشد حباً لها من أي وقت مضى ، وأنها إذا شعرت بأنها لا تستطيع أن تغفر لي موقفي ، فعندئذ أكون أنا بدورى راغبة في ألا تغفري لي .. فإنه لكي يغفر الإنسان ينبغي أن يمر بالظروف التي مررت بها ، وأنا أسأل الله أن يمنحها ذلك ! » .

فأجابها ليفين وقد صعد الدم إلى وجهه : « أعدك بأن أنقل إليها رسالتك ! » .

- ٢٢ -

● خرج ليفين مع ستيفان من عند أنا وهو يقول لنفسه : « يا لها من امرأة رائعة ، عذبة شقية ! » .. وكأنما لاحظ عليه ستيفان علامته الهزيلة أمام بحر شقيقته ، فهمس إليه : « ألم أقل لك ؟ » .. فأجابها كالحالم : « نعم ، إنها امرأة خارقة للمألوف ! .. إنه ليس ذكاًؤها الذي أعجبني ، وإنما ذلك العمق العجيب الذي تتغلغل إليه مشاعرها . لشد ما أرتي لها ! » . ثم قال له ستيفان مودعاً وهو يهبط من العربة : « عسى أن تستقر الأوضاع نهائياً في القريب . ولعل هذا يجعلك لا تقسو في حكمك على الناس في المستقبل ! » .. ثم انتقل إلى عربة أخرى ، بينما انطلقت العربة الأولى بليفين وهو ما يزال يفكر في أنا ، ويستعيد في ذهنه كل عبارة تخللت حديثهما ، وكل تعبير قرأه على وجهها .. بل أخذ يضع نفسه مكانها ، فيعطف عليها ، ويرثي لشقاها ! .. وحين بلغ البيت ، ألقى ليفين زوجته

مكتبة ، وفي حالة نفسية سيئة . وعلم منها أن شقيقتها كانتا تقضيان السهرة عندها ، وأنهما انتظرتا طويلا حضوره ، وأخيرا انصرفتا وتركتاها وحدها . ثم سألته وهي تسدد بصرها إلى عينيهِ ، اللتين بدت فيهما إشراقة مربية : « ما الذي أخرِك ؟ ماذا كنت تفعل ! طيلة السهرة ؟ »

لكنها لم تطل في عتابها له ، كى تشجعه على الإفشاء إليها بكل ما عنده . بل لقد قوت من عزيمته على المصارحة ، باسماة عذبة مسالمة ، أوقعته في الشرك ! .. فحدها أولا عن مقابله لقرونسكى وما تبادلاه من أحاديث بددت جو الفور الذى كان بينهما . وأفاض في سرد الموضوعات التى تكلم فيها ، حتى سألت هى : « وأين ذهبتم بعد انصرافكم من النادى ؟ » ، فأجابها : « ألح على ستيفان فى أن يصحبه فى زيارة لأخته أنا كارنينا . وتورد وجه ليفين وهو يقول ذلك ، وأحس أنه أخطأ فى ذهابه إلى هناك ! .. أما كيتى فقد اتسعت حلقاها ولعنا ، لدى سماعها اسم أنا ، لكنها تماكنت نفسها بصعوبة ، وأفلحت فى إخفاء انفعالها عن زوجها ، بينما استطرد هو : « كنت واثقا من أنك لن تفضي لذهابى إلى هناك ! وقد ذهبت لإجابة لرغبة ملحة من ستيفان ، كما رغبت « دوللى » فى ذلك .. إن « أنا » امرأة طيبة ، عذبة جداً ، ولكنها كذلك تعسة جداً ! .. ومضى يحدها عنها وعن أحوالها ، والرسالة التى كلفته بأن يبلغها إليها .. فلما فرغ من كلامه قالت معلقة فى

ليجاز : « نعم ، إنها بلا شك تستحق أن يرثى لحالها ! .. وإذ اطمأن ليفين إلى هدوء لمحبته ، مضى إلى مخدعه ليرتدى ثياب النوم . فلما عاد إلى زوجته وجدها فى مقعدها حيث تركها ، وماكاد يقرب منها حتى نظرت إليه لحظة ، ثم .. أجهشت بالبكاء ! وبغت هو ، فسأله : « ماذا بك ؟ ماذا أصابك ؟ » ، فقالت : « إنك قد أحببت تلك المرأة البغيضة . لقد سحرتك ! أرى ذلك فى عينيك ، نعم ، نعم ! .. وماذا تنتظر أن تكون النتيجة . لقد شربت فى النادى ، وأفرطت فى الشراب واللعب ، ثم ذهبت إليها ، هى من دون الناس جميعاً ! .. كلا ، ينبغي أن تسافر .. سأسافر غداً ! .. ومضى وقت طويل قبل أن يستطيع ليفين تهدئة نائرة زوجته ، معتزفاً لها بأن إشتاقه على المرأة المتبوءة — بتأثير الخمر التى شربها — كان أقوى مما ينبغي ، فوقع تحت تأثير سحرها اللعين .. ثم وعد زوجته بأن يتجنب رؤية « أنا » فى المستقبل . مقررآ فى إخلاص بأن حياة الدعة والقراغ والطعام والشراب ، التى يحياها منذ هبط موسكو ، قد بدأت تصيب أخلاقه بالانحلال ! .. ولبت الزوجان يسمران حتى الساعة الثالثة من الصباح ، وعندئذ فقط كانا قد تصالحا تماماً واستردا صفاء البال الذى يسمح لهما بالنعاس .. وفى اليوم التالى وضعت كيتى مولودها المنتظر .. وكان ذكراً !

● لبث أنا بعد انصراف ليفين وشقيقها نذرع الحجر ذهاباً وحيث، مستغرقة في التفكير !.. لقد بذلت أقصى ما في وسعها طيلة الأمسية - دون وعي - كي توقظ في ليفين عاطفة الحب ، مثلاً ألقت أن تفعل مع كل الرجال في المدة الأخيرة ! .. وهي تعلم أنها قد بلغت غايتها ، بقدر ما يسمح الخيال في جلسة واحدة ، ومع رجل متزوج ، حتى الضمير ! .. والواقع أنها قد أعجبت به إلى أقصى حد ، وبرغم الفارق الصارخ - من وجهة نظر الرجال - بينه وبين فرونسكى ، فإنها - كامرأة - رأت في الاثنين شيئاً مشتركاً غامضاً ، هو الذى جعل كيتى تستطيع أن تحب كليهما ! .. ومع ذلك فإنه لم يكده يخرج من دارها حتى كفت عن التفكير فيه ، ولم يبق يشغلها غير خاطر واحد ملح ، طفق يباحها في شتى الصور ، وأنى أن يبرح ذهنها ، فأخذت تحدث نفسها : « إذا كان لى مثل هذا التأثير القوى على الرجال جميعاً ، وعلى هذا الرجل بالذات ، الذى يحب بيته وزوجته ، فما علة فتور فرونسكى معي ؟ أنا أعلم أنه يحبني ، لكن شيئاً ما قد بدأ يباعد بيننا بالتدريج ! » وإذ سمعت جرس الباب يدق ، إيداناً بقدميه ، جففت دموعها مسرعة وفتحت كتاباً ، متظاهرة بالانهماك في القراءة . إنها لا تريده أن يقف على نواحيها ويأسها ، وراثتها لخالها ! قد ترى هي لنفسها ، ولكن لا ينبغي أن يرى هو لها ! .. وأقبل نحوها بادی الانسراح ، يقول :

- أرى أنك لا تغاين ساماً .. ما أقطع المقامرة !
- كلا ، لم أحسن ساماً ، فقد تعلمت منذ زمن طويل ألا أفعل هذا .. فضلاً عن أن ستيفان وليفين كانا هنا !
- أعلم ذلك . وهل أعجبك ليفين ؟
- جداً .. لإنهما قد انصرفا منذ قليل . ماذا كان « ياشفين » يفعل ؟
- ربح سبعة عشر ألفاً ، فأبعدته عن المائدة . وأركبته العربى إلى بيته .. لكنه عاد ثانية ، وهو الآن يخسر ! ؟
- إذن فلماذا بقيت ؟ أنك قد ذكرت لستيفان أنك باقى لتحول بين ياشفين والحسارة ، وها أنت ذا تركه يخسر ! ؟
فيدا على وجه فرونسكى طابع البرود والتأهب للشجار ، وقال : « أولاً أنا لم أكلف ستيفان أن يحمل إليك أية رسالة . وثانياً أنا لا أكذب أبداً ، ولكن الشيء الجوهري في الموضوع أنى أردت أن أبقى ، وقد بقيت .. فلم كل هذا يا أنا ؟ » . وبدأ متجهماً وهو يقول ذلك .. وبعد لحظة صمت اقترب منها وفتح راحته ، آملاً أن توسد يدها إياها ! وسرتها هذه الدعوة إلى الختان ، لكن قسوة شريرة خفية حالت بينها وبين الاستسلام لعاطفتها ، كما لو كانت قوانين الحرب تمنعها من التسليم والإذعان .. فعادت تضرم النار قائلة : « طبعاً ، أردت أن تبقى ، وبقيت - فإنك تفعل كل ما تشئى ! - ولكن ما غرضك من قول ذلك لى ؟ هل يتازعك

أحد حقوقك ، أو يناقشك فيها ؟ .. فطوى يديه واستدار ، وقد اكتسى بحياه بطابع العناد ، وإذا ذاك قالت له وقد اهتدت فجأة إلى التسمية الصحيحة لتعبير وجهه الذى يثيرها : « الأمر بالنسبة لك أمر عناد ! .. مجرد عناد ، ورغبة فى أن تكون لك دائماً الكلمة العليا ، أما أنا .. آه لو علمت ما أقامى حين أشعر - كما أفعل الآن - بأنك تقف منى موقفاً عدائياً ! .. آه .. لو علمت كيف أحسن أنى على شفا هاوية ، وكيف أخاف ساعتئذ من نفسى ! » .. ثم استدارت وهى تحاول إخفاء نسيجهما ، فقال وقد أفرعه مظهرها البائس ، فاختفى على يدها وقبلها : « ما هذا الذى تقولين ؟ وفيم كل ذلك ؟ هل رأيتنى أنشد اللهو خارج البيت ؟ ألسنت انجذب مجتمعات النساء ؟ »

- نعم ، ولكن هل هذا كل شيء ؟

- بالله خبرينى ماذا ينبغى أن أفعل كي أمنحك سكينه النفس ؟ أنا على استعداد لأن أفعل أى شيء فى سبيل سعادتك ! .. وهل هناك شيء لا أصنعه كي أنقذك من حيرتك وبأسك ، أيا كان مظهرهما ؟ أنا ، بربك ..

- لا تتزعج ، لست أدري أهى حياة العزلة التى تسبب لى هذه الثورات ، أم هى أعصابى .. ولكن فلنكف عن الكلام فى هذا الموضوع . حدثنى ، ما أنباء السباق ؟

فأمر الخادم بإعداد العشاء ، ثم بدأ يروى لها أنباء السباق . لكن

« أنا » قرأت فى عينيه اللتين إزداد فتورهما لحظة بعد أخرى ، كما تبيئت فى لهجته ، أنه لم يغفر لها انتصارها عليه ، على النحو الذى سلف .. وأن شعور العناد الذى حاولت مكافحته قد استرد سيطرته على نفسه ! لقد غدا معها أشد بروداً مما كان ، كأنما ندم على استسلامه ! .. أما هى فتذكرت كلماتها له : « أحسن أنى على شفا هاوية ، وأنى خائفة من نفسى ! » .. وأدركت أنها قد لجأت إلى سلاح خطير ، وأنها لن تستطيع استخدامه مرة ثانية ! .. كما أدركت أنه إلى جانب الحب الذى يربطهما فقد نشب بينهما صراع شرير رهيب يتعذر عليها اقتلاعه من قلبه ، بل ومن قلبها هى نفسها !

- ٢٣ -

● جد ما استدعى سفير ستيفان إلى بظرس برج لبعض شؤونه ، فطلبت إليه « أنا » أن يتصل بزوجها « أليكسى » ويحصل منه على رد قاطع بصدد موضوع الطلاق ! .. وفى مكتب أليكسى جلس ستيفان يصغى إلى تقرير محدثه عن أسباب تدهور الحالة المالية فى روسيا ، فلما فرغ من تقريره ، بإدراة ستيفان قائلاً : « هناك أمر أود أن نتكلم فيه الآن ، وأنت تعلم طبعاً ما هو ! » .. فقهر وجهه أليكسى تغيراً كلياً ، وغاض منه كل أثر للحياة ، وبدأ مرهقاً ، ميتاً ! .. ثم أجاب وهو يتململ فى مقعده ويثبت نظارته على أنفه : « ما الذى تريده منى بالضبط ؟ » .

— تسوية نهائية يا أليكسى ، تسوية حاسمة للموقف . إنى
أناشدك ، لا كسياسى ، بل كإنسان ، وإنسان طيب القلب ،
متدين . أنك ينبغي أن تأخذك الشفقة عليها !

— على أية صورة ؟

— لو أنك رأيتها كما رأيتها أنا — الذى قضيت الشتاء كله معها
— لأشفقت عليها .. إن موقفها فظيح ، لا يحتمل !

— كنت أعتقد أنها قد حصلت على كل ما تمنته !

— أواه يا أليكسى ، بربك لا تدعنا ندخل فى مهاترات . إن
ما فات قد فات ، وللدع الماضى فى مرقده ونواجه الحاضر . أنت
تعلم أن ما تريده هى وتنتظره هو : الطلاق !

— لكنى أعتقد أن « أنا » ترفض الطلاق ، إذا اشترطت فيه
أن أحفظ بابنى . لقد كان هذا جوابى منذ البداية ، وافترضت أن
المسألة قد انتهت عند هذا الحد . بل إنى أعتبرها منتهية !

— بحق السماء لا تتر أو تنفعل ، ودعنا نتناقش فى هدوء .
المسألة لم تنته . وإذا سمحت لى أن أذكرك بما حدث فقد كان على
هذه الصورة : عندما افترقتما كنت على استعداد لأن تمنحها كل
شيء : الحرية ، بل الطلاق إذا رغبت . وقد قدرت لك هى هذا
الصنيع ، إلى حد أنها وقد أحست لأول وهلة بمبلغ الخطأ الذى
ارتكبته فى حقك ، لم تتدبر الأمر — ولم تكن تستطيع وقتئذ أن
تتدبره ! — فتركت كل شيء ، نبذت كل شيء .. لكن التجربة ،

والزمن ، أثبتا أن موقفها لا يحتمل ، بل إنه مستحيل !

— إن حياة « أنا » لم تعد تهمنى فى شيء !

— اسمح لى ألا أصدقك . إن موقفها لا يحتمل بالنسبة لها ،

ولا فائدة منه لأى شخص على الإطلاق . لعلك تقول إنها قد
استحقته ! إنها تعلم ذلك ، ولذا فهى لا تطلب منك شيئاً . بل تقول
بصراحة إنها لا تجرؤ على أن تسألك طلباً ! .. لكنى أنا ، بل كلنا
نحن أقرباءها وأصدقاءها ، نرجو بل نؤمل إليك ! .. لم ينبغى
عليها أن تتألم ؟ من هناك أفضل منها ؟

— يبدو أنك تبغى أن تضعنى فى موضع الطرف المذنب !

— أوه ، كلا ، أبداً .. أرجو منك أن تفهمنى . كل ما أريد

أن أقوله إن موقفها بات من العمير تحمله ، وفى وسعك أنت وحدك
أن تحل هذه المشكلة ، ولن يضيرك ذلك فى شيء . وفى وسعى أن
أيسر لك الأمور بحيث لا تتكلف أى عناء . لا تنس أنك وعدت !

— وعدت فيما مضى .. وكنت أفترض أن مسألة حضانة ابنى

قد حسمت الأمر . ثم أتى كنت آمل أن تكون « أنا » من الكرم
بحيث ..

— إنها تدع الأمر لكرمك أنت . إنها ترجو ، بل تتوسل

إليك أن تفعل من أجلها شيئاً واحداً : أن تنتزعها من المأزق الذى

هى فيه الآن . إنها لا تطلب حتى بحضانة ابنها ! .. أليكسى ،

أنت رجل طيب الخلق . فلتضع نفسك موضعها لحظة فقط . إن

مسألة الطلاق بالنسبة لها في موقفها الحالي لمي مسألة حياة أو موت ! ..
ولو كنت لم تعد لها فيما مضى فربما كانت قد استطاعت أن توطن
نفسها على هذا الوضع .. أن تقضى حياتها في الريف .. لكنت
وعدت بمنحها الطلاق ، وقد كتبت هي إليك ثم سافرت إلى
موسكو .. وها هي ذى قد انقضت عليها في موسكو ستة أشهر ،
في جو تمزقها فيه شر ممزق كل مقابلة مع شخص كانت تعرفه
في الماضي ! وهي تفتي نفسها كل يوم بتسلم رديك ! .. إن هذا
بمثابة إبقاء مذهب محكوم عليه بالإعدام لمدة ستة أشهر والحبل معلق
على رقبتها ، تارة يمتونه بالعفو ، وتارة يهدونه بالموت ! .. أشفق
عليها يا أليكسي ، وأنا أتكفل بإعداد كل شيء .

— ليس هذا موضع الخلاف .. ولكن لعل قد وعدت بما لم
يكن من حق أن أعد به !

— إذن فأنت تنكص عن وعدك ؟

— إنى لم أضن عليها يوماً بكل ما في وسعي ، لكنني أريد مهلة
أقدر خلالها ما يمكن تنفيذه من وعدي !

فصاح ستيفان وهو يقفز من مقعده : « كلا يا أليكسي ؟ لست
أصدق أنك أنت الذي تتكلم ! .. كفاها ما هي فيه من شقاء لا يعرفه
غير من كابده . ولا يمكن أن تأتي عليها في حالة كهذه .. »

— سأمنحها القدر الذي يتيسر الوفاء به من وعدي ! هذا كل
ما أستطيع أن أعد به الآن . إنك تتكلم بمنطق المفكر الحر ، لكنني

بصفتي رجلاً مؤمناً لا أستطيع — في أمر على هذه الدرجة من
الخطورة — أن أسلك مسلكاً منافياً لتعاليم ديني !

— لكن الكنيسة ذاتها تسمح بالطلاق ، ونحن نرى ..

— إنها تسمح بالطلاق ، ولكن ليس بالمعنى الذي ..

— أليكسي ، لست أفهمك اليوم ! إنك تناقض نفسك : ألم

تكن أنت الذي غفرت « لانا » كل شيء ، وأبدت استعدادك

لبذل أية تضحية ترضى بها التعاليم المسيحية ؟ .. بل أذكر أنك

تمثلت بالقول المأثور : « من لطمك على خدك الأيمن ، فأدر له

الأيسر أيضاً ! » .

— كفى .. كفى !

ونفض أليكسي على قدميه ثائراً ، وقد ابيض وجهه حتى

صار كوجوه الأموات ، واختلج فكاه في عصبية ، وهو يردد

القول :

— أرجو أن تنسى هذا الموضوع ، ولا تحدثني فيه !

— أوه ! اغفر لي . اغفر لي إذا كنت قد جرحتك ، لكنني

بصفتي رسولاً أميناً قد أدبت الرسالة التي عهد بها إلي !

ثم مد إليه يده وهو يتسم ابتسامة جبرى ، فأعطاه أليكسي

يده ، وتردد قليلاً ، ثم قال : « ينبغي أن أفكر في الأمر في روية ،

وأشد التوفيق في صديده . وسوف أعطيك ردى النهائي بعد غد ! » .

- ٢٤ -

● شعر كل من فرونسكى وأنا فى مستهل الصيف بأن الحياة فى موسكو لا تطاق ، بسبب الحر الشديد والغبار الذى يملأ الجو . لكنهما لم يقدراهما مع ذلك عائدتين إلى الريف ، رغم تضايقهما منها وحينئذ إليهما ، لا شيء إلا لأن الوفاق بينهما كان قد تصدع فى الأيام الأخيرة ! .. ولم يكن للخلاف بينهما - والانفعالات العصبية - أى سبب خارجى فى الواقع ، ومع ذلك فإن كل جهودهما للوصول إلى تفاهم لم تفلح إلا فى زيادة شدة الخلاف اتساعاً وحدة ! .. وكان منشأ التراع الحقيقى « فكرة » داخلية تسلمت على ذهن « أنا » وأوحى إليهما بأن فرونسكى يستشعر الأسف والتدم على توريط نفسه من أجلها فى هذا المأزق الذى تزيده هى كل يوم حرجاً ، بدلا من محاولة التخفيف من عبئه !

وهكذا أضمر كلاهما لصاحبه الحقد والضغينة ، اقتناعاً منه بأن صاحبه وحده هو المخطئ ! .. فى نظر « أنا » كان كيان فرونسكى بأكمله - عباداته ، وآرائه ، ورغباته ، وطبائعه النفسية والوجدانية - يتركز فى شيء واحد : هوجه للنساء ! وكانت « أنا » تبغى أن يركز هذا الحب كله فى شخصها وحدها ! أما وقد تضاعف حبه لها ، فيما تحس ، فلا شك فى أنه قد نقل قدره من امرأة أخرى ، أو نساء أخريات ! ومن هنا بدأت تغار عليه ، لا من امرأة بعينها ، بل من كل امرأة غيرها ! .. وإذ لم تجد هدفاً تصب

عليه غيرها ، راحت تبحث عن هدف ! .. فكانت حيناً تغار عليه من أولئك النسوة الوضيعات اللواتى كان على صلة بهن من قبلها .. وحيناً تنقل غيبتها إلى نساء المجتمع الرفيع اللواتى قد يلتقى بهن .. وحيناً ثالثاً توجه هذه الغيرة إلى هدف مغاير : إلى الفتاة الوحشية التى قد يكون وقع فى هواها وحلم بالزواج منها ! .. وكان هذا اللون الأخير من ألوان الغيرة أشدها جميعاً إيلاًماً لأنها ، وتعذيباً لها .. سبباً بعد أن صرح فرونسكى لها - فى هفوة لسان - بأى أمه تجهل ميوله ، إلى الحد الذى جعلها تجترئ على محاولة إقناعه بالزواج من أميرة شابة حسنة تدعى « سوروكين » ! .. وبثأير غيبتها عليه ، بدأت « أنا » تتحامل عليه لكل صغيرة وكبيرة ، وتجهد فى كل منغص لها سبباً لتوجيه اللوم إليه بصدده : فهو المسئول عن هذا القلق القاتل الذى تعانى فى انتظار حصولها على الطلاق ! .. وهو المسئول عن تردد أليكسى ومماطلته فى إيجابتها إلى طلبها ! .. وهو المسئول عن وحدتها وحياتها الموحشة فى موسكو ! .. وهو المسئول عن كل ذلك وغيره ، لأنه لو أحبها كما ينبغي لأحس معها حرارة موقفها ، ولأنقذها منه ! وأخيراً فهو المسئول وحده عن انفصالها الدائم عن ابنها الحبيب ، وحرمانها الأبدى منه ! .. وحتى لحظات الحب والحنان النادرة التى كانت تتخلل حياتهما من حين لآخر ، لم تكن لتهدئ من ثأرتها ، فقد صارت ترى الآن فى حنانها ظلاماً من المرح والثقة بالنفس ، يثيرها بدلا من أن يهدئها !

و ذات يوم ، جلست « أنا » ساعة الغسق وحدها ، تنتظر أوبة فرونسكى من مأدبة غداء دعى إليها مع فريق من العزاب . وعادت بها الذاكرة إلى مشاجرة الأمس الأخيرة بينهما ، فنهضت تذرع الحجرة ذاهبة آتية ، وتسترجم أدق تفصيلات النزاع ، وكيف بدأ بأمر تافه للغاية : مناقشة حول العلوم التى يتبغى أن تدرسها تلميذتها الإنجليزية ، فإذا النقاش بينهما يتطور إلى حد يستفز « أنا » فتقول له : « لست أنتظر منك أن تفهمنى وتفهم مشاعرى كما ينبغي أن يفعل أى شخص يحبنى ، لكننى أنتظر منك على الأقل أن تراعى أبسط مقتضيات الذوق والأباقة ! » .. واجر وجه فرونسكى انفعالا ، وأجابها بلهجة من يتعمد أن يجرحها : « لست أعبا بتعلقك بهذه الفتاة ، لكننى أرى فيه فى الواقع شلودا لا شك فيه ! » .. وأثارها هذه القسوة التى بدد بها العالم الوهمى الذى شيدته لنفسها بمجهودها المضى كى تستعين به على تحمل حياتها المرة .. والظلم البشع الذى انطوى عليه اتهامه إياها بالشلود ، والتكلف .. فقلقت فى وجهه بهذه العبارة الجافة ، وهى تتأدر الفرفة : « يؤسفنى أنك ترى شلودا فى كل شىء يخرج عن الأمور المادية والمبتذلة التى تفهمها ! » .

وحين عاد فى المساء ، لم يشر أحدهما بكلمة إلى تلك المشادة ، وإن أحس كلاهما أن النزاع لم ينته إلى تسوية تامة ! .. وها هو ذا فرونسكى اليوم قد قضى النهار كله فى الخارج ، فأحست

« أنا » بمزيد من الوحشة والتعاسة بسبب تعكر الجو بينهما ، وأرادت أن تنسى كل شىء وتصفح عنه وتصلحه .. بل أرادت أن تلقى اللوم كله على نفسها وتبرر موقفه هو ، فحدثت نفسها قائلة : « أنا التى أستحق اللوم ، فقد غدت سريعة الغضب ، شديدة الغيرة إلى درجة الجنون .. سوف أسوى الأمر معه ، ثم ناسفر إلى الريف ، وهناك أجد سكينى النفس ! » .

.. لكنها فى هذه اللحظة ذكرت اتهامه إياها « بالشلود ! » ، فلم تحفظها الكلمة فى ذاتها بقدر ما أحقتها اللهجة التى قالها بها . قاصداً ولا شك أن يجرحها ! وعادت تحدث نفسها : « إنى أعرف ماذا قصد : قصد أن يقول إننى لا أحب ابنتى ، فى الوقت الذى فيه أحب فتاة غريبة عنى ، وهذا ما نعتة بالشلود .. ولكن ماذا يقهم هو من حب الوالدين للأطفال ، وحبى لسريوشا مثلاً ، الذى ضميت به من أجله ؟ .. ثم تلك الرغبة منه فى جرح إحساسى ، هل يمكن أن يكون الدافع إليها غير حبه لامرأة أخرى ؟ لا بد أن الأمر كذلك ! » .. لكنها عادت فانساق مع خواطرها فى تلك الدائرة المفرغة التى خرجت منها لتدخل فيها من جديد ، فعاتت مرة أخرى إلى البداية : « إنه لم يعدونى أن يكذب ، وهو صادق ، وأمين ، ومولع بى .. وأنا مولعة به .. ولن تمضى أيام حتى تحصل على الطلاق ، فإذا أبغى أكثر من ذلك ؟ أبغى سكينى النفس ، والثقة به ، وسوف ألقى اللوم على نفسى . نعم ، حين يأتى الآن

سأقول له إنى كنت مخطئة - ولو أنى لم أكن مخطئة فى الواقع ! -
وغداً سافر إلى الريف ! » .

ولكى تتجوز من نفسها ومن مواصلة التفكير فى الأمر ، وتتغلب
على الانفعال الذى بدأ يعاودها ، دقت الجرس للخادم .. ثم أمرت
بإحضار حقائب السفر كى تضع فيها متاعها ، تأهباً للرحيل !

- ٢٥ -

● اتفقت أنا وفرونسكى على السفر يوم الاثنين أو الثلاثاء .
وفى الصباح التالى نهضت « أنا » مبكرة لتواصل إعداد الحقائب .
وفىها هى منحنية على حقيبة مفتوحة تخرج منها بعض الثياب ، دخل
عليها فرونسكى وقد ارتدى ثياب الخروج - قبل مواعده المألوف -
وابتدراها قائلاً : « أنا ذاهب لأرى أمى وأتفق معها على طريقة
إرسال النقود إلى ، وسوف أكون على استعداد للسفر غداً » .
وبرغم أن « أنا » كانت فى حالة من الانشراح والصفاء ، فإن فكرة
زيارته لأمه أورتتها شيئاً من الضيق ، فأجابته قائلة : « كلا ! لن
أتمكن من إعداد كل شئ للسفر غداً .. » ، ثم صمتت لحظة ،
وأردفت : « ولكن افعل ما بدا لك . والآن اذهب إلى حجرة
الطعام وسألحق بك ثوباً ! » .

وفىها هو يأكل شريحة من اللحم البارد لحقت به ، وجلست
بجانبيه لتتناول قدحها المفضل من القهوة .. ثم استهلت الحديث ،
قائلة : « إنك لا تستطيع أن تصدق كيف غدت هذه الحجرات

بقيضة إلى نفسى ، فليس أبشع من هذه الزخارف العتيقة التى
لا تحمل طابعاً ذاتياً ، ولا تعبر عن نزعة خاصة : هذه الستائر ،
وساعات الحائط ، وأدهى من ذلك وأمر : ورق الجدران ! ..
إنها كلها أشبه بكايوس ! وإنى لأتطلع إلى دارنا فى الريف كما
أنتطلع إلى الجنة الموعودة .. آه ، وعلى فكرة هل ترمع لإرسال
العربة الأخرى اليوم ؟ » .

- كلا ، بل لأنها ستلحق بنا بعد سفرنا . ماذا تبغين منها ؟
- أريد أن أذهب إلى الخياطة « ويلسون » لإصلاح بعض
الثياب . إذن فأنت تعزم السفر حقاً ؟
- نعم ، غداً .. بغير إبطاء !

وفى أثناء ذلك أقبل خادم يطلب من سيده التوقيع على إيصال
بتسلم برقية من بطرسبرج ، فأجابته فرونسكى فى لهجة من يبنى
إخفاء أمر عن أنا : « لقد تركت الإيصال فى حجرة المكتب » ..
فسألته « أنا » عقب انصراف الخادم : « من هذه البرقية ؟ »
- من ستيفان ..

- ولماذا لم ترها لى ؟ أى سر يمكن إخفاؤه بين ستيفان
وببنى ؟

وإذ ذاك نادى فرونسكى الخادم وأمره بإحضار البرقية من
حجرة المكتب ، ثم التفت إلى « أنا » قائلاً : « لم أرها لك لأنه
ليس فيها جديد ، سوى أنه يأمل الحصول على جواب حاسم فى

خلال يومين .. وهالك هي على أى حال ، فافترها بنفسك ! ..
وتناولت «أنا» البرقية بيد مرتشة ، وقرأت فيها ما قاله غافرو نسكى ،
تليه هذه العبارة : « الأمل ضئيل .. لكنى سأفعل كل شيء ممكن
ومستحيل ! » ... فالتفت إلى فرونسكى قائلة : « وقد تورد وجهها :
« لقد ذكرت لك أمس أننى لم أعد أعيا بمحصولى على الطلاق . ومن
ثم لم يكن هناك داع لإخفاء البرقية عني .. ثم أنى كنت أود ألا تعبا
أنت أيضاً بالطلاق ! » .

— إنى أعيا به لأنى أحب استقرار الأمور !

— من أجل ماذا ؟

— ألا تعلمين من أجل ماذا ؟ من أجلك أنت ، ومن أجل

أطفالك فى المستقبل !

— هذا شيء يدعو إلى الأسف !

وكانت مسألة الأطفال تلمس عصباً حساساً فى نفس أنا ، وقد
فسرت رغبة فرونسكى فى النسل بأنها دليل على أنه لا يفتح بها
وبجها لها ! .. وما عثم هو أن أردف موضحاً : « أنا واثق بأن النصيب
الأكبر من عصبيتك مرجعه إلى وضعنا الحالى المبهم ، غير المستقر ! » .

— هذا غير صحيح ، فلست أفهم كيف ترجع « عصبيتى »

— كما تدعوها — إلى كونى خاضعة لسلطانك خضوعاً كاملاً .

وأى إيهام فى وضعنا الحالى ؟ بالعكس إنه ..

— يؤسفنى أنك لا تريدان أن تفهمى : الإيهام ، أو عدم

الاستقرار ، الذى أعتيه ناشئ من تصورك أنى حر ، فى وسعى
تركك فى أى وقت !

— إذا كان هذا قصداك فلك أن تهبط بالآ ، فليس يعتينى البتة
ما تعده لك أمك من صفقات الزواج ! ثم أنا لا أريد أن تكون لى
صلة بأية امرأة متحجرة القلب ، سواء أكانت أمك أو غيرها !

— « أنا » .. أرجو ألا تتكلمنى عن أى فى غير احترام !
— المرأة التى لا يهدها قلبها إلى الاتجاه الذى فيه سعادة ابنها
وشرفه ، تكون متحجرة القلب !

— أكرر رجائى إليك ألا تتحدثى بغير احترام عن أى ، التى
أحترمها !

— تقول ذلك بلسانك فقط ، أنت لا تحب أمك !
ونظرت إليه والكراهية تظفر من عينيها ، فأجابها وهو
يحدها بنظرة صارمة ، وفى صوت أعلى من المألوف :

— حتى لو صح هذا ، فإنك يجب ...

— يجب أن اتخذ قراراً فى الأمر ، وقد اتخذته فعلاً !
وهمت بأن تغادر الحجرة .. ولكن حدث فى تلك اللحظة أن
دخل صديقهما « باشفين » فاضطرت للبقاء حيث هى ، قامعة فى
صدرها عاصفة أحست أنها ستكون نقطة التحول فى حياتها ، وأنها
قد تكون ذات نتائج وخيمة !

• كان ذلك اليوم أول يوم ينقضى على العاشقين في شجار متصل ، بل إنه كان تبادلاً صريحاً للفنور الكامل بينهما ! .. وقد قضت « أنا » اليوم بطوله نهياً للشكوك والريب الخفيفة ، تسائل نفسها عما إذا كان كل شيء قد انتهى ، أم ما يزال هناك أمل في تسوية ؟ .. وحين انقضى اليوم ولم يعد فرونسكى من الخارج ، مضت « أنا » إلى مخدعها تاركة له رسالة مع الخادم تقول فيها إنها أحست صداعاً اضطرها إلى أن تأوى إلى فراشها قبل عودته .. وفي المساء سمعت صوت عزبته تقف بالباب ، ثم سمعت دقته للجرس ، وخطواته ، وحديثه مع الخادم . لقد صدق ما قيل له عن اعتكافها ولم يبال بأن يتحقق منه أو يستفسر عنها ، بل مضى رأساً إلى مخدعه إذ قد انتهى كل شيء ! ولاحت في خاطرها — في وضوح وحدة — فكرة الموت ، باعتباره الوسيلة الوحيدة التي تعيد بها حبها إلى قلبه ، وتنتقم منه ! .. لم يعد يهمها الآن أن تذهب أو لا تذهب إلى الريف ، أن تحصل أو لا تحصل على طلاق ! .. وإنما كل ما يشغلها الآن أن تعاقبه ! .. وحين صبت لنفسها الجرعة المألوفة من الدواء المحتوى على الأفيون خطر بالبال أنه يكفيها لكي تموت أن تجرع محتويات الزجاجية كلها . ما أسهل ذلك وأبسطه ! .. وبدأت تصور لنفسها في لذة ، مبلغ الألم الذي سوف يقاسيه بعد موتها . والندم الذي سيندمه ، والحب الذي سيريقه على ذكراها ، بعد فوات الأوان ! .. ووقدت في فراشها ، مفتوحة العينين ، ولم

تكن تضيء المخلدع غير شبعة واحدة في خريف عمرها ، فحدقت « أنا » في الظلال المتأوجة على السقف وعادت تتخيل ما سوف يحسه حين لا تبقى منها غير ذكرى !
وحين نهضت في الصباح ، عاودتها أحداث اليوم السابق ، وراحت تحدث نفسها : « في بداية اليوم تشاجرنا . كما فعلنا مرات من قبل . وفي المساء قلت إنى أشعر بصداع ، لكنه لم يأت ليرانى . وغداً سنسافر إلى الريف . يجب أن أراه وأعد العدة للسفر . .. »
وإذ علمت أنه في حجرة المكتب مضت إليه . وفيها هي تعبر الردهة سمعت صوت عربية ، فأطلت من النافذة .. وإذا بها ترى فتاة حسناء ذات قبعة أنيقة تعطى تعليماتها للموذى ، الذى صعد فلدق الجرس ، وبعد قليل هبط فرونسكى السلم فصافح الفتاة . التي أعطته طرداً صغيراً ، فابتسم وقال لها شيئاً ، ثم انطلقت العربية بها .. وعاد هو أدراجه إلى الداخل !
.. وفجأة انقشع الضباب الذى كان يغلف كل شيء في وعى « أنا » . وعادت أحداث الأمس تحز قلبها المريض بوخزات جديدة موجعة . فلم تفهم كيف فكرت منذ حين في إذلال نفسها بمصالحته والبقاء معه تحت سقف واحد ! .. ومضت إليه لتعلن إليه عزمها ، فاستقبلها موضحاً : « إنها كانت مدام سوروكين وابتها ، أحضرا لى من بيت أوى النقود والسندات التى لم أستطع الحصول عليها أمس . وعلى فكرة . كيف حالك ؟ هل ذهب عنك

فلأ قلبها رعب بارد ، وشعرت بخوف من الوحدة ، فصاحت بصوت مسموع وهى تعبر الغرفة وتدق الجرس : « كلا ، هذا لا يمكن أن يكون ! » .. وحين أقبل الخادم سأله عن وجهة سيده ، فقال : « إنه ذاهب إلى حظائر جياده » ، فطلبت إليه أن ينتظر لحظة ثم جلست إلى منضدة فكتبت إلى فرونسكى هذه الكلمات : « كنت على خطأ ، عد ثانية . يجب أن أوضح لك الأمر . يحق النساء عد . إنى خائفة ! » ، ثم وضعت الورقة في ظرف وكلفت الخادم بتسليمها إلى رسول يحملها فوراً إلى سيده ! .. ولبت تعد الدقائق وتفكر ، قائلة لنفسها : « إنه سوف يعود . ولكن كيف يوضح ابتسامته للفتاة فى العربة ، وانفعاله وهو يتحدث إليها ؟ ولكن حتى لو لم يبرر ، وقفه قائى سأصدق . لأنى إذا لم أفعل فلن يبقى أمانى غير شيء واحد ، لست أجزؤ عليه ! » .. ونظرت إلى ساعتها . لقد مضت عشرون دقيقة . إنه قد تسلم الرسالة الآن ، وهو الآن عائد فى الطريق . بعد عشر دقائق يصل .. « ولكن ماذا لو لم يعد ؟ كلا ! هذا مستحيل ! .. ينبغي ألا يرانى دامعة العينين . سأذهب لأغتسل .. هل هذبت شعرى ؟ لست أذكر ! » .. وممرت بيدها على شعرها ، فاطمأنت وعادت تنظر فى الساعة . إن موعد وصوله قد اقترب . وانجهت إلى النافذة . « كان يجب أن يكون قد وصل الآن .. ربما أخطأت فى حسابى ! » .

وعادت إلى حساب المسافة والزمن !

الصداع ؟ » .. فنظرت إليه صامتة . وقد وقفت فى وسط الحجيرة ، ولما لم تجب قطب جيبته قليلاً ثم انكب على خطاب فى يده يقرأه .. فأعطته ظهرها وانجهت إلى الباب . وحين بلغته استوقفها قائلاً : « سوف نسافر غداً ، أليس كذلك ؟ » .

— أنت ، لا أنا !

— « أنا » .. لا يمكن أن نستمر على هذا المنوال !

— أنت ، لا أنا !

— هذه حال لا نطاق !

— سوف نندم على كلامك !

.. ثم خلفته وخرجت لا تلوى على شيء ! وأفرغته الالهجة اليائسة التى نطقت بها عبارتها الأخيرة ، فقفز من مقعده ليلحق بها ، ثم أمعن الفكر فجلس ثانية ، وهو يعرض شفته بأسنانه : « هذا التهديد المبذل بشيء غامض بات يثيرنى . لقد جربت كل وسيلة ، ولم يبق غير عدم المبالاة .. فلاجرب هذه الخطوة ! » .. ثم أعد عدته للسفر إلى الضاحية التى تقطنها أمه كى يحصل على توقيعها على بعض الأوراق !

ووقفت « أنا » رقبه وهو يصعد إلى العربة ، ويضع ساقاً على ساق ثم يرتدى قفازيه ، ويخفى به العربة عند أول منعطف ! .. وهمست لنفسها : « لقد ذهب ! .. انتهى كل شيء ! » .. وعادتها ذكرى الظلمة التى سادت مخدعها بالأمس حين انطفأت الشمعة ،

ما كرهت في حياتي شخصاً كراهيتي الآن لهذا الرجل ! إنه جالس ولا يد إلى أمه وفاته « سوروكين » يتحدث في هدوء ، ويسخر من عذابي ! نعم ، يجب أن أذهب إليه الآن ! .. وتعلّكها شوق إلى الفرار بأسرع ما تستطيع من المشاعر التي قاستها في هذا البيت اللعين . إن كل شيء فيه — الجدران ، والأثاث ، والخدم — يثير النفور والبغضاء ، ويحتم مثل ثقل فوق صدرها ! .. « نعم ، يجب أن أهرع إلى المحطة ، فإذا كان قد سبقني بالقطار لحقت به في القطار التالي ! » .

وأعدت حقيبة صغيرة وضعت فيها الأشياء الضرورية التي قد تلمزها لبضعة أيام فقط — ولو أنها رجحت أنها لن تعود إلى هذا البيت مرة أخرى ! — لكنها لم تضع أية خطة لما عساها أن تفعله بعد أن تشفى غليلها منه في المحطة ، أو في ضيعة أمه !

ووجدت نفسها في المحطة ، تستقل قطار الضواحي إلى الضيعة ! ودق الجرس المؤذن بتحريك القطار ، واشتدت الجلبة ، والصياح ، والضحك .. وأثارت أصوات الضاحكين « أنا » : هل في الدنيا شيء يسر به الإنسان ، بل يضحك له ؟ إنها لتود أن تصم أذنيها كي لا تسمع الضحكات .. ودوت صفارة القطار ، وفحيح البخار المحبوس ، وجلجلة السلاسل .. وتحركت أحجار الرصيف ، أو تحرك القطار بمحاذاتها .. ودرجت العجلات على القضبان في نغومة ، وأطلت شمس الغروب من نافذة القطار ، وهزت نسمة خفيفة

وأقبلت عربته أخيراً ، لكنه لم يكن فيها ، وصعد الرسول ليخبرها بأنه لم يدركه في الحظائر .. كان قد رحل ! .. فهتفت به « أنا » : « أحمل الرسالة إلى دار والدته الكونتة ، في ضيعتها .. وعد بالرد فوراً ! » .. ثم استطردت محدثة نفسها بعد انصراف الرسول : « ولكن ماذا أفعل في انتظار عودته ؟ إلى أفقد عقل لو بقيت وحدي . فلأذهب إلى دولي ! وفي وسعي أن أبرق إليه أيضاً . » ، وتناولت ورقة كتبت عليها نص برقية إليه : « يجب أن أتحدث إليك .. عذ فوراً ! » .. ثم مضت فارتدت قبعتها واستقلت العربة إلى منزل أسرة أوبلونسكي !

• • •

● حين غادرت « أنا » منزل دولي كانت في حالة نفسية أسوأ من حالتها حين دخلته .. فقد وجدت كيتي عند شقيقتها ، ولم تجد الفرصة أو الشجاعة لمفاتيحة دولي في شيء ! وبالإضافة إلى عذابها السابق ، قاست لونا آخر من المذلة ، فعندما واجهت كيتي تفاقم شعورها بأنها امرأة طريفة منبوذة ! .. ولم تكذب تبلغ البيت حتى سألت الحارس في لهفة : « أما من برقية لي ؟ » .. فسلمها برقية ، فقضتها وقرأت فيها : « لا أستطيع الحضور قبل الساعة العاشرة — فرونسكي » .. فاستيقظت فيها شهوة الانتقام ، ومضت تحدث نفسها : « إذن فأنا أعرف ما ينبغي أن أفعل . سأذهب إليه بنفسى وأصارحه بكل شيء ، قبل أن أخنق من حياته إلى الأبد ..

ستأثرها .. فعادت « أنا » تفكر في أمرها : « إلى أين كنت قد وصلت في تفكيري ؟ إلى أين لست أجد لحياقي مخرجاً ينتشلني من تعاسي - لقد خلقنا جميعاً لتكون نساء ، ونحن نعرف ذلك ، لكننا نفتن في اختلاق الوسائل كي نخدع بعضنا بعضاً ! » .

ووصل القطار إلى المحطة التي تقصدها ، فترلت « أنا » في زحمة النازلين ، ثم ابتعدت عنهم كما يتجنب المرء أبرص ، وانتحت جانباً من الرصيف ، محاولة أن تدبر أمرها : ما الذي جاء بها إلى هنا ؟ وماذا تنوي أن تفعل حين تلقاه ، وتلقى أمه ، وتلقى كل من يعرفها من أهله في الضيعة ؟ . وبدت لها الأمور التي رأتها معقولة سهلة أول الأمر ، وقد تعقدت وصارت مستحيلة ! .. ولا سيما وسط هذا القطيع الصاخب من البشر والجمالين الذين لا يريدون أن يدعوها في سلام ! .. وخطر لها أن تستفسر من أحد الجمالين الذين تراحموا عليها يعرضون خدماتهم ، هل رأى حوذاً يحمل رسالة من عند الكونت فرونسكي ؟ فأجابها الجمال متحمساً : « الكونت فرونسكي ؟ لقد وصلت عربته منذ لحظة لتستقبل الأميرة سوركين وابتها ! » .. وفيما هي تكلم الجمال أقبل الحوذي الذي كانت أرسلته إلى فرونسكي حاملاً رده عليها ، ووجهه يتهلل بشراً بنجاحه في تأدية المهمة ! .. وفضت « أنا » الرسالة وقرأت فيها بخط ينم عن الإهمال : « آسف جداً لأن رسالتك لم تصلني إلا الآن . سأعود في العاشرة .. » فارتسمت على وجهها ابتسامة شريرة ، وحدثت

نفسها : « هذا ما توقعته ! » . ثم صرفت الحوذي في صوت لاهث ، وحدثت نفسها ، تخاطب القوة المجهولة التي نسجت عذابها : « كلا ، لن أدعك تستمرين في تعذيبي ! » .

وأقفر الرصيف من الناس ، فاتجهت نحو طرفه الأقصى وهي ما زالت تحدث نفسها : « يا إلهي ، إلى أين أذهب ؟ » .. وفجأة لاحت في خاطرها ذكرى العامل الذي يحققه القطار يوم رأت فرونسكي لأول مرة ، فأدركت ما ينبغي أن تفعل ! .. وفي خطوات سريعة خفيفة هبطت درجات السلم الصغيرة التي تؤدي من الرصيف إلى الشريط الحديدي ، ووقفت على قيد خطوة من قطار البضاعة الآتي في الاتجاه المضاد ، تنطلع إلى الجزء الأسفل من العربات ، وتقيس بنظرها المسافة بين العجلات الأمامية والخلفية لكل عربة . ثم حدثت نفسها وهي تنظر إلى الغبار و تراب الفحم الذي يكسو « الفلنكات » : « هناك .. في الوسط تماماً .. سوف أعاقبه ، وأفر من الناس جميعاً ، ومن نفسي ! » .

وحاولت أن تلتقي بنفسها تحت عجلات العربة الأولى ، حين مرت بمحاذاتها . لكن الحقيبة الحمراء التي حاولت أن تعلقها من يدها عاقبتا عن انتهاز الفرصة في اللحظة الملائمة .. فاضطرت إلى انتظار مرور العربة التالية . واعتراها شعور المقدم على القفز إلى حوض السياحة لأول مرة . فرسمت علامة الصليب .. وأعادت هذه الحركة المألوفة إلى وعيها سلسلة كاملة من ذكريات الصبا

والطفولة .. وفجأة انقضت من أمامها الظلمة التي كانت تكتنف كل شيء ، ولاحت لها الحياة بكل متعها الماضية المشرقة ، لكنها لم تحول بصرها عن عجالات العربة الثانية .. وفي اللحظة التي حاذاها فيها الفراغ الفاصل بين العجالات الأمامية والخلفية ، تركت الحقيبة الحمراء تسقط من يدها .. وألقت بنفسها !

وأصابها رعب قاتل مما فعلت : « أين أنا ؟ ماذا أصنع ؟ ولماذا ؟ » . وحاولت أن تنهض ، أن تراجع ، لكن شيئاً هائلاً قاسياً صدم رأسها وألقاها على ظهرها ، فصاحت : « يا إلهي ، اغفر لي ! » .

وأحست أن أية مقاومة باتت عقيمة .. والنور الذي قرأت على هديه الكتاب الحافل بالمتاعب ، والزيف ، والأحزان ، والشرور .. توهج لحظة ، أبهى مما كان ، فأضاء في وعيها كل ما كان غارقاً في الظلام ، محجوباً عن بصيرتها .. ثم اختلج ، وبدأ يغيب ويتضاءل .. حتى انطفأ إلى الأبد !

« تمت »



مطبوعات كتابي إصدار جديد

عزيزى القارئ :

في هذه الطبعة المبسطة من رائعة (تولستوى) الخالدة ، تقرأ رواية (أنا كارنينا) بأسلوب جذاب ، يحتفظ بأجل العبارات التى صاغها المؤلف فى النص الأصيل ، مع استبعاد التفاصيل الجافة التى لا تهم القارئ العربى .. فهى طبعة وسط بين الترجمة الكاملة وبين التلخيص ، إذ لا يخفى عليك أن الترجمة الكاملة لهذه الرواية الطويلة تستغرق ما لا يقل عن ألف صفحة من هذا القطع ، الأمر الذى يعد شاقاً بالنسبة للقارئ العربى ، الذى لا تعنيه التفاصيل ذات الصبغة المحلية الصرفة ، التى لا تهم سوى القارئ الروسى الملم بالأجواء التى تجرى فيها أحداث الرواية ، فى الزمان الذى تجرى فيه .. لذلك رأيت أن أترجم لك الرواية فى هذا القالب الذى يناسب القارئ العصرى ، وبأسلوب المبسط الذى يتفق مع حاجة الشباب المعطش إلى التزوّد بروائع الآداب العالمية ، فى أنسب وأجمل صياغة عربية .
والله ولى التوفيق .



حامى مراد

١٠٠ قرش